الهلال

يونيه ١٩٣٨



أبو العلاء المعري

عدد خاص

فهرس الهلال

الجزء الثامن من المجلد السادس والاربعين

الهلال

الجزء الثامن ـ السنة ٤٦

أول يونيه ١٩٣٨ ـ ٢ ربيع الثانى ١٣٥٧

عنوان المكاتبات :

دار الهلال ، مصر ـ البوستة العمومية

قيمة الاشتراك : مصر والسودان ٨٥ قرشا ، سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق ١٠٠ قرش ، البلدان الأخرى ١٣٠ قرشا أو ـ/٧/١ جنيه انجليزى ، أو ٦٫٥٠ دولاراً أمريكيا

AL HILAL — Cairo, Egypt

(1 June 1938)

SUBSCRIPTION RATES : Egypt and Sudan P.T. 85. — Syria, Lebanon, Palestine, Transjordania and Irak P.T. 100. — Other countries P.T. 130 or £ 1-7-0 or $ 6.50.

صورة الغلاف

زينا غلاف هـذا السفر بطابع البريد الذى أصدرته حكومة سوريا سنة ١٩٣٦ تخليداً لذكرى الشاعر الفيلسوف العبقرى الذى أنجبته ، فحق لهـا أن تفاخر باسمه وتشيد بذكره



أبو العلاء المعرى

[في خيال الرسام]

تمهيد

يغتبط « الهلال » إذ يخرج هذا الجزء الخاص للاشادة بذكرى فحل من فحول الأدب العربي وقطب من أقطاب التفكير فى العالم

ولاغتباطه هذا أسباب نجملها فيما يلى :

أولا ــ ان فى إصدار هذا الجزء مساهمة فى إحياء مفاخر العرب الذهنية . وجدير بنا نحن الناطقين بالضاد على اختلاف مواطننا أن نحدث العالم مثل هذا الحديث بين حين وآخر ، ففيه رفع لمكانتنا وتذكير بنصيبنا من الرقى الفكرى والثقافة الانسانية

ثانياً ــ انه تكريم للفكر والتفكير وتمجيد للنزعة الشعرية ــ فى زمن شغل الناس فيه عن المعنويات بهام العيش ونزاع البقاء . «فالهلال» يغتبط إذ يذكر بالأقدار الرفيعة والقيم الذهنية ، وإذ ينادى بتفويق النشاط العقلى على المشاغل الوضيعة الذى يستوى فيها البشر على تفاوت مراتبهم

ثالثاً ــ جاء هذا الجزء من « الهلال » كالمؤتمر للتفكير العربى . فقد اجتمع على صفحاته المفكرون من أبناء البلاد العربية على اختلاف منازعهم ــ وما أحوجنا الى تقريب المسافات بيننا وتلاقى العقول والقلوب !

***

وفى اعتقادنا ان « الهلال » يحسن أداء رسالته بمثل هذه الجهود ، ففى حين لا نغفل عن « أن مصر جزء من أوربا » يجب كذلك ألا يفوتنا أننا قد استودعنا ميراثاً أدبياً حقيقاً بأن نفاخر به الأمم وأن يحثنا هذا الميراث على السير فى الطريق الموصل الى أسمى مراتب الحياة وأرفع درجات الرقي

***

وبعد « فالهلال » يتقدم بهذا الجزء الى قرائه الكرام واعداً بمواصلة سعيه من هذه الجهة ، باصدار أجزاء خاصة كهذا الجزء حيناً بعد حين ، شاكراً للزملاء الأفاضل والاصدقاء الكرام معاونتهم فى إخراج هذا السفر الأدبى القيم ــ وفقنا الله جميعاً الى ما فيه صلاح العقول والنفوس ، والسلام

اميل زيدان

تحيـــة

بقلم صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف العمومية

تفضل حضرة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا بافتتاح هذا السفر الممتاز بهذه الكلمة الرقيقة البليغة ، فنشكر لمعالى الوزير تحية الكريمة لجهود « الهلال » ، ورعايته المحمودة للحركة الثقافية

عزيزى محرر « الهلال »

أشاركـكم مشاركة صادقة فى الاحتفاء بذكرى المعرى لمرور الف عام على ميلاده . واذا كنتم قد تعجلتم هذا الاحتفاء بضع سنوات ـ لأن المعرى قد ولد سنة ٣٦٣ هـ ـ فلا ضير من ذلك ونحن فى القرن العاشر بعد ذلك الميلاد . . .

وانما يدعونى الى مشاركتكم فى الاحتفاء بهذه الذكرى العظيمة ما لها من معنى سام ومغزى كبير . فالاحتفاء بذكرى العظماء إنما هو احتفاء بالمجهود الانساني الكبير الذى قاموا به وخلفوا للانسانيـــة ثمراته . ونحن إذ نحتفى بذكرى هؤلاء العظماء إنما نؤدى لهم واجب الشكر على ما نمتع به أنفسنا من هـــذه الثمرات ، كما يشكر أحدنا صاحبه حين يقوم له بعمل نافع . . .

والمعرى جدير بالاحتفاء بذكراه فى كل مناسـبة . فهذا الرجل الذى عاش فى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، والذى كف بصره من جـدرى أصابه فى الثالثة من عمره ، قد توفر على تمثل المعارف الاجنبية ـ اغريقية كانت أم فارسية ـ مما نقله العرب فى تلك العصور ، ثم صاغها شعراً عربياً ، وأدخلها فى حياة

قومه ، فأصبحت اليوم بعض ميزاتهم ، و بعض ما يفاخر به الناطقون بالعربية غيرهم من الامم

وقد نقل المعرى الشعر العربى فى عصره نقلة واسعة المدى : حمل الشعر من المعانى الفلسفية العميقة ومن الآراء النظرية المتباينة ، ما لم يسبقه اليه غيره من شعراء العرب إلا لماما . وقد اتهم لذلك بالزندقة آنا ، و بالالحاد آخر ، على حين اعتبره قوم على رأس أشد المؤمنين غلوا فى إيمانهم . ولا عجب فى هذا ولا فى ذاك . فتقليب الافكار وعرضها على الناس ، مطبوعة بطابع من يعرضها ،منكرة فى كثير من الأحايين ما وجد الناس عليه آباءهم ، قد كان فى عصور كثيرة و فى بلاد مختلفة ، موضع الريبة والظن ، بل موضع الاتهام والتجنى . ذلك أمر لم تنفرد به البلاد العربية ولا البلاد الاسلامية ، بل جرى حكمه على الامم كلها فى الأزمان المختلفة ، وكان فى بعض الامم سبباً فى تعديل أصحاب الرأى لرأيهم ، مما نجا منه العرب والمسلمون فلم يتورطوا فيه كما تورط أهل أوربا فى القرون الوسطى

ولقد كان بودى أن أزيد فى مشاركتكم الاحتفاء بذكرى أبى العلاء على هذه الكلمة القصيرة ، لكنكم تعلمون أن التوفر على الدرس يقتضى من الطمأنينة ما ليس فيما يتيحه القدر لى فى هذا الظرف من حياتى . فاعتذر لكم ، واثقا من أن هذا العدد من « الهلال » سيتناول من البحوث ما يغنى قراءه خير غناء . .

ولكم منى أصدق التحية

محمد حسين هيكل

أبو العلاء المعرى

سطور من تاريخ حياته

* هو احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، فهو عربي النسب من قبيلة تنوخ احدى قبائل اليمن

* ولد فى معرة النعمان ، بين حماة وحلب ، فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الاول سنه ثلاث وستين وثلثمائة للهجرة (٩٧٣ م .) . وكان أبوه عالما بارزاً ، وجده قاضيا معروفا

* جدر فى الرابعة من عمره ، فكفت عينه اليسرى وابيضت اليمنى ، وظل ضريراً لا يرى من الألوان الا الحمرة ، اذ كان آخر لون رآه لون ثوبه المعصفر الذى لبسه وهو مريض

* تلقى على أبيه مبادىء علوم اللسان العربى ، ثم تتلمذ على بعض علماء بلدته . وكان حاد الذكاء قوى الذاكرة فيحفظ كل ما يسمع من مرة واحدة

* ثم اعتكف فى بيته حتى بلغ سن العشرين ، مكبا على درس اللغة والادب ، حتى أدرك من دقائق التعبير وخواص التركيب ما لا مطمع بعده للغوى أو أديب . وقد بدأ يقرض الشعر وما زال فى سن الحادية عشرة

* وفى سنة ٣٩٢ هـ . غادر قريتـه قاصداً بلاد الشام . فزار مكتبة طرابلس التى كانت فى حوزة آل عامر ، وانقطع اليها فترة طويلة فانتفع بما فيها من أسفار جمة

* ثم زار اللاذقية وعاج على دير بها ، وأقام فترة بين رهبانه فدرس عليهم أصول المسيحية واليهودية ، وناقشهم في شتى شئون الاديان ، وبدأ حينئذ شكه وزيغه فى الدين

* وقصد بعد ذلك بغداد ، وهى مستقر العلم ومثابة العلماء فاحتفى به البغداديون وأقبلوا عليه . فأقام بينهم فترة طويلة يدرس مع علمائهم الاحرار الفلسفة اليونانيـة والحكمة الهندية ، ويعرض آراءه ويذيع مبادئه على جمع من التلاميذ لازموه وتشيعوا له

* وكان قد فقد أبيه فى سن الرابعة عشرة ، فلما فقد أمه كذلك وهو فى بغداد وجد عليها وجداً مبرحا ، وأحس الخطوب الداهمة تترى عليه بغير ذنب جناه ، فبدأ ينظر الى العالم نظرة السخط والمقت والازدراء ، ورأى من الخير أن يعتزله ويزهد فيه

* فعاد الى بلدته سنة ٤٠٠ ، واحتجز نفسه فى كسر داره ، وسمى نفسه رهين المحبسين: العمى والمنزل

* وظل معتقلا عن الناس ما عدا تلاميذه ، دائبا على البحث والتعليم والكتابة. فأخرج مجموعة ضخمة من التواليف ذهبت بأكثرها ريح الحروب الصليبية

* وأشهر كتبه : (١) ديوان سقط الزند ويضم شعر شبابه (٢) ديوان اللزوميات ويضم شعر كهولته (٣) رسالة الغفران وهى قصة خيالية فريدة فى الادب العربى (٤) ديوان رسائله ورسالة الملائكة والدرعيات (٥) كتاب الفصول والغايات . وقد فقد كتاب « الأيك والغصون » وهو موسوعة فى العلم والأدب تتألف من مائة مجلد ، شرح ديوان المتنبى « معجز احمد » ، وشرح ديوان البحترى «عبث الوليد» ، وشرح ديوان أبى تمام « ذكرى حبيب »

* كان زاهداً فى ملذات الحياة ، فظل ٤٥ سنة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج من لبن وبيض ، قانعا من الطعام بالعدس ومن الحلوى بالتين ، ومن المال بثلاثين ديناراً فى العام يستغلها من عقار له

* كان متوهج الذكاء مرهف الذاكرة ، وكان كريم الخلق رقيق القلب ، ولكنه كان يسىء الظن بالناس ويحذرهم ، ويمقت الدنيا ولا يرى فيها إلا الشرور والآثام

* أما عقيدته فقد اختلف فيها الناس فمنهم من زعم انه متصوف ، لكلامه باطن وظاهر ، ومنهم من زعم انه كافر ملحد ، والغالب انه كان متشككا متحيراً ففى شعره ما يدل على الايمان وما يدل على الكفر

* وقد أبى أن يتزوج لئلا يجنى على ابنه ما جناه عليه أبوه . ولما مات سنة ٤٤٩ وقف على قبره مائة وثمانون شاعرا فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون ، وقد أوصى أن يكتب على قبره :

هـذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

المعرّى:
أشاعر أم فيلسوف

بقلم الدكتور طه حسين بك
عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

« . . . أبو العلاء شاعر فى فلسفته وفيلسوف فى شعره . قد جمل الفلسفة بما أسبغ عليها من الفن ، ومنح الشعر وقاراً ورزانة بما أشاع فيه من الفلسفة . وهو من هذه الناحية فذ فى أدبنا العربى . . . »

سؤال كان يلقيه على أحد الأصدقاء ذات يوم كنا نتحدث فيه عن هذا الجزء الذى تخصصه « الهلال » لأبى العلاء وعن بعض ما سينشر فيه من الفصول

وكان صديق يريدنى على ان أجعل هذا السؤال موضوعا للفصل الذى سأرسله الى الهلال لأشترك فى هذه التحية التى يهديها الأدباء الى نابغة الأدب العربى . وقد ألقيت هذا السؤال على نفسى منذ أكثر من عشرين سنة ، وأجبت عليه بأن أبا العلاء شاعر وفيلسوف معا ، وبأنه أكثر من الشاعر والفيلسوف ، فهو كاتب ، وهو أديب ، وهو عالم باللغة على أدق ما كان العرب يفهمون هذه الالفاظ فى عصره

وقد مرت الأعوام واختلفت الظروف وعرفت أشياء كنت أجهلها ، وجهلت فى أكبر الظن أشياء كنت أعرفها ، ولكن رأيى لم يتغير فى أبى العلاء ، فما زلت أراه شاعراً وفيلسوفا وكاتبا وأديبا وعالما باللغة أيضا . ولعل رأيى فيه قد ازداد قوة ، ولعل اقتناعى باضافة هذه الخصال اليه لم يكن فى يوم من الأيام أقوى مما هو الآن ، كما يقول المتجادلون فى السياسة عندنا بين حين وحين

ومن الحق أن أحداً من الناس لم يجادلنى فى ان أبا العلاء شاعر أو كاتب أو أديب أو عالم باللغة ، ولكن من الناس من جادلنى فى ان أبا العلاء فيلسوف ، ولعل اشدهم لى مجادلة فى ذلك الاستاذ نيكولسن المستشرق الانجليزى المعروف . فهو لا يرى فى حكمة أبى العلاء التى تمتلىء بها اللزوميات والتى تشيع فى غير اللزوميات من كتبه مظهراً من مظاهر الفلسفة كما يفهمها أهل هذا العصر الحديث ، وانما يراها حكمة عادية تقوم على التأمل والتفكير

وأخص ما يحول عنده بين أبي العلاء وبين لقب الفيلسوف انه لم يقم لنفسه مذهبا فلسفيا واضح

الاعلام متميز النواحى متصل الاجزاء ، نستطيع أن نبينه ونرسم حدوده كما نبين المذاهب الفلسفية ونرسم حدودها حين نتحدث عن افلاطون أو ارسططاليس أو أى فيلسوف من فلاسفة العصر الحديث

فالاستاذ نيكولسن يرى إذن من الاسراف وصف أبى العلاء بأنه فيلسوف ، ووصف اللزوميات بأنه كتاب من كتب الفلسفة . ومع ذلك فأبو العلاء فيلسوف وكتاب اللزوميات كتاب فلسفى ما اشك فى ذلك ولا اتردد فى اعلانه والجدال عنه ، وكل مافى الأمر اننا محتاجون الى أن نتفق على معنى الفيلسوف وعلى معنى الفلسفة حين نضيف اليها كتابا كاللزوميات . وقد أذكر انى حددت منذ أكثر من عشرين سنة هذين المعنيين حين أضفتهما الى حكيم المعرة وفهمتهما على نحو ما كان يفهمهما القدماء من اليونان والعرب . فالفيلسوف عندى هو الرجل الذى يبحث عن الحق ما استطاع ، فاذا استكشفه أو استكشف ما يعتقد انه الحق ، لاءم بين علمه وعمله ورتب حياته اليومية على ما يهديه اليه عقله من حقائق الأشياء وأصول الاخلاق . وفهمت من الفلسفة ما كان يفهمه منها قدماء اليونان والعرب أيضا ورتبتها على نحو ما كانوا يرتبونها ، فقسمتها الى فلسفة طبيعية وفلسفة رياضية وفلسفة الاهية وفلسفة عملية . ثم رأيت ان أبا العلاء قد كان فيلسوفا بهذا المعنى الذى كان به فلاسفة اليونان والعرب فلاسفة ، وان كتاب اللزوميات قد كان فلسفيا بنفس المعنى التى كانت به الكتب المختلفة التى وضعها الفلاسفة كتبا فلسفية . ولكنه كان يزيد عليه شيئا يرفع من مرتبته ويعلى من منزلته ويجعله ممتازاً بين كتب الفلسفة بنفس هذه الخصلة التى امتازت بها قصيدة لوكريس فى طبيعة الاشياء ، وهى الميزة الفنية العليا — ميزة الشعر

أما ان أبا العلاء كان فيلسوفا بهذا المعنى القديم فما أحسب ان احداً يستطيع أن ينكر ذلك أو يجادل فيه ، فقد أفنى ابو العلاء عمره بحثا عن الحق ، ولعله بذل فى ذلك من الجهد الشخصى الممتاز ما لم يبذله كثير من الفلاسفة الذين لا يجادل أحد فى اضافة الفلسفة اليهم . ذلك ان أبا العلاء لم يكن فيلسوفا مقلداً ، أو قل — اذا أردت الدقة فى التعبير — انه لم يكن منتميا الى مذهب بعينه من مذاهب الفلاسفة يؤمن بأصوله المقررة ويضيف اليه ما يستكشفه بعد البحث والاجتهاد ، وانما كان مفكراً بأوسع معنى لهذه الكلمة ، يتعمق التفكير فى كل ما يعرض له من المسائل ، وكان مستعرضا لكل المذاهب الفلسفية التى عرفها المسلمون فى عصره يلم بها جميعا فيأخذ منها ويدعها ، ثم يدع ما أخذ ويأخذ ماترك ، حتى كانت حياته كلها — ولا سيما بعد العزلة — تفكيراً متصلا ونقداً مستمراً وتنقلا بين الآراء والمذاهب الفلسفية واستكشافا لأشياء لعل القدماء لم يسبقوه اليها . فانت لا تستطيع أن تقول إنه كان افلاطونيا ، أو انه كان من أصحاب ارسططاليس ، أو انه كان من أصحاب الرواق ، أو انه كان من أصحاب ابيقور ، ولكنك تستطيع أن تقول انه كان من هؤلاء جميعا ، يأخذ من كل فريق منهم ما يرضيه وما يلائمه فى اللحظة التى يفكر فيها . بل أنت لا

تستطيع ان تقول انه كان فيلسوفا على الطراز اليونانى ، أو على الطراز الاسلامى اليونانى ، ولا أن تقول انه كان فيلسوفا على الطراز الهندى ، أو على الطراز الفارسي ، ولكنه كان فيلسوفا على طراز هذه الامم جميعا . يأخذ من فلاسفة اليونان ومن فلاسفة المسلمين ومن حكماء الفرس والهند ، ثم لايكفيه ذلك فيشارك فى فقه الفقهاء وحديث المحدثين وكلام المتكلمين وتصوف المتصوفة وتشيع الشيعة ، ثم لا يكفيه هذا كله بل يشارك فى علوم اللغة ويقرب هذه العلوم الى الفلسفة ويخضعها للفلسفة ، ويستخرج منها نظاما فلسفيا طريفا ما زال فى حاجة الى من يفرغ له ويوفيه حقه من البحث والدرس

لم يكن ابو العلاء إذن فيلسوفا متبعا أو مقلداً ، أو مقصوراً على مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق ، وانما كان متخيراً : كان أشبه بالنحلة التى تنتقل بين الزهر لا فى هذه الروضة أو تلك ، بل فى كل ما يمكن أن تلم به من الرياض ، فتأخذ من كل زهرة تقف عندها ، ومن كل روضة تلم بها ، وتسيغ هذا كله وتستخلص منه هذه الفلسفة الغريبة المختلفة المتناقضة التى تمتلىء بها الازوميات والتى تنتثر وتنتظم فيما الف من الكتب المختلفة

كان الرجل جاهداً فى التماس الحق والبحث عنه ، وكان صادق الجهد خالص النية فى هذا البحث ، وكان ملائما بين ما يستكشف من الحق وما يأخذ نفسه به من قوانين الحياة اليومية . وأغرب ما نجده عند أبى العلاء هو أنه على كثرة تنقله بين مذاهب الفلسفة التى عرفتها الأمم المتحضرة كلها ، وعلى كثرة ما نجد فى آرائه من التناقض والأضطراب ، قد رسم لنفسه خطة عملية لم تتغير ، وفرض على نفسه سيرة لم ينلها الاضطراب ، وانما لزمها منذ عاد من بغداد الى أن فارق الدنيا ، لم ينحرف عنها يوما أو بعض يوم . فقد اضطربت حياته العقلية أشد الاضطراب ، وهدأت حياته العملية أشد الهدوء ، وكان هذا التناقض بين الحياة العملية الهادئة الراكدة والحياة العقلية الثائرة الجامحة ، مظهر شذوذ أبى العلاء ، ثم مظهر نبوغه وتفوقه وامتيازه على كل من أنتجت الحياة العقلية الاسلامية من الفلاسفة والشعراء . ذلك أنه لم يكن فيلسوفا فحسب ، ولو كان شاعراً ليس غير لاضطربت حياته العملية كما اضطربت حياته العقلية ولكنه جمع بين الخصلتين : جمع التفوق العقلى الذى هداه الى غرور الحياة وأقنعه بالهدوء والعزلة والتخفف من الأثقال ، الى التفوق الفنى الذى دعاه الى التفكير فى كل شىء والنقد لكل شىء والتصوير لكل ما أساغه والتعبير عن كل ما تصوره فى صورة فنية رائعة ، كما كان الناس يتصورون الروعة فى ذلك الوقت

وقد كنت أقرأ منذ حين فصلا رائعا لبول فاليرى عن الفنان العظيم ليونارد دى فنشى . وقد حاول بول فاليرى فى هذا الفصل أن يقرب بين ليونارد وبين الفلسفة ، بل أن يجعله فيلسوفا ، غاية الأمر أنه أعرب عن فلسفته باثاره الفنية التصويرية ولم يعرب عنها بما تعود الفلاسفة أن

(البقية فى صفحة ٩٥٩)

المعرى : أشاعر أم فيلسوف

(بقية المنشور على صفحة ٨٥٠)

يعربوا به عن فلسفتهم من الالفاظ . وقد انتهى بول فاليرى الى اثبات أن الفلاسفة آخر الأمر ليسوا إلا جماعة من أصحاب الفن هم كالشعراء والمثالين والمصورين يرون الطبيعة والحياة والكون على نحوما ، ثم يظهرون ما رأوا فى هذا البناء الفلسفى الجميل الذى يهدى الينا اللذة والمتاع

ومن الأدلة القاطعة عنده على صحة هذا الرأى أننا ما زلنا وسنظل نقرأ افلاطون وليبنتز وسبينوزا فنجد فى قراءتهم لذة ومتاعا لا يرتقى اليهما الشك ، ومع ذلك فما أكثر ما بطل من فلسفة هؤلاء الفلاسفة وما أقل ما بقى منها . فما مصدر هذه اللذة التى نجدها فى أشياء نعلم أن الفلسفة الحديثة والعلم الحديث قد قضيا عليها قضاء أخيراً . أليس هنالك شبه بين هذه اللذة وبين اللذة التى نجدها عند ما تقرأ هوميروس أو فرجيل أو دانت ، أى أليس هنالك شبه بين اللذة التى نجدها حين نقرأ الفلاسفة ، واللذة التى نجدها حين نقرأ الشعراء ، بل لا شك فى أن هاتين اللذتين متقاربتان أشد التقارب ، وهما متقاربتان لأن فى الفلاسفة حظا من الشعر ، أو لأن فى الشعراء حظا من الفلسفة ، أو لأن فى أولئك وهؤلاء حظا مشتركا من الفن هو الذى يمنحنا هذه اللذة

وقد فكرت فى أبى العلاء حين كنت اقرأ هذا الفصل كما فكرت فى لوكريس وكما فكرت فى أفلاطون . كلهم شاعر وان كان ثالثهم لم يتخذ النظم وسيلة إلى اعلان شعره . كلهم شاعر وكلهم فيلسوف وكلهم يستطيع أن يعجبنا ويمتعنا بهذا المزاج الرائع الذى يلذ قلوبنا وعقولنا

فمن قال أن أبا العلاء شاعر فهو لم يخطىء الحق ، فشاعرية أبى العلاء لا شك فيها ، ولعلها قد قصرت من بعض النواحى عن شاعرية أبى تمام وأصحابه من المبصرين ، ولكنها قد تفوقت من بعض النواحى على شاعرية هؤلاء المبصرين لانها تعمقت من الحقائق ما لم يتعمقوا ، وسمت من الحكمة إلى ما لم يسموا اليه . ومن قال أن أبا العلاء فيلسوف لم يخطىء الحق أيضا فقد رأيت أن الرجل قد شارك الفلاسفة فى فلسفتهم ، ولعله قد قصر عما وصل اليه ابن سينا أو الفارابى من تعمق بعض النظريات ومن اقامته المذاهب النسقة المنظمة المضطردة التى لا يفسدها الاضطراب والاختلاف ، ولكنه قد تفوق على هؤلاء الفلاسفة لأنه استنزل الفلسفة من معقلها وأحياها فى البيئة التى يعيش فيها الناس ، وجعلها انسانية لا تبلغ العقول وحدها ولكنها تبلغ القلوب فتشيع فيها الحب والرحمة والحنان ، كما تشيع فيها السخط والثورة والغضب ، ولكنه سخط لا ينتهى إلى البغض ، وثورة لاتنتهى الى الحقد ، وغضب لا ينتهى الى افساد ما بين الناس من الصلات

أبو العلاء شاعر فى فلسفته وفيلسوف فى شعره قد جمل الفلسفة بما اسبغ عليها من الفن ،

ومنح الشعر وقارا ورزانة بما أشاع فيه من الفلسفة ، وهو من هذه الناحية فذ فى أدبنا العربى كما قلت الف مرة وكما سأقول الف مرة أيضا

على أن هناك ناحية أشرت اليها منذ حين لم تدرس كما ينبغى من فلسفة أبى العلاء وفنه معا ، وهى خليقة بالدرس وخليقة بالاعجاب ولها خطرها فى تصوير نفسية هذا الشاعر الفيلسوف ، فلم يملك أحد امر اللغة العربية كما ملكه أبو العلاء ، ولم يفرغ أحد للغة العربية كما فرغ لها أبو العلاء ، ولم يتحكم أحد فى الفاظ اللغة العربية كما تحكم فيها أبو العلاء . أنفق صباه وشبابه فى الدرس والتحصيل والمشاركة فى الحياة الادبية على نحو ما كان يفعل المثقفون الممتازون فى عصره ، ثم كانت المحنة واضطر الى العزلة ولزم داره وأصبح رهين المحبسين أو رهين المحابس الثلاثة ، رهين داره ورهين جسمه ورهين هذه الآفة التى حالت بينه وبين النظر الى الطبيعة وما يضطرب فيها من الكائنات . فعكف على نفسه ونظر فيها ، فماذا وجد ؟ وجد معانى لا تكاد تحصى قد حصلها أثناء الدرس وما زال يحصلها بعد العزلة ، ووجد الفاظا قد اجتمعت له من درسه اللغوى وكان حظه من هذه الثروة اللفظية عظيما ، ثم نظر فاذا هو مضطر الى ان ينفق حياته بين هذه المعانى وهذه الالفاظ لايستطيع أن يفلت منها ولا ان يخلص من الحاحها عليه . إذا نظر فى المعانى اضطربت اراؤه وثارت فى نفسه العواطف المتناقضة والاهواء المتضاربة وإذا نظر فى الألفاظ أخذه الاعجاب بكثرة ما وعى منها . فهو إذن مضطر إلى أن يقاوم هذه المعانى وإلى أن يقاوم هذه الألفاظ وإلى أن يحول بينها وبين أن تتحكم فيه . وسبيله إلى ذلك أن يتحكم فيها هو وان ينفق حياته مزاوجا بين تلك المعانى وهذه الألفاظ ، وكذلك فعل . فأنت لا تراه إلا عابثا بالمعانى وعابثا بالألفاظ ، يلائم بين المعنى والمعنى ، ويخالف بين المعنى والمعنى ، كما يلائم ويخالف بين الالفاظ ، وكما يلائم ويخالف بين الالفاظ والمعانى . وانك لتقرأ ما بقى لنا من آثاره فلا تكاد تدفع عن نفسك الشعور بأن هذا الرجل قد خلى بينه وبين المعانى والألفاظ فهو يلعب بها ويتلهى بهذا اللعب لأنه لا يجد شيئا آخر ينفق فيه وقته وجهده

وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم هذه الخطة العنيفة التى فرضها على نفسه فى « اللزوميات » فأخذ نفسه بالتزام مالا يلزم فى القافية ، كما أخذ نفسه بالتزام مالا يلزم من النظم على جميع حروف المعجم . وعلى هذا النحو أيضا تستطيع أن تفهم « الفصول والغايات » . فقد فرض على نفسه فى النثر شيئا قريبا جداً مما فرض على نفسه فى الشعر ، فهو يضع فصوله هذه الكثيرة يلتزم السجع فى كثير منها ولكنه يجعل لكل فصل منها غاية ، ويلتزم فى هذه الغاية هذا السجع ، ويأبى الا أن يقيم هذه الغايات على حروف المعجم كلها كما أقام اللزوميات على حروف المعجم كلها

وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم هذه القصة اليسيرة الظريفة التى عرض لها فى رسالة الغفران حين ذكر قصة خلف الاحمر مع أصحابه وقد سألهم عن بيتى النمر بن تولب :

ألم بصحبتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلا مصفى اذا شاءت وحوارى بسمن

فسألهم ما عسى أن تكون قافية البيت الثانى لو أن الشاعر قال فى البيت الأول « أم حفص » فلما سكتوا قال خلف الأحمر « حوارى بلمص » . فيتهز أبو العلاء هذه الفرصة ويفرع عليها كما يقول ، ويفترض قافية البيت الأول على الهمزة ثم على الباء ثم على التاء ويمضى فى ذلك حتى يبلغ آخر المعجم وقد أتى بالألاعيب والاعاجيب وأشعرك بأنه رجل قد فرغ لهذا النحو من اللعب

لعبه بالألفاظ لا شك فيه ولعبه بالمعانى لا شك فيه أيضا . وهل رسالة الغفران إلا نحو من هذا اللعب وهل كان يستطيع أن يلعب بالالفاظ دون أن يلعب بالمعانى ؟ فلكل لفظ معناه ولا يستطيع الانسان أن يتصور المعانى المجردة التى لا ألفاظ لها ، فالمعانى ألفاظ ان شئت ، والألفاظ معانى ان أحببت ، واللاعب بهذه لاعب بتلك . وقد لعب أبو العلاء بهذه وتلك ما يقرب من نصف قرن ، وكانت نتيجة هذا اللعب ما ترك لنا من آثاره الخالدة التى جمعت بين وقار الفلسفة وجمال الفن

وخصلة أخرى لا بد من أن ألم بها قبل أن أريح القراء من هذه الثرثرة ، وهى ان أبا العلاء بحكم هذا اللعب الفنى الفلسفى أكثر الشعراء العرب حضور ارادة فى آثاره الفنية ، فهو لا يصور عن طبعه ولا يرسل نفسه ارسالا على سجيتها فيما ينظم من الشعر أويؤلف من النثر . هو لايستسلم للعاطفة ، ولا يمضى مع الهوى ، ولا يلقى قياده الى الطبع ، وانما هو مفكر دائما متخير دائما ، مريد ما يقول متعمد ما ينظم وما يكتب . هو كما يقول بول فاليرى : لا يقول الشعر والنثر وانما يعملهما ، يدعوه الى ذلك هذا اللعب الفنى الذى أشرت اليه وحرصه على التحكم فى الألفاظ والمعاني وتعمده للصناعة الفنية وتجمله بها ، وملاحظته لنفسه ونقده لغته كما تدفعه الى ذلك حاجته الى الاحتياط والتحفظ واتقاء ما عسى ان يورده موارد التهم أو يعرضه للسخط والنكير . والغريب أن هذا الرجل كان يرى أنه مجبر وأنه لا حظ له من الاختيار فى شىء فيما يأتى أو يدع حتى فى اللزوميات . وهو مع ذلك اعظم شعرائنا حظا من الاختيار وأعظمهم حظا من الارادة واعظمهم تعمداً لما يصدر عنه من المعانى والألفاظ وليس هذا هو المظهر الوحيد من مظاهر التناقض فى حياة أبى العلاء ، فقد كانت حياته العقلية كلها تناقضا كما رأيت ، ولكن هناك مظهراً آخر من مظاهر التناقض فى امر أبى العلاء كنت أحب أن اعرف رأى أبى العلاء فيه . فقد كان الرجل معتزلا زاهداً اشد الزهد فى أن يحفل الناس به أو يتحدثوا عنه ، فكيف كان يرى أبو العلاء كثرة ما يقول الناس فيه الآن وكيف يتلقى عنايتهم به واكبارهم له وهذه الجهود التى أخذوا يبذلونها فى درسه وفهمه وتفسيره وتخليد ذكره ، وكم كنت احب انأعرف رأىأبى العلاء في نظر الاجيال اليه بعد ان مات ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ، وهل لأبى العلاء علم ببعض ما يكتب عنه او يقال فيه ؟

طه حسين

خصائص أبي العلاء — دلالة شعره ونثره على لغويته — مشاركته في مباحث اللغة — تواليفه في النحو — شروحه للدواوين ولكتبه — لغويته في رسالة الغفران — المثال الرائع لتمكنه من اللغة — الدعوة الى البحث

أبو العلاء اللغويّ

بقلم الدكتور محمد توفيق رفعت باشا
رئيس المجمع الملكي للغة العربية

— ١ —

جميل أن يحتفى رجالات العلم والأدب بمضى نحو من سنين ألف ، على وفاة أبي العلاء ، فان الاحتفاء بذلك وسيلة الى تهيئة الاذهان للتزود ، وتجريد الاقلام للبحث ، وبعث الهمم للاطلاع . على أنه ما يكون لهذا الاحتفاء أن يعزى اليه فضل احياء ذكرى العالم الشاعر المفكر ، فتلك ذكراه حية منذ كان ، وستمتد حياتها ما امتدت حياة اللسان العربي ، والفكر العربي ، فلقد كان أبو العلاء أحد أولئك الذين عاشوا مظهراً لنفاذ البصيرة ، وسمو التفكير ، وخلدت آثارهم صورة زاهية لبلاغة الفصحى

ولقد اتجهت عناية الباحثين في خصائص أبي العلاء الى ما ترك من رائع النثر والشعر ، وما حواه شعره ونثره من خطرات في الحياة تخالف مألوف الناس ، فأداروا الحديث في عقائده وآرائه ، واتخذوا من ديوانيه : اللزوميات والسقط ، ورسائله في الحكمة والأدب ، مرجعا يفسرون منه ما شاءوا ، ويتأولون فيه ما أرادوا . وتجرى بينهم — فيما يبين لهم من ذلك — ألوان المناقشة والخلاف . وكأنما استوعبت هذه الناحية جهد الباحثين ، وميل الكاتبين ، فلم يفرغوا منها ، ولم يثنوا أعنة أقلامهم الى غيرها من خصائص أبي العلاء ، وانها لكثيرة متشعبة ، وكلها حرى بالنظر ، حرى بالبحث ومناقلة الكلام . وهكذا الشأن في كل رجل تتسق له مواهب شتى ، وينبغ في غير واحدة من نواحي النبوغ ، فان إحداها لتعظم في أعين الناس ، حتى تشغل عن أخواتها . فان عرف الرجل بغيرها عرف لماما ، لا على جهة التثبت والاستقصاء

— ٢ —

ومن خصائص أبي العلاء التي لم تجل فيها الاقلام جولتها في شاعريته أو عقيدته ، انه كان لغويا حقيقا بهذه الصفة في أوسع دلالتها ، وما يتهيأ لشاعر يبني القصيد نظما فخما ، ونسجا محكما ، الا

يكون قد ضرب فى اللغة بسهم ، وطاب له منها الغنم ، وغذى من مادتها بما يوسع محفوظه من صيغها، ويغزر علمه بمسائلها ، حتى تستوى له ملكة الابانة ، وتنفسح أمامه طرق التعبير

وهذا المتنبي لم تؤثر عنه مباحث فى اللغة تدل على اتجاهه اللغوى ، ولكن شعره يشهد بأنه قد قاسم اللغويين علمهم بنتائج البحوث ، وما تجتمع عليه الكلمة من بين الآراء ، وما يستخلص من وجوه الخلاف ، وان كان لم تستدر حوله حلقة من طلاب اللغة ، ولا جرى قلمه بشىء من مباحثها . وأبو العلاء : ينازع المتنبي وأضرابه هذه الخصيصة . فمنظومه ومنثوره يشهدان أنه قد وسع اللغة مبحثا ولفظا ، وبعد شأوه فيها رواية وحفظا . الا أنه يزيد على ذلك انه قد أودع ما انتهى الينا من جمهرة آثاره المنثورة ، أطرافا من المباحث تقطع بأنه قد شارك اللغويين فى علمهم وتصرفهم ، وجاذبهم الرأى فى موضوعات النحو والتصريف والاشتقاق . فما هو بمستمع الى اللغة لتخلص له زبدتها ، تمكينا لقوله من السلامة ، وتوسلا الى عصمة لسانه من الخطأ . ولكنه يتروى أصول الالفاظ وصورها ، وينفذ الى موالج الاشتقاق ومخارجه ، ويدلى دلوه فيما حول ذلك من ضروب التفصيل ، وفنون التأويل ، وما يزال كذلك حتى يخرج : إما بالترجيح بين الآراء والاختيار ، وإما بالابتكار

فهو فى الحقيقة لغوى دائب التحصيل ، بارع التخريج ، وان ما زهدت فيه يد الحدثان من آثاره وتواليفه فى هذا الباب ، ليبوئه — بين اللغويين الأئمة — المكان العلىّ

— ٣ —

يقول ياقوت : « كان أبو العلاء عالما باللغة حاذقا بالنحو [١] »

وحقا لقد كان أبو العلاء يعرف من نفسه ذلك العلم والحذق ، فسمت به همته الى التأليف فى فروع اللغة ، وكان أهل عصره يعرفون ذلك منه ، فاقترحوا عليه أن يؤلف وأن يشرح ما ألف غيره . وهذا ثبت كتبه يقول : انه ألف فى النحو كتبا ثلاثة : « الحقير النافع » و « الظهير العضدى [٢] » و « شرح سيبويه »

وكذلك كان أبو العلاء يعرف من نفسه بصره بغريب الالفاظ ، واحسانه لتفسير المعاني ، ولباقته بتوضيح الاشارات ، وحسن عبارته فى تحرير ذلك كله . فاتجه الى دواوين الشعر يشرح من غامضها ، ويكشف عن خافيها ، ومما يذكر من كتبه فى ذلك : « الرياش المصطنعى » [٣] و « اللامع العزيزى » [٤] و « ذكرى حبيب [٥] »

وحقيق بمن يجود على آثار غيره بابانة وشرح ، ألا يضن على آثاره بمثل ذلك من الشرح

(١) معجم الأدباء — الأول — ص ١٦٢ (٢) تعليق وتكملة على كتاب يعرف بالعضدى (٣) شرح مواضع من الحماسة الرياشية عمله لأمير يلقب بمصطنع الدولة (٤) شرح شعر المتنبي ويقال هو : معجز أحمد . عمله للامير عزيز الدولة (٥) شرح الغريب فى شعر أبى تمام

والابانة . ومن ثم أبى المعرى لنفسه الا أن يملى لـكتبه الشروح والتفاسير ، حتى تكون مثله فى اكتفائه بنفسه ، وترفعه عن عون الناس له ، وخدمتهم اياه . فمن كتبه : « ضوء السقط (١) » و « راحلة اللزوم (٢) » و « السادن (٣) » و « خادم الرسائل(٤) » الى غير ذلك من الـكتب التى تروى لنا أخبارها ، ولا ترى آثارها

ونحن اذا استثنينا ماكان من صنيع أبى العلاء فى رسالة الملائكة ، جاز لنا أن نقول انه ليس فيما نملك من آثاره تأليف لغوى محض ، أو بحث فى كتاب مستقل . وانما استثنينا رسالة الملائكة ، لأنها على ثوبها الخيالى ، وما هى مسوقة فيه من أسلوب قصصى ، تأليف لغوى محكم فى اشتقاق أسماء الملائكة وما اليها مما يكون فى الدار الأخرى . على أن أبا العلاء لم يتخلص قط من الصبغة اللغوية الغالبة فى كل ما ألف وما أملى . فالدلالة على لغويته تنهض فيما بين أيدينا من آثاره ، وفى هذا الذى نجد ، بعض العوض مما نفقد ، وان لم يكن سوى مباحث متناثرة فى تضاعيف كتبه ، على جهة الاستطراد والوصل والالحاق ، لا قصداً فى الـكتابة اللغوية والتصنيف

— ٤ —

ترك أبو العلاء فيما ترك « عبث الوليد » وكان أحد الرؤساء أرسل اليه نسخة من ديوان أبى عبادة البحترى ، ورغب اليه فى سماعها ، واصلاح ما يكون من الأغلاط بها . فأملى أبو العلاء كتابه هذا اجابة لتلك الرغبة . وقد قرأنا النسخة المخطوطة منه ، فاذا مفتتحها : « أثبت ما فى ديوان البحترى مما أصلح من الغلط الذى وجد فى النسخة ، وانما أثبت ذلك ليكون مولاى الشيخ الجليل كأنه حاضر للقراءة »

ولو اقتصر أبو العلاء على هذا لـكان قد بلغ من رغبة الرئيس غايتها ، وأنى له أن يجتزىء باصلاح ما عبث به ناسخ الديوان وحده ؟ وكيف لا يجد له سماع شعر البحترى أفانين من الرأى فى الألفاظ والأساليب ، وهو المتملىء علما ودراية ، الوقاد زكانة وفطانة ؟ لا جرم أنه يملى فى مجلس القراءة عفو القريحة ، وما يسنح للخاطر . لذلك قال فى أثناء الفاتحة : « وقد وصل به ذكر شىء مما أجراه أبوعبادة من الضرورات وما يجتنبه أمثاله »

وفى الـكتاب فوق ما يفى بالشرط الذى اشترط أبو العلاء من ذكر الضرورات والأغلاط ، أطارف من البحث اللغوى لا يناط بها غلط أو ضرورة ، وليس على البحترى سبيلها . وانما هى تفسير لـكلمة ، أو تذكير بما يقول العلماءفى صيغة ، أو غمز لرأى مأثور فى فعل ، أو توجيه أفاده أبوالعلاء لم يتنبه عليه أحد من قبل

وردت كلمة « التنين » فى بيت ، فتتابع الـكلام على لسان أبي العلاء فى تخريجها ، فأرسله

(١) شرح ديوان « سقط الزند » (٢) شرح ديوان « لزوم مالا يلزم » (٣) شرح كتاب « الفصول والغايات » (٤) شرح مجموعة رسائله العلمية والاخوانية

رأيا طارفا لم يسبق اليه فيما نعلم . ذلك أنه يقول : « اذا حمل التنين على أنه عربي ، فاشتقاقه من التن ، يقال ، فلان تن فلان : أي مثله . فكأن هذه الحية لما كانت لها أروس يشبه بعضها بعضا ، أخذت من التن ، لأنها متماثلة »

ولقد كان الرأي باديء الرأي أن نعدو متن كتاب « الفصول والغايات » الى شرحه ، نتبين فيه جوانب من لغوية أبي العلاء . وانما نعدو متن هذا الكتاب لأنه غير مظنة لبحث لغوي ، اذ كان في تمجيد الله والمواعظ . على أن أبا العلاء قد طالعنا في فصوله تلك بأثارة من النحو والتصريف ، وهذا برهان تصبغ أبي العلاء بذلك العلم كل تصبغ ، فهو يزحم خواطره اذا فكر ، ويسرع الى لسانه اذا أملى

إليكه يتخذ من الاقرار لله بالتسديد في القول ، تكأة ينقد بها الصرفيين في كلمتين يجمعون حروف الزوائد بكل منهما ، مقترحا أخريين . يقول — ويبدع — : « الله مسدد القائلين . جمع من مضى حروف الزوائد ، فجعلها : « اليوم تنساه » وتلك طيرة للمتعلمين . وقال بعضهم : « هويت السمان » وتلك دعوى يحتمل أن يبطل قائلها في دعواه ، فجمعتها في لفظين ، لا يكذب قائلهما فيما قال . أحدهما : « التناهي سمو » والآخر « تهاونى أسلم » وربنا مزيل الشبهات » (١)

ولأبي العلاء شرح ما جاء من الغريب في كتابه « الفصول والغايات » وثم ما شئت من دقة وإحكام ، الى جمال في الصياغة ورونق . وأبو العلاء لا يقنع باللفظة يشرحها حتى يضح معناها ، ولكنه يتسع ويتدفق ، فيذكر ما قد يطرأ عليها من زيادة أو نقص، وما قد يكون لها من مختلف الصيغ ، وربما أتبع ذلك بالكشف عن وجوه اشتقاقها ، فجاء من ذلك بما يفوت المعجمات

جاء في فصل لفظ « الروي » وهو الحرف الذي تبنى عليه القافية ، فأنف أن يقتصر على هذا الشرح ، كما اقتصر عليه صاحب القاموس وصاحب لسان العرب بعده ، ومضى يقول في اشتقاقه : « قال قوم : أخذ من رويت على الرحل بالرواء ، اذا شددته ، والرواء : الحبل . ويجوز أن يكون الحرف فعيلا في معنى مفعول : كأنه هو الذي يربط ، لأنه يعاد في كل بيت ، وقال بعضهم : هو مأخوذ من قولك : رويت الشعر أرويه اذا حفظته (٢) »

— ٥ —

فأما رسالة الغفران ، فحشوتها مباحث لغوية نفيسة ، وانما أراد ابو العلاء أن يجهر برأيه في هذه المباحث ، فاتخذ من التصوير الخيالي وسيلة الى الجهر والبيان . وأنطق الشعراء والعلماء في الدار الأخرى بما يرى أنه الحق فيما يتعلق بهم ، من الاحتجاج لقول ، أو ابطال حجة ، أو

(١) ص ١٤٦ وانظر ص ١٢٢ و١٢٣ وص ٩٠ ففيها فصول تدخل في هذا الباب

(٢) ص ٤٦٤ وانظر ص ١١٢ ، ١٨٧ ففيهما مثل هذا

تصريف نادر من لفظ ، أو شرح غريبه ، أو تبيين وجه من وجوه الاعراب ، الى غير ذلك مما يدخل فى هذه الأبواب

تخيل أبو العلاء ابن القارح ينشد عمرو بن أحمر قصيدة له على الراء ، وجاء فيها كلة «الزبرجد»(١) فدار النقاش فى اشتقاقها ، ومظنة العلاقة بين كلة (الزبرج) وبينها

وتخيل مجلسا حضره الاصمعى والمازنى ، فمرت بهما إوزة (٢) ، فمضيا يبحثان فى وزنها ، يستحر بينهما الجدل ، ويشتجر الخلاف . واستطرد أبو العلاء فى مطاوى الكلام الى لفظ « أهل » (٣) فبحث فى أصل وضعها والوجه فى تصغيرها

وجاء فى شعر كلة (الكل) (٤) فاستكره أبو العلاء إدخال الالف واللام عليها ، وذكر من يجيز ذلك من ذوى العلم ، وما يستدل به على الجواز من شعر القدم

وفى رسالة الغفران مثال رائع ، يتوضح به ما أوتى أبو العلاء من غزارة المادة من اللغة ، والاقتدار على الألفاظ ، والاحاطة بالغريب ، والبراعة فى نظم الكلام . وما أحق هذا المثال بأن ينوه به ، وأن يكون فى طليعة النوادر التى يتهاداها الأدباء

ذكر ابو العلاء ما يحكى عن خلف الاحمر مع أصحابه فى هذين البيتين :

ألم بصحبتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لهــا ما تشتهى عسلا مصفى إذا شاءت وحوارى (٥) بسمن

ومعنى ذلك ان خلفا قال لاصحابه : لو كان موضع ام حصن : ام حفص ، ما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا ، فقال : حوارى بلمص . واللمص : الفالوذج (٦) . وكأنما تعاظم أبا العلاء ان تؤثر عن خلف هذه الطرفة ، وهى ــ فيما يستطيع ويقدر ــ لا عناء على طالبها ولا استعصاء . فطفق يسرد الالفاظ التى يقفى بها هذان البيتان على مختلف حروف الهجاء جمعاء ، لكل حرف زوجان من اللفظ ، الأول : من أسماء النسوة ، والآخر يصلح ان يكون إداما للحوارى . وختم كلامه بقوله : « وهذا فصل يتسع ، وانما عرض في قول نام ، كخيال طرق فى المنام (٧) »

والحديث عن أبى العلاء اللغوى ، لا يستقل به فصل محدود ، وليس ما اسلفنا ذكره إلا اشارة معجلة إلى هذا الأفق الرحيب من كون أبى العلاء . وعسى ان يكون فى هذه الاشارة ما يدعو المشتغلين بعلوم العربية الى استئناف البحث ، والاستفاضة فيه ، وما يغريهم بمطالعة منثور هذا العالم المغزر ، ونشدان لغوياته فى مواقع أماليه . فان كان ذلك ، فقد بلغت الغاية التى قصدت اليها بهذه العجالة . والمستعان الله !

محمد توفيق رفعت

---

(١) ص ٥٢ (٢) ص ٧١ (٣) ص ١٣٣ (٤) ص ١٥١ (٥) الحوارى : الخبز يكون من لباب البر . وهو السميد (٦) ص ١٣ (٧) البحث بتمامه يملأ الصفحات ١٤ و ١٥ و١٦

التشاؤم مزاج أولا ، وظروف خارجية ثانيا . وتشاؤم ابو العلاء كان نتيجة نفسيته وحياته الخاصة ، وأثراً من آثار فساد النظم السياسية فى عصره

نظرة أبى العلاء الى العالم

بقلم الاستاذ احمد امين

استاذ الأدب العربى بكلية الآداب

كان أبو العلاء فيلسوفا « متشائما » يرى ان الدنيا لا تستحق البقاء لحظة ، فليت العالم الانسانى ينقرض فى لمحة : وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وان كان ولابد فليت الناس لا يتزوجون ولا ينسلون فيكون عمر الدنيا جيلا واحداً ، وأمداً قريبا . فالناس كلهم كذب ورياء وظلم :

وأفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

فلماذا يكون لهم الحق فى البقاء ؟

بل ليس الانسان وحده هو الشر فى هذا العالم ، فكل ما فيه شر ، وشر ما فيه الانسان :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
والشر فى العالم حتى التى مكسبها من فضل عرناسها (١)
وكل حى فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

ولا يظن ظان أن العالم كان يوما ما براً ففجر ، أو صالحا ففسد ، بل كان هذا دأبه منذ خلق ، وطبيعته منذ وجد ، فما فسد الناس ، ولكن اطرد القياس :

وهكذا كان أهل الارض مذ فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

فأبو العلاء لا يقول كما قال غيره : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » ، بل يقول العكس « ليس فى الامكان أسوأ مما كان »

كان هذا النظر المتشائم عند أبى العلاء نتيجة لمزاجه ونوع تفكيره أكثر مما هو نتيجة لظروفه الخارجية ، نعم كان أبو العلاء أعمى فقيراً دميم الخلقة ، ولكن هذه وحدها لا تكفى فى تكييف أبى العلاء هذا الكيف المتشائم ، ففي الحياة عمى فقراء مشوهون ، وهم مع هذا كله فرحون مرحون ، ينظرون الى الحياة نظرة ابتهاج وسرور ، وغبطة وحبور ، ويتذوقون من لذائذها ما استطاعوا ، وينهلون من متعها ما قدروا . ولو كانت هذه الاشياء علة ، ما تخلف المعلول ولا فى جزئية واحدة ـ انما هو مزاج طبيعى لابى العلاء يألف الحزن ويأنس اليه ، ويرى فى الوجود جوانب

---

(١) العرناس : المغزل

الشر ولا يرى جوانب الخير ، ويدرك أسوده ، ولا يدرك أحمره وأبيضه .

لقد كان « شوبنهور » فيلسوف التشاؤم فى العصر الحديث بصيراً ، وفى صحة جيدة ، وثروة واسعة . ومع ذلك كان كأبى العلاء فى نظره الى العالم ، فهو شر كله ، « فأينما توجهت ألفيت عراكا وقتالا ومنافسة ، فكل نوع يقاتل لينتزع من الآخر ما يملكه من مادة وزمان ومكان ، وليس الانسان الا ذئبا للانسان ، وهو تعس اذا تزوج ، وتعس اذا لم يتزوج ، وخير للعالم أن يقف النسل وتنقطع الحياة »

اذن فالتشاؤم مزاج ، أولا ــ وظروف خارجية ، ثانيا . فما لا شك فيه أن ظروف أبى العلاء ساعدت على تشاؤمه ، وزادت فى تلوينه الدنيا بهذا اللون القاتم ، وكذلك كان للظروف الخارجية حول شوبنهور أثر من هذا القبيل ، فقد أصيب فى أسرته ، فمات أبوه منتحراً ، وسارت أمه سيرة لا ترضيه ، وعاش كأبى العلاء عيشة فراغ الا من التفكير والتأليف ، فلا زوجة ولا ولد ، ولا مشغلة فى عمل من الأعمال الخاصة ، انما يدور فى الحياة حول نفسه ، وهذا فى كثير من الاحيان مدعاة للسأم والضجر ، والتبرم بالناس والحياة . يضاف الى ذلك ان سوء الحالة الاجتماعية والسياسية فى عصر من العصور يغذى المتشائمين ، فيظهرون فى المجتمع ظهوراً بينا ، فعلى أثر حروب نابليون وهلاك الحرث والنسل ، وضياع الامل فى الثورة الفرنسية علت نغمة التشاؤم فى أوربا كلها ، وكان لسانها الناطق بيرون فى انجلترا ، ودى موسيه فى فرنسا ، وهينى وشوبنهور فى المانيا ــ وكذلك كان الشأن فى عهد أبى العلاء : فساد فى النظم السياسية ، ومصادرات للأموال ، وحروب متصلة بين الدويلات الاسلامية ــ كل هذه وأمثالها إذا عرضت لمزاج كمزاج أبى العلاء كانت مادة صالحة ليغنى عليها غناءه الحزين

* * *

علم أبى العلاء الواسع ، وقراءته الكثيرة فى الديانات والفلسفة والأدب ، وذكاؤه النادر ، جعلته يرسم للعالم مثلا أعلى فى منتهى الرقي ، وجعلته يتخيل كل جزء من أجزائه غاية فى الكمال . فهذا العالم الذى رسمه خير لا شر فيه ، ولذة لا ألم فيها ، وعلم لا جهل معه ، وعقل لا تشوبه خرافة ، وصلاح ليس فيه شية من فساد ، وعدل صرف ، وحكمة بالغة ، وتعاون على الخير ، وسير على الجادة . فلما فرغ من رسم هذا المثل نظر الى الواقع فصدمه صدمة عنيفة لبعد ما بينهما ، فأخذ يلعن هذا العالم الواقعى بالنسبة الى العالم المثالى ، ويصب عليه جام غضبه ويسبه جملة وتفصيلا

نظر الى الملوك وهم رأس المجتمع وقوامه وقادته فتخيل أنهم يجب أن يكونوا مثال العدل المطلق والحكمة البالغة ، وأنهم انما ينعمون بخير ما فى الدولة نظير قيامهم بأجل عمل وأكبر خدمة ، وأنهم من اجل ذلك « اجراء الرعية » استأجرتهم لعمل جليل ، فأعطتهم الاجر الجزيل . فاذا لم يؤدوا العمل لم يستحقوا الاجر . فى ضوء هذه الصورة الكاملة نظر الى ملوك عصره فرأى

ترفا ولا عمل ، وغنما ولا غرم ، وظلما منهم يقابله عبودية من رعيتهم . وليتهم إذ ظلموا سموا الظلم باسمه الصريح ، ولكنهم جمعوا الى ذلك الخداع فسموا الظلم «سياسة» . لهذا كله أخذ أبو العلاء يسبهم فى لزومياته اذ لم يحققوا مثله بل لم يقربوا منه :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسة
فأف من الحياة وأف منى ومن زمن رياسته خساسة

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل وأبتر
يدعون فى جمعاتهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبكي المنبر

ان العراق وان الشام مذ زمن صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان (١)

ان جارت الأمراء جاء مؤمر أعتى وأجور يستضيم ويكلم (٢)
كحمائم ظلمت فنادى أجدل ان كنت ظالمة فانى أظلم (٣)

* * *

وكان مما تصوره أبو العلاء فى مثله الاعلى للمجتمع رجال دين التزموا أوامره واجتنبوا نواهيه ، وآمنوا بالله سراً وجهراً ، وأخلصوا له حقا ، درسوا الدين وعرفوا أسراره ، وميزوا بين ما أتى به حقا ، وما ألصق به خرافة ، وكانت أعمالهم الظاهرة وفقا لعقائدهم الباطنة ، فلا رياء ولا غش ولا خداع ، ان قضوا بين الناس حكموا بما أنزل الله وتحروا للعدل لا يشوبه ظلم ، وقوة فى تنفيذ الحق لا يخالطها ضعف ، وان خطبوا أو وعظوا صدر قولهم من قلوبهم ، وعبر اصدق تعبير عما فى نفوسهم ، تتطابق أقوالهم وأعمالهم وقلوبهم ، هم صوت الله اشعبه ، لا يخافون عظيما ولا يعيرون أمام الحق كبيراً ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلا

ثم نظر فرأى فى عصره رجال دين قد اتخذوا الدين حرفة ، واصطنعوه وسيلة للكسب : فالقضاة جائرون يرعون مصلحتهم أكثر مما يرعون الحق ، ولا يدفعون البلاء ، وانما يزيدون الشقاء :

وأي امرىء فى الناس ألفى قاضيا فلم يمض أحكاما كحكم سدوم (٤)

والخطيب يخطب فى يوم القيامة وهوله وهو لا يؤمن بحساب ولا يصدق بمآب :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل فى النفوس ذهولها

والواعظ يعظ فى اضرار الخمر صباحا ويشربها مساء :

---

(١) الخمص : الجوع ، والمبطان : كبير البطن من كثرة الأكل (٢) يكلم : يجرح (٣) الأجدل : الصقر
(٤) سدوم : قرية من قرى قوم لوط وقد يسمى قاضيها أيضا بسدوم وقد ضرب به المثل فى الظلم

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء

والفقيه فقهه مزيف ، وعمله مموه ، قد انصرف عن روح الفقه وسر الدين الى جدال لفظى وحوار حرفى :

وقالوا فقيه والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كلوم

وقد كذب الزهاد فى دعواهم ، فليس فيهم زاهد حقا ولا متعفف صدقا ، وكلهم مراء متصنع يتزهد ليسرق ، ويتعفف ليخون :

لعمرك ما فى عالم الارض زاهد يقينا ولا الرهبان أهل الصوامع

هؤلاء هم رجال الدين الذين نصبهم الله ليكونوا أداة الحق ، ودعاة الصدق ، وهداة الضالين ، وحماة المظلومين ، ورادعى الظالمين ! ! فأف من الناس ! كلهم مخرب ، تساوى فى التخريب عالمهم وجاهلهم ، وآمرهم ومأمورهم ، وبدوهم وحضرهم ، وتاجرهم وواعظهم ، فقوم يخربون المال وآخرون يخربون الدين :

فى البدو خراب أذواد مسومة وفى الجوامع والاسواق خراب

***

ويتصور أبو العلاء العالم الذى ينشده عالما محكوما بالعقل ، وبالعقل وحده ، لا يخضع الا للمنطق والتفكير الصحيح ، لا يؤمن أهله بدجل ولا تخريف ، ذلك بان العقل هو السراج الوحيد الذى يضيء ما فى الدنيا من ظلمات ، فيجب أن يظل مشتعلا أبداً :

خذوا فى سبيل العقل تهدوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج
ولا تطفئوا نور المليك فانه ممتع كل من حجى بسراج

فالعقل هو المرشد اذا لم يأت دين ، وهو المرشد اذا اختلفت أحاديث الدين ، وهو المرشد اذ اختلف رجال الدين :

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدراً فالعقل خير مشير ضمه النادى

اذا رجع الحصيف الى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يغمسك جهل في صراها (١)

وكانت حياة أبي العلاء مثلا لايمانه هذا بسلطان العقل ، فقد كذب الناس فى خرافاتهم ، وسن له فى الحياة طريقا أرشده اليه عقله ، رأى الخير فى أن يريح أولاده بتركهم فى نعمة العدم ففعل ، وألا يأكل لحما ففعل ، وأن يعرض كل خبر وكل مأثور على العقل حتى يتخير ويحكم ففعل

هذا هو العالم الذى تخيله أبو العلاء ، يسطع فيه العقل ، وتذوب فيه الخرافات والاوهام ذوبان الثلج إذا سطعت عليه الشمس

ولكن وا أسفاه ! ماذا فى العالم الواقعى الذى نعيش فيه ؟ لقد تغلب كل سلطان الا سلطان العقل ، وانقلبت الاوضاع فحكم العقل بالخرافات والجهالات بدل أن يحكمها ، وتغلبت عليه بدل أن يتغلب عليها ، فالصادق الخبير مكذب ، والكذوب الدجال فينا مصدق

---

(١) الصرى : الماء يطول مكثه

وبما أدام الرزء تكذيب صادق على خبرة منا وتصديق كاذب

وخضع الناس خضوعا مطلقا للعادات والتقاليد ، فهم يعتنقون دينهم بالعادة والتطبع ، لا بالعقل والتفكير ، وهم يعيشون كما يعيش آباؤهم لا كما يهدى العقل :

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائعه وان تفكر فيه معشر لحدوا
وأهل كل جدال يمسكون به اذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ماقالوا وما سمعوا ولا يبالون من غي لمن سجدوا

ولو حكم الناس العقل ما اختلفوا في دياناتهم ، ولكانوا أمة واحدة ، ولرفضوا كل كذب وخرافة انما أضلهم ان أماتوا عقلهم ، وأحيوا شهوتهم ، وأنهم دانوا بما أملته عليهم الرغبة والرهبة :

لو يتركون وهذا اللب ماقبلوا مينا يقال ولكن شالت الجذم (١)
أتوهم باحاديث وقيل لهم قولوا صدقنا والا أروي الخذم (٢)
وأرهبتهم جفون ملؤها نوب وأرغبتهم جفان للندى رذم (٣)

ثم ماهذا الذي يسود العالم من ايمان بالخرافات وتصديق بالتنجيم ، وكلها دجل في دجل ؟ فهذه امرأة تذهب الى المنجم ليخبرها كم يعيش طفلها فيقول مائة عام ثم يموت من شهره :

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
فاجابها مائة ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها في شهره

وهؤلاء يأتون المنجم يستخبرونه عن موعد المطر فيقول غداً أو بعد غد كأنه عالم بأسرار الكون مطلع على مكنونات العالم ، وهو لو سئل عن أقرب الاشياء اليه لظهر جهله ، وتبين خبله ، فكيف يجهل القريب ، ويعلم البعيد :

يقول غدا أو بعده وقع ديمة يكون غياثاً أن تجود وتسجما
ويوهم جهال المحلة أنه يظل لاسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه ما الذي فوق صدره لجاء بمين أو أزم وجمجما (٤)

وما هذا الذي ساد في اذهان الناس من إمام معصوم يأتي فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ؟ وقد زعموا أن الغلبة لهذا الامام على خلفاء الدولة العباسية ستكون في عام القران (قران المشترى بزحل) ، فلما أتى القران ولم تتحقق النبوة زعموا أن ذلك أخر لسنوات معدودات :

رجوتم اماما في القران مضللا فلما مضى قلتم الى سنوات

كلا أيها القوم لم ينصب الله اماما كالذي زعمتم يهدى الناس ويعلمهم الحق والباطل ، والعدل والظلم ، فالله تعالى جعل كل أولئك للعقل وحده ، فهو الذي يهدى الضال ويرشد الى الحق ، ويبين

(١) شالت الجذم : كناية عن خفة العقل (٢) الخذم : السيف (٣) رذم : مملوءة (٤) أزم : سكت وجمجم لم يبين

الرشاد من الغى ، فاذا أردتم تحقيق ذلك كله فارجعوا الى العقل وارفعوا عنه حجبه وحكموه فى كل ما يعرض لكم بدل أن تلجئوا الى السخافات فترتقبوا إماما مزيفا :

يرتجى الناس أن يقوم امام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا أمام سوى العقـ ـل مشيرا فى صبحه والمساء

لقد فسدت عقول الناس ، وأهم ما أفسدها أمور : ايمانهم بعلم الكيمياء من تحويل المعادن الى ذهب ، وانفاقهم أموالهم وأعمارهم فيه من غير جدوى ، وعلم التنجيم وربط كل ما يحدث فى العالم بحركات الكواكب ، وتفسير الأحلام وبناؤهم عليها تصرفاتهم . ومن هذه الاوهام التى أفسدت العقل اعتقاد الناس فى الصداقة وأنها ممكنة محققة ، وجريهم فى شئونهم على أساسها مع أن الصداقة الخالصة الصادقة احدى المستحيلات :

أزرى بكم ياذوى الالباب أربعة يتركن أحلامكم نهب الجهالات
ود الصديق وعلم الكيمياء وأحـ ـكام النجوم وتفسير المنامات

هذا الى مجموعة من الاوهام تنتشر بين الناس فتشل عقولهم ، وتفسد تفكيرهم : فهؤلاء يزعمون أن الاخيار يطيرون فى الجو أو يمشون على الماء ، أفلم يروا الى السعدين (سعد بن معاذ وسعد بن أبى وقاص) والعمرين (أبى بكر وعمر) وهم من الدين ما هم ، لم يدعوا ولم يدع لهم أحد شيئا من طير فى الهواء أو سير على الماء ، وهؤلاء يزعمون للمعمرين الأولين عمراً ينكره العقل ويكذبه القياس ، وآخرون ينسبون للاجيال السابقة طولا كطول النخل وأجساما هائلة الحجم ولا شىء يصح من ذلك ، وغير هؤلاء يزعمون رؤية الجن ويقصون عنهم القصص ويلفقون عليهم الاخبار ويخشونهم ويمتلئون رعبا منهم ، وكلها أخبار كاذبة لا تصح فى العقل :

فاخش المليك ولا توجد على رهب ان أنت بالجن فى الظلماء خشيتا
فانما تلك أخبار ملفقة لخدعة الغافل الحوشى حوشيتا

كل هذه وأمثالها سموم سممت العقل وجعلت حياة الناس ضروبا من الخبل

* * *

ولو كان هذا العالم يجرى على المعقول لكان أكثر الناس حظا من نعيم الحياة ومتع العيش أعقلهم وأكفأهم . ولكن تعال معى ننظر الى هذا العالم الوضيع نجد عجبا : نجد أن الناجح فى كسب العيش هو بائع خلقه ومضيع شرفه ، وأن من تمسك بهما كان الفقر حليفه . فهذا صادق ممقوت وهذا كاذب محبوب ، وهذا صادق أسلمه صدقه الى الضر والعيش المر ، ويجانبه كاذب يمرح بكذبه فى النعيم المقيم والخير العميم :

والناس شتى فيعطى المقت صادقهم من الأمور ويحبى الكاذب الملق
يغدو الى المين من قلت دراهمه فيجمع المال ما يغرى ويختلق
وربما عذل الانسان مهجته فى الصدق حين يرى جد الذى يلق (١)

(١) يلق : ينمق الكلام في كذب

وهذه الدنيا غريبة فى أطوارها ، عجيبة فى نظامها ، فهذا فقير دخل عليه الشتاء فلا يجد ستراً وهو فى أشد الحاجة اليه ، وهذا مجدود ينهال عليه المال انهيالا وهو غنى عنه :

لقد جاءنا هـذا الشتاء وتحته فقـير معرى أو أمير مدوج (١)
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

وماذا هذا الذى يسمونه الحظ ؟ قد كان المعقول ألا يكون ، وأن يكون الجزاء على العقل والكفاية والخلق ، فاذا بنا نرى هذا الحظ قد طوح كل هذه المبادىء : فظالم يملك الكنوز وعادل لا يملك القوت ، وعاقل أعيت مذاهبه وجاهل مرزوق ، وأمور تحير العقل وتذهب باللب :

اذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق احمقـا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

وليس هذا شأن الانسان وحده ، بل بنى العالم كله على الحظ أكثر مما بنى على العقل ، فهذه الأنهار تفيض بالماء العذب وخصت بالاكرام منها زمزم المالحة :

تباركت أنهـار البـلاد غزيرة بعذب وخصت بالملوحة زمزم

وهذا الأسد قد يأكل الجيفة ، وهذه الذبابة قد تأكل العسل :

رعت الأسود بقوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

وهذه الصخور ، إحداها تقبل وتستلم ، واخواتها تهشم وتحطم :

وتقسم حظوة حتى صـخور يزرن فيستلمن ويلتمسـنه
كذات القدس أو ركنى قريش وأسرتهن أحجار لطسـنه (٢)

***

وهناك طائفة الأدباء والشعراء كان يجب أن تكون لها وظيفة سامية فى المجتمع ــ فتخدم الحق بلسانها وقلمها ، وتدافع عن الحقيقة بحسن بيانها ، وتعبر عن أمانى المجتمع وآلامه بجمال تعبيرها . ولكنا ــ مع الأسف ــ نرى الأدباء وقفوا موقف الذئاب من الراعى تستغفله لتفترس شياهه ، فهم نصبوا مدائحهم شباكا يقتنصون بها أموال الناس ، ويفسدون بها أخلاق الأمراء ، والاغنياء ، بما يصوغون من مديح مختلق ووصف مزيف :

بنى الآداب غرتكم قديمـا زخارف مثـل زمزمة الذباب
وما شـعراؤكم إلا ذئاب تلصص في المدائح والسـباب

كلا لا أتبع مناهجهم ولا أسير على آثارهم ولا أهذى كهذيانهم :

ذرونى يفقـد الهذيان لفظى وأغلق للحـمام على بابى
معـاذ الله قد ودعت جهلى فحسـبى من تميم والرباب

وليس الانسان وحده هو الشر فى العالم بل كل العالم شر ، فالأنسان يغير على الحيوان فيذبحه ويغتصب منه ولده ، ويغتصب لبنه الذى أعده لولده ، ويلهو بالصيد والرمى . والليث سلط على

(١) مدوج : لابس أغلظ الثياب (٢) لطس الحجر : دق

المهاة ، والبازي على بغاث الطير ، وكل قوي سلط على ما هو أضعف منه ، فالعالم سلسلة مظالم ، ومجموعة مهازل : وفي كل الطباع طباع نكز وليس جميعهن ذوات سم (١)

فقد جبلت على فرس وضرس كما جبل الوقود على التنمى (٢)

يقول ابو العلاء ان كان هــذا هو العالم : ملوك تظلم ولا ترحم ، وتبجبح في النعيم ولا تشعر بمن يتألم ، وقضاة تعسف ولاتنصف ، وفقهاء ووعاظ ونساك تتخذ من دينها ستاراً لاقتناص الأموال وشباكا للاستغلال ، وعقل مغلوب على أمره لا يسمع لنهيه ولا أمره ، وناس ان نطقوا بالصواب خفتوا أصواتهم ، وان نطقوا بالمحال رفعوا عقيرتهم ، وخرافات تجول وتصول ، وحكمة تذوب وتزول ، وكل ما في العالم ظلم يسلم الى ظلم ، انسان يفترس أسداً وأسد يغتال ذئبا وذئب يقتنص شاة ، فأي خير في الوجود يستحق البقاء وأي عدل فيه يستوجب الثناء

لا لا ، والخير للعالم أن يفنى في لحظة ، ويمحق في لمحة :

يا رب أخرجني الى دار الرضا عجلا فهــذا عالم منكوس

ظلوا كدائرة تحول بعضهــا من بعضها لجميعهــا معكوس

فان كان ولا بد فالفرار منه والعزلة منه . ولأرسم لنفسي برنامجا أنفذه في نفسي ان لم أستطع أن انفذه في غيري ، فلا زواج ولا نسل ، ولا ايذاء لحي ، فلا آكل لحم حيوان بحري ولا بري ، ولا أفجعه في نتاجه ، فلا عسل ولا لبن ولا بيض ، بل لا البس الجلود ولا انتعل بها ، وانما اكتفي بالنبات : فليكن طعامي العدس وفاكهتي التين ، وحسبي الكمأة والبقول ، وشربة من ماء براحتي أو بقدح من خزف ، وليكن ملبسي من القطن الخشن لا لون فيه ولا تزويق ، وليكن مركبي رجلاي فلا خيل ولا إبل :

فاترك لأهل الملك لذاتهم فحسبنا الكمأة والاحبل (٣)

ونشرب الماء براحاتنا ان لم يكن ما بيننا جنبل (٤)

لباسي البرس فلا أخضر ولا خلوقي ولا أدكن (٥)

رحمة الله عليه فقد ضيق واسعا ، وحرم مباحا ، وحمل نفسه ما لا يطيق الناس ، والتزم ما لا يلزم ، ولون العالم كله باللون الأسود وخلع عليه قطعة من نفسه القاتمة ، ثم أخذ يندب عليه ويبكيه ، فكان لنا من بكائه وعويله نغمات شجية ، وتوقيعات فنية ، وقطع موسيقية ، عجز عن اخراج أمثالها من عاشوا بين الكاس والطاس ، والراح والليالي الملاح

احمد أمين

استدراك : وقع في الصفحة الاخيرة من مقال الدكتور عبــد الوهاب عزام أن قدمت الفقرة التي تبدأ بكلمة « وبعد فهذا تمثيل » وتنتهي بكلمة « فلسفة الرجلين » ، ووضعها الصحيح أن يختم بها المقال

---

(١) نكز مصدر نكزته الحية اذا لدغته (٢) الفرس : الاهلاك ، والضرس : العض (٣) الاحبل : اللوبيا
(٤) الجنبل : قدح غليظ من الخشب (٥) البرس القطن

ما أثر البيئة العائلية والسياسية والثقافية فى شعر المعرى ؟ وكيف كونت شخصيته واتجهت بنفسه الحساسة نحو الاخلاص للحقيقة والعنف فى مهاجمة الباطل ؟

بيئة المعرى

وأثرها فى شعره

بقلم الاستاذ أنيس المقدسي

أستاذ الأدب العربي بجامعة بيروت الامريكية

مما لا ريب فيه أننا لا نستطيع فصل الشاعر عن الجو الذى ينشأ فيه . ولو قابلناه من هذه الناحية برجل العلم لوجدنا بينهما فرقا بينا . فالعالم قد ينصرف الى منحى من مناحى بيئته المعنوية أو المادية فيقوم بدرسه ويجدُّ فى التوصل الى أبعد غاياته . فاذا بسط لنا الحقائق أو المعلومات التى توصل اليها لم نجد فيها مايدل على أنه تأثر بها تأثراً يحرك جهازه العصبي ويحدث فيه اتجاهات عاطفية خاصة . واى علاقة مثلا بين أحكام النور والكهرباء ، او طبائع الحيوان والنبات ، أو قواعد الصرف والاعراب ، وبين شخصية الباحث فيها وحالات نفسه . تلك أحكام وقواعد لا تقوم على التأثر النفسى ، بل على حقائق راهنة قد يتوصل اليها كل باحث ، وليس فيها ما يميز شخصية عن شخصية أو روح عن روح . أما الشعر فحركة نفسية يثيرها مايحيط بالشاعرمن احوال وحوادث . ولا بد لنا لفهمه من ان ندرس البيئة التى تتصل مباشرة بتلك الاحوال والحوادث

فما هى بيئة المعرى ـ ما هى تلك العوامل التى تبرز فى حياته الشعرية ؟ . سؤال نحاول أن نجيب عنه هنا بكلمة وجيزة نعرض فيها الحقائق عرضا عاما لجمهور القراء دون أن نرهقهم بالتقصى الدقيق من تحقيق وتجريح ، وعرض نظريات ، وغربلة وموازنات ، مما لا يتسع له المقام ولا يلذ الا الخاصة من المتخصصين ، وانما هى خلاصة ما توصلنا اليه من درس الاحوال العامة التي يظهر أثرها فى نفس المعرى وأدبه . وها نحن نعرضها من نواح ثلاث :

١ ـ بيئته العائلية والتربوية لم يولد المعرى من أسرة وضيعة . بل كان آله ـ بنو سليمان ـ بيت علم وفضل ورئاسة . ويرجع نسبه الى بني الساطع وهم فرع من تنوخ ، وكانوا يعرفون بالشرف والرئاسة والشجاعة . واكثر بيوت المعرة منهم كبنى

سليمان ، وبنى حصين ، وبنى عمرو ، وبني المهذب ، وبنى زريق ، وبنى جهير . واكثر قضاة المعرة وعلمائها من بنى سليمان : تولى المعرة منهم جد جد شاعرنا وقد اتصل القضاء بأولاده وأحفاده حتى والد المعرى ، وكان من أهل العلم والوقار . وقد خلف ثلاثة بنين ابو العلاء أوسطهم . ومعلوم ان ابا العلاء مات غير متزوج . ولم يخلف أخوه الاصغر الا ولداً وهذا خلف ولدا وبه انقطع نسله . أما اخوه الاكبر فبه بسقت شجرة الاسرة ، وفى اولاده واحفاده اتصل القضاء والجاه سنينا طويلة

وقد شهد المعرى موت والديه واخوته جميعا . ويظهر من دراسة احواله ان اولاد أخيه كانوا يحترمونه ويخدمونه ويأخذون عنه . ولم يتصل بنا ان الشاعر ورث ثروة تذكر ، على أن ذلك لايعنى انه كان كل حياته مسكينا فقير الحال ليس له الا دخل زهيد يقسمه بينه وبين خادمه . فكما كان آباؤه من أهل الوجاهة كان هو كذلك . وكذلك كان أولاد اخيه ، نذكر منهم على سبيل المثال ابا مسلم ، الذى ولد قبل موت الشاعر بنحو ١٨ سنة وصار رئيس المعرة وكبيرها المقدم فيها ، وقد ولى القضاء بعد ابيه وكان مشهورا بالجود والعلم

أما ماينقل عن فقر الشاعر فانما هو خطأ فى تفسير معنى الزهد الذى سلك طريقته . فان المعرى أخذ منذ السابعة والثلاثين من عمره فى طريقة الفلاسفة المتقشفين

وقد كان فى ميسوره ان يعيش رخيا وان يجمع ثروة طائلة ، يزكى ذلك شهادات كثيرة نكتفي منها بشهادة الشاعر الفارسى ناصر خسرو الذى زار المعرة سنة ٤٣٩ ، أى قبل موت المعرى بعشر سنوات ، فوصف حاله بقوله : « انه رجل ذو نفوذ عظيم فى بلدته ، وذو غني ينفق على الفقراء والمعوزين مع أنه هو يعيش عيشة الزهد والتقشف » وفى رسائله وأشعاره عدة اشارات الى هبات مالية كان ينفح بها بعض ذوى الحاجة من الادباء ، كقوله يعتذر لفقيه عن ان الهدية التى ارسلها اليه أقل من قدره ، وكان شاعرنا فى الخمسين من عمره :

فيا ليتنى أهديت خمسين حجة ... مضت لى فيها صحتى وشبابى
وقلت له ــ فاترك ثلاثين اسودا ... متى ما تكشف تلف غير لباب
لعل الذى انفذت يكفيك ليلة ... لاسباغ طهر حان أو لشراب

فالرجل على ما تثبت اكثر المصادر عاش اكثر حياته وجيها وكان سخى اليد جم التواضع . وقد بلغ غاية الوجاهة بعد ان استقر فى المعرة وعكف على العلم والتعلم ، فقصده الطلاب من الآفاق وكاتبه أو زاره الكبراء والأمراء حتى عظم شأنه وحسنت حاله . على انه لم يكن يستعمل من ماله الا القليل وينفق الباقى فى سبيل اللائذين والمعوزين

(البقية فى صفحة ٩٦٢)

بيئة المعرى

(بقية المنشور على صفحة ٨٦٥)

وكان شاعرنا على جانب عظيم من الثقافة العلمية . فقد أتيح له ان يحصل فى المعرة وحلب على أهم العلوم اللغوية والادبية والدينية . ولما بلغ العشرين تحول عن الدرس على الاساتذة الى الرحلات العلمية . فزار المكاتب المشهورة فى اللاذقية وحلب وانطاكية وطرابلس وسواها . وأقام في كل منها مدة تقرأ له كتب العلم والفلسفة . وقد ظل على ذلك نحو عشر سنوات ثم استقر فى المعرة ولم يتركها الا فى رحلته البغدادية بين ٣٩٨ ـ ٤٠٠ . فتكون مراحله الثقافية ثلاثا ـ (١) المرحلة التحضيرية فى المعرة وحلب حتى بلغ العشرين (٢) زياراته للمكاتب الكبرى فى البلاد الشامية وذلك بين العشرين والثلاثين من عمره (٣) زيارته لدور العلم فى بغداد بين الخامسة والثلاثين والسابعة والثلاثين

بيئته السياسية والاجتماعية كانت المعرة على مايؤخذ من أقوال المؤرخين بلدة عامرة تشخص اليها أنظار الطامعين . وكجارتها الكبرى حلب كانت أيام المعرى هدفا لغارات وملعبا لفتن أرهقت سكانها أيما ارهاق

وكانت الامارة الحمدانية يومئذ بين قوتين عظيمتين ـ الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب . ولم يكن للحمدانيين بعد سيف الدولة تلك السطوة التى كانت له فاضطربت أحوالهم الداخلية . ولم يستطيعوا القضاء على مناوئيهم من الزعماء . فأنى لهم أن يقفوا فى وجه الروم والفاطميين وكل من الفريقين يقرم الى تلك الأمارة الغنية . وبين ضغط الروم وغاراتهم ، ودسائس الفاطميين واطماعهم كانت امارة حلب تذوق الامرين تشاركها فى ذلك المعرة وأكثر المدن الشمالية . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الحوادث السياسية التى تقلبت على حلب والمعرة منذ نشأة المعرى الى أيام شيخوخته كانت سلسلة من الأهوال والفتن تركت أثراً عميقا فى نفسه وبالتالى فى شعره

عاصر أبو العلاء الحمدانيين وعمالهم ورأى تطاحن هؤلاء الحكام على السعادة والمال حتى كان بعضهم لا يتورعون عن استنجاد الروم وهم فى هم على منافسيهم فى الحكم او على الطامعين فيهم من الفاطميين ، فطما سيل الفتن وتواصلت الحروب والغارات وساد الجشع والحنق نفوس الزعماء

فى جو كهذا الجو لا ننتظر أن نرى في البلاد أمنا واطمئنانا . فالناس يتملكهم الذعر ، والمصالح العامة يضحى بها لأجل المطامع الخاصة . وبديهى ان تواصل الحروب والقلاقل يؤول الى ضيق العيش وانتشار الأوبئة فضلا عن ضغط الحكام طلبا للضرائب

وأرى ملوكا لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس
فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور ولاة خرج

ذلك ما كان يشعر به المعرى . وفى مثل هذا الجو المضطرب يشتد حرص الغنى على ماله وتشتد فى الناس الغرائز الهدامة من ظلم وغدر وبخل وتخاذل والى ذلك يشير شاعرنا فى كثير من قصائده ويقترن ذلك عادة بتراخى المبادىء الروحية واضطراب المعتقدات الدينية :

نبـذتم الأديان من خلفكم ... وليس فى الحـكمة أن تنبذا
لا قاضى المصر اطعتم ولا الـ ... ـحبر ولا القس ولا الموبذا

فيؤول الأمر الى الانغماس فى الشهوات والاقبال على المحرمات . ولذا يكثر فى شعر المعرى مهاجمة الفساد الاجتماعى وخصوصا التهتك الجنسى ومعاقرة الخمر واليك بعض وصفه لأهل عصره

قد علموا أن سيخطف الشبح ... فاغتبقوا بالمدام واصطبحوا
ما حفظوا جارة ولا فعلوا ... خيرا ولا فى مكارم ربحوا

ويلقى التبعة فى هذا الفساد العام على بعض رجال الدين لانصرافهم عن الروح الى المادة وعن خدمة الناس الى مآربهم فهو ينعتهم بالرياء والجشع والشهوة وما الى ذلك من النعوت الذميمة ولعلنا نستطيع ان نختصر وصفه لبيئته السياسية الاجتماعية بقوله :

حديث فواجر وشراب خمر ... وقتلى يطرحون لام عمرو
ومهلك دولة وقيام أخرى ... كذاك الدهر أمر بعد أمر

بيئته الفكرية

قضى شاعرنا نحو النصف من عمره فى القرن الرابع الهجرى والنصف الآخر فى القرن الخامس فيكون قد عاصر الثقافة الاسلامية فى عنفوان نشاطها فى ذلك العهد كان فى العالم الاسلامى ثلاث حواضر كبرى ـ بغداد عاصمة العباسيين ، والقاهرة عاصمة الفاطميين ، وقرطبة عاصمة الاندلسيين . على ان الحركة الفكرية لم تنحصر فى هذه الحواضر الثلاث . فقد نشأ ـ كما يخبرنا التاريخ ـ دول صغرى نافست هذه الدول الكبرى فى العطف على اهل الادب والعلم . وكانت حواضرها مراكز علمية كبيرة تبذل فيها الأموال الطائلة فى سبيل العلم والعلماء . وقد حدا ذلك كثيرين الى التنقل من مدينة الى مدينة طلبا للدرس على بعض الاساتذة المشهورين او انتجاعا للعلم فى بعض المكاتب الكبرى

وفى القرن الرابع ـ وهو القرن الذى نشأ فيه شاعرنا وأتم تحصيله العلمى ـ نضجت العلوم اللغوية . فنظمت المعاجم ووضع كثير من كتب اللغة واستقرت الطريقة البيانية فى الانشاء التى يمثلها ابن العميد والصاحب والصابى والخوارزمي وبديع الزمان والثعالبى والعسكرى وسواهم . وفيه بلغت العلوم الدخيلة من طبية وفلسفية ورياضية وطبيعية ، أوجها ويكفى أن نذكر من رجالها السابقين واللاحقين الفارابى والرازى ، وابن سينا واخوان الصفا ، عدا من نبغ منهم فى بلاد الاندلس . ومثل ذلك يقال فى التاريخ فقد بلغ فى عهد المعرى شوطا بعيداً من التقدم . ويكفى للتمثيل ان نذكر المسعودى والاصفهانى ومسكويه وابن النديم ، عدا من سبقهم من اهل القرن الثالث كالطبرى واليعقوبى واضرابهما . وكذلك علم الكلام الذى بلغ أوجه فى الغزالى (ولد بعد

سنة من موت المعرى) ونشير اشارة خاصة الى المذاهب المتنازعة من خزرج وشيعة ، ومعتزلة ، واشعرية وصوفية . فقد كانت على أشدها فى عهد المعرى وما قبله

تلك هى التربة الفكرية التى انبتت لنا المعرى . تكاثر دور العلم فى شتى الحواضر الاسلامية ـ تنظيم المعاجم والقواعد اللغوية ـ سيادة التأنق البديعى فى الانشاء ـ التوسع فى المباحث الفلسفية والطبيعية ـ واشتداد التنازع بين المذاهب الكلامية

وكيف التفت الى حياة شاعرنا وأدبه تجد أثر هذه البيئة ظاهراً فيها للعيان فهو من حيث اللغة لغوى واسع الاطلاع ولوع باستعمال الغرائب اللفظية . وهو فى مضمار الاناقة البيانية منشىء قدير يتكلف السجع والبديع أحيانا ولو أداه ذلك الى الغموض كقوله فى أحدهم :

كبرت فاصبحت للراشدين كبرت يعد لهدى دليلا
كبرت فما زال هذا الزمان كبرت يجذ قليلا قليلا

ومثل هذا التكلف كثير جداً فى نثره وشعره ، فلا جرم إذا جاء قسم كبير منه مبهما يعسر فهمه حتى على أهل الأدب ولو دققنا فى أسباب عسره وملل النفس أحيانا منه لوجدناها فى تكلفه ما كان يتكلفه أهل زمانه من محسنات بديعية ، واشارات تاريخية أو لغوية ، وأوابد لفظية

وتظهر فى أدب المعرى ثقافة عصره العلمية بما يعكسه لنا من معرفة الافلاك وطبائع الاشياء والاحياء وأدوات العلوم المختلفة ومصطلحاتها مما يشف عن أدب شامل واطلاع واسع

على أن اهم ما ينعكس من بيئته الفكرية نظره الفلسفى فى الوجود ونقده الشديد للانسان والمجتمع ، ولا نشك ان المعرى ولد وفيه ميل الى التفكير وان أحواله الجسدية قد أرهفت هذا الميل فيه على ان ذلك لم ينضج فيه إلا مع الزمان فقد كان فى صباه وأيام شبابه لا يختلف كثيراً عن معاصريه ـ كان مع تفكيره راغبا فى الحياة مجاريا سواه فى موكبها العام ، وكان متمسكا بالدين يناضل عنه ويهاجم الدهريين ، ولكنه لم يكد يبلغ الخامسة والثلاثين حتى نرى فى شعره مرارة غير عادية ـ ثم نراه فى السابعة والثلاثين قد اتخذ لنفسه طريقا جديداً فى الحياة ، فأصبح متقشفا ـ ظاهر النقمة ، لا ثقة له بالانسان ولا بما سنه من شرائع ولم يبق من آثارشبابه الفكرية الا تسليم عام بوجود اله قادر وقضاء قاهر

نشأ شاعرنا مثاليا على أن بيئته حولت تلك المثالية فيه الى تشاؤم عميق صبغ شعره بلون اسود قاتم . فما المذاهب المختلفة من معتزلة وجبرية وصوفية وغيرها إلا أبواب للرزق والكسب

مذاهب جعلوها من معائشهم من يعمل الفكر يعطه الارقا
وكلنا قوم سوء لا أخص به بعض الانام ولكن اجمع الفرقا

ذلك هو رأيه فى الفرق الدينية وزعمائها وله فى ذم هؤلاء من الأهوال ما يملأ صفحات عديدة فنكتفى بالاشارة اليه . ولم يقف المعرى عند حد التهجم على الفرق وزعمائها بل تجاوز ذلك

الى نقد الأساطير الدينية عموما ومن أقواله الكثيرة فى ذلك :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فالعقل والتعليم الدينى الذى عرفه فى زمانه لايتفقان . وانما الدين الحقيقى ـ الدين الذى يقبله العقل ـ فهو المجرد عن الخرافات المتصل رأسا بتصرف الانسان من انصاف وضبط نفس ، وترفع عن الدنايا ، ورغبة فى الخير

الدين انصافك الاقوام كلهم وليس دين لابى الحق ان وجبا

سبح وصل وطف مكة زائرا سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطماعه لم يلف بالمتماسك

والحق يقال أن شاعرنا مثالى سابق لأوانه . وقد عاش فى جو مضطرب مظلم فحاول أن يستهدى بنور العقل

تستروا بامور فى دياناتهم وانما دينهم دين الزناديق
نكذب العقل فى تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

اذا رجع الحصيف الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

لكن العقل الذى يحرره من خرافات جيله واضاليلهم لم يهده إلا الى أمرين ـ اللاأدرية والقنوط . فهو برغم تقواه وبرغم اعتقاده بقوة حكيمة مدبرة يقر بأن العقل لا يستطيع أن يعبر الهوة التى بين الجسد والروح

دفناهم فى الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنونا أو شبيه جنون

وهو برغم رغبته فى الخير لا أمل له باصلاح الفساد البشرى

واللب حاول أن يهذب أهله فاذا البرية ما لها تهذيب
وجبلة الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها

فاذا عرفنا الجو الذى نشأ فيه عرفنا أن شاعرنا لم يكن فوضويا ولم يقصد فى أول أمره الهدم المطلق بل كان جل قصده الاصلاح الاجتماعى . لكن ذلك الجو أثر فى نفسيته الحساسة تأثيراً دفعه الى اليأس . وقد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكرى وتنطعه اللغوى ، على أن شخصيته تجمع بين الاخلاص للحقيقة والعنف فى مهاجمة الباطل . فقد كان الشعراء قبله لايرون فى الأدب إلا مايوصل الى اغراضهم فجاء المعرى مترفعا عن الاغراض الذاتية راغبا فى اصلاح الحياة البشرية على أن اليأس تغلب عليه فجاء شعره قاتم اللون كأنما هو مصباح تنفذ أشعته الينا من وراء زجاجة سوداء

انيس المقدسي

نصيب المعرى (*) من الفلسفة الشرقية

بقلم الاستاذ محمد فريد وجدى

لا مشاحة أن لابي العلاء المعرى شخصية بارزة عرفت قيمتها فى حياته ، وبقيت حافظة مكانتها بعد وفاته ، ولعل هذه الشخصية قد ازدادت بروزاً فى عصرنا الراهن عما كانت عليه فى العصور السالفة ، على نسبة تنبه الناس لتحليل الشخصيات الفذة

لا يخلو شعر فى الأرض ، حتى الأزجال العامية ، من جنوح ظاهر من أصحابها الى بعض التيارات الفلسفية ، فلم يحشر واحد منهم فى زمرة الفلاسفة لهذا السبب وحده ، حتى ولا المتنبى الذى تتلألأ في ديوانه مئات من عيون الحكم

وقد غص شعر أبى العلاء بكثير من نوابغ الكلم ، ولكنا لا نستطيع لهذا وحده أن نعتبره فيلسوفا الا اذا تبينا فى شعره مذهبا مؤسسا على قواعد ثابتة . وقد عرف من تاريخ أبى العلاء أنه أخذ الفلسفة اليونانية عن الرهبان الذين كان يصادفهم فى معرة النعمان . وثبت أيضا أنه لما شخص الى بغداد سنة ٣٩٨ هـ . اطلع فيها على فلسفة الهنود والفرس

> « المعرى شاعر لا فيلسوف . وأثر الفلسفات الشرقية ضعيف فى تكوينه . وقد تكون الفلسفة الدهرية منها هى التى أثرت فيه »

فاذا أردنا ان ندرس شخصية أبى العلاء فى ضوء الفلسفات التى كانت معروفة الى عهده ، لنرى هل أثرت واحدة منها فى تكوينه ، عدنا من بحثنا الطويل بغير طائل . فان الذى كان يعرف عن الفلسفات الشرقية أنها على اختلاف نزعاتها كانت متأثرة بمذهب التفاؤل ، حتى أن الهنود الذين بلغ احتقارهم للدنيويات حداً لم يبلغه فى أمة أخرى ، كانت ترجو من وراء ذلك الاحتقار الوصول الى سمو روحانى لا تقارن به سعادة ــ مهما جلت ــ من السعادات المادية . ولا يظهر لهذه النزعة أثر فى شعر أبى العلاء . فقد أكثر من ذم الدنيا ومن احتقاره لها ، وتوسع فى ذكر احداثها وكوارثها ، ولم يذكر ان لذاتها قاطعة للمرء عن سمو روحانى يجل عن الوصف لا يجوز التنازل عنه فى سبيل التمتع بلذائذ مادية منحطة ، على مثال ما كان يقول به الهنود ولا يزال يردده شاعرهم المعاصر لنا « طاغور » . بل الذى يؤخذ من شعر المعرى أنه كان يذم الدنيا لا لأن لذاتها تقطع الانسان عن بلوغ كماله ، ولكن لأنها موقوتة خداعة وسريعة الزوال . ونحن نعرض طائفة من شعره فى هذا الموطن تدليلا على ما نقول ، قال رحمه الله :

تحب حياتك الدنيا سفاها ... وما جادت عليك بما تحب
وانك منذ كون النفس عنسا ... لتوضع فى الضلالة أو تخب
وان طال الرقاد من البرايا ... فان الراقدين لهم مهب
غرامك بالفتاة ضنى وغم ... وليس يسر من يشتاق غب
لو ان سواد كيوان خضاب ... بكفك والسهى فى الاذن حب
لما نجاك من غير الليالى ... سناء قارع وغنى مرب
وما يحميك عز أن تسبى ... ولو أن الظلام عليك سب

الى أن قال :

ولم يدفع ردى سقراط لفظ ... ولا بقراط حامى عنه طب
اذا آسيتنى بشفا صريعا ... فدعنى كل ذى أمل يتب
ولا تذبب هناك الطير عنى ... ولا تبلل يداك فما يذب

وهذه كلها معان سبق بها أبا العلاء جميع من جاء قبله من الشعراء ، وهى لا تخرج عن ذم الدنيا ، والنعى على المغترين بها ، وذكر عوادى الايام وجنايتها على الأحياء ، فلا شيء فى هذه الاقوال مما يجب أن يتنوره الحكيم من وراء هذه المحن ، سواء أكان ذلك من ناحية تنبيهها النفس الى سعادتها فيما وراء ذلك ، أم ايقاظها لأسمى عواطفها التى تبلغها كمالها من طريق تعويلها على الغرائز العلوية الكامنة فيها

نعم انه ذكر ان وراء متاعب هذه الحياة حياة أخرى فقال :

تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب الا لراغب فى ازدياد
ان حزنا فى ساعة الموت اضعا ... ف سرور فى ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت ... امة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعما ... ل الى دار شقوة أو رشاد

ولكنه عاد فأنكر ذلك فى موطن آخر فقال :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فهو هنا ينكر البعث بعبارة صريحة لا تحتمل التأويل ، فان أردنا أن نتعرف أثر الفلسفات الشرقية فى تكوينه لم نجد غير الفلسفة الدهرية منها ، ولكن اشياعها يبتون فيما يذهبون اليه ، ويقررونه تقريراً جديا ، ولا يتلاعبون فيه بالألفاظ ، فلا يحار الباحث فى الوقوف على حقيقة مذهبهم فى شعر أبى العلاء ما يستدل منه على أنه لم يكن منكراً للخالق فقد قال من قصيدة :

لم يبق للطاعنين عين ... تبكي على الاعظم الرفات
أرى انكفاتى الى المنايا ... أغنى عن الاسرة الكفاة
أثبت لى خالقا حكيما ... ولست من معشر نفاة

هذا قول صريح لا وجه لصرفه الى غير معناه ، لولا ان له قولا آخر ينفى هذا نفيا باتا فى قالب من التهكم ليس وراءه مذهب ، فقد قال :

قلتم لنا صانع قديم ... قلنا صدقتم كذا نقول

ثم زعمتم بلا مكان ولا زمان ، ألا فقولوا
هــذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

هنا قد يقول بعض المدافعين عن أبي العلاء إن هذه الأبيات الأخيرة مما وضعه بعض خصومه عليه ، ونسبوه اليه لينالوا من كرامته عند الناس

ان ما كان يعرف عن المعرى من عزوف نفسه عن التغذى بلحوم الحيوانات ، لا ينهض دليلا على أنه كان متأثراً بالفلسفة الهندية ، ولكنه حدث له كما حدث لغيره من الأقدمين كسقراط كراهة فى تعذيب الحيوانات بالذبح . أما تحريم لحوم الحيوانات فى الفلسفة الهندية فله سبب آخر مبنى على اعتقادهم فى تناسخ الارواح . فقد كانوا يقولون إن الارواح الشريرة تتقمص أجساداً حيوانية لتعذب فيها على ما جنت فى حياتها السابقة ، ولم يكن أبو العلاء يقول بذلك

وقد بحثنا عن أثر الفلسفات اليونانية فى تكوين شخصية أبي العلاء فلم نصادفه فى واحدة منها ، حتى ولا فى فلسفة التوقف «لبيرهون» اليونانى . فانها مبنية على الجزم بعدم امكان الانسان الوصول الى الحقيقة ، بسبب أن الكائنات فى الطبيعة تخضع لناموس التجدد المستمر ، فلا يمكن ان تعرف منها إلا ظواهرها . لذلك يقع الناس دائما فى الاخطاء والتناقضات ، فالبحث عن الحقيقة لا يقوم والحالة هذه على قرار ثابت ، فازاء كل قضية عقلية يمكن أن توضع قضية أخرى معارضة لها . فالحكيم لا يسعه إزاء كل هذا إلا التوقف عن ابداء حكم ثابت عليها ، فعليه ان يجرى مع الظواهر دون ان يعلن حقيقة واحدة منها

أما من الناحية الخلقية فمؤدى فلسفة « بيرهون » أن يصل الانسان الى سعادة سلبية ، أى الى الخلاص من الارتباكات النفسية ، وهذه فى رأيه أقصى غاية يمكن أن يصل اليها الفيلسوف فى حياته الأرضية . وهنا تختلف هذه الفلسفة عن فلسفة الشك التى دعا اليها ديكارت ، فقد جعل الشك مرقاة لليقين ، لا أنه جعله غاية لجهود الحكماء

فاذا حاكمنا ما نقرأه من شعر أبى العلاء الى هذه الأصول وجدناه يشذ عنها كل الشذوذ ، بل لا نجد بينه وبينها أية علاقة . فابو العلاء يجرى بشعره فى المضمار الذى جرى فيه جميع شعراء العربية قبله من ذم الدنيا وتحقير شئونها ، والقدح فى عقل الانسان والاستهزاء بما يستهتر فيه من طلب السعادة ، وخيبته فى الوصول اليها ، ولا يزيد على ذلك شيئا مما يجب أن يقف الانسان عنده من مذهب مقرر ، أو فلسفة محدودة ، أو توقف متواضع

ولو اعتبرنا فلسفة زينون الفيلسوف اليونانى القديم ، وحاولنا أن نجد بينها وبين فلسفة المعرى صلة ، تعذر علينا ذلك أيضا . فان الحكيم الاغريقى كان مذهبه أن الخير كل الخير هو فيما يبذله الانسان من الجهد لكيلا يخضع لغير سلطان العقل ، غير آبه بما يصادفه من الأحوال الخارجية

كالثروة والفاقة ، والصحة والمرض ، والنعيم والبؤس الخ ، حتى كان من اتباعه من قتلوا انفسهم تدليلا منهم على احتقارهم للكوارث المادية

وابو العلاء يذم الدنيا لأنها تخدع الانسان ، ويقدح فى الانسان لأنه يقع فى الفخاخ التى تنصبها له المطالب النفسية ، ولكنه لايقرر اصلا للخير يجب التعويل عليه للوصول الى سمو روحانى ، فشعر أبى العلاء يخلو من تقرير مذهب فلسفى أو نصب مثل أعلى للنفسية البشرية . وإنك لترى ذلك حتى فى الأبيات التى يحاول فيهابيان مذهبه ، فقد قال :

من مذهبي ان لا أشد بفضة   قدحي ولا اصغي لشرب معوج
لكن أقضى مدتى بتقنع   يغنى وافرح باليسير الاروج
هـذا ولست اود انى قائم   بالملك فى ثوبى اغر متوج

فان سألته ولأى شيء تؤثر هذه القناعة ، والى أى غاية أوصلتك وقد لبثت فيها دهرك ؟ لم يجبك إلا بشكوى يجول بها كل مجال ، لا يتبين منها الناقد الغاية التى يرمى اليها ، كقوله من قصيدة :

يا دهر يا منجز ايعاده   ومخلف المأمول من وعده
أى جديد لك لم تبله   وأى اقرانك لم ترده
تستأثر العقبان فى جوها   وتنزل الأعصم من فنده
أرى ذوى الفضل واضدادهم   يجمعهم سيلك فى مده
ان لم يكن رشد الفتى نافعا   ففيه انفع من رشده
تجربة الدنيا وافعالها   حثت اخا الزهد على زهده
والقلب من أهوائه عابد   ما يعبد الكافر من بده
ان زمانى برزاياه لى   صيرنى أمرح فى قده
كأننا فى كفه ماله   ينفق ما يختار من نقده
لو عرف الانسان مقداره   لم يفخر المولى على عبده
أمس الذى مر على قربه   يعجز اهل الارض عن رده
أضحى الذى اجل فى سنه   مثل الذي عوجل فى مهده
ولا يبالى الميت فى قبره   بذمه شيع ام حمده

وهي طويلة وكلها على هذا الضرب من التشاؤم ، ولم يذيل ذلك كله بشيء ينم عن أصل مستقر فى نفسه يمكن أن يقال إنه مذهب له

يسوغ لنا بعد هذا كله أن نقول ان أبا العلاء المعرى لم تكن له فلسفة معينة ، ولا مذهب مقرر ، فان كان لا بد من وضع اسم على الحالة التي كانت عليها نفسيته ، فهى الحيرة والتشاؤم الممزوج بالتهكم . أشبه الناس به من معاصرينا كان السيد صدقى الزهاوي الشاعر البغدادى رحمة الله عليه ، فقد كان حائراً متناقضا متشائما متهكما ، فبينما كان يقول :

قال ما دينك الذى كنت فى الدنـ   ـيا عليه وانت شيخ كبير
قلت كان الاسلام دينى وهـ   ـو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبدت فقلـ   ـت الله ربى وهو السميع البصير

اذا به يقول : لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقمت نفسك فى مقـام معلل
أثبت ربا تبتغى حـلا به للمشـكلات فكان اكبر مشكل

ويقول : أنا ما كفرت كل عمـ ـرى بالـكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنعـ ـت للنبى المرسـل

فهذه الحالة من التناقض والحيرة التى كان عليها الزهاوى ، وكان عليها قبله شيخ المعرة ، لاتصح أن تكون مذهبا ولا مستمدة من مذهب . فقد رأيت زعيم المتوقفين « بيرهون » استقر على قاعدة ثابتة ، وعللها تعليلا علميا ، وجرى منها على سجيته مطمئن النفس ، هادىء البال ، غير واقع فى تناقض ، ولا برم بحيرة ، ولا مالئا الجو شكوى من الزمان وعويلا

ورأيت أيضا صاحب فلسفة الشك ديكارت ، قد جعل الشك اساسا للبحث عن الحقيقة ، ولم يتخذه غاية له . وقد أصبح مذهبه أسلوبا خالداً يذكره به كل باحث عن حقيقه . أما التناقض والحيرة الممزوجة بالتهكم فلا تصح ان تكون مذهبا لا مجتمعة ولا متفرقة . ودواؤها البحث والتأمل والدرس حتى يستقر صاحبها على قرار مما وصل اليه الباحثون ولو أدى به الى الالحاد البحت . أما الشك فلا يصح أن يكون مستقراً قط ، ولا تصح أن تكون له دعوة ، وتجرى هذا المجرى الحيرة والتهكم

انى أحب أبا العلاء وأجله كشاعر عظيم طبع الشعر بطابع خاص به ، ولكن لا كفيلسوف بالمعنى الذى يفهمه أهل العصر الحاضر

محمد فريد وجدى

أبو العلاء : فى العدد القادم

ضاق نطاق هذا العدد عن أن يسع جميع المقالات التى تفضل بتدبيجها أصدقاء « الهلال » ، فاضطررنا آسفين الى تأجيل بعض هذه البحوث النفيسة الشائقـة ، التى تتناول كثيراً من نواحى أبى العلاء الفكرية والفنية ، وهى « المعرى : مثله الأعلى للاخلاق » للاستاذ احمد جاد المولى بك ، « ابو العلاء السياسى » للاسـتاذ عبد الحميد العبادى ، « رأى المعرى فى حرق الموتى » للدكتور محمد بك عبد الحميد ، « الرثاء فى شعر ابى العلاء » للاستاذ احمد الشايب ، « القصة فى ادب أبى العلاء » للاستاذ كامل كيلانى . فنعتذر الى هؤلاء الاساتذة الكرام أصدق اعتذار ، ونوجه نظر القراء الى هذه المجموعة من المقالات الثمينة التى ستشغل حيزاً كبيراً من العدد القادم

وفرة محصول أبي العلاء من اللغة ، وتمكنه من شوارد العربية ودقائقها ، وصحة ادراكه أساليب النظم وفنون النثر تتمثل فى آثاره النقدية البارعة

المعرّي الناقد

بقلم الاستاذ عبد العزيز البشري
مراقب المجمع الملكي للغة العربية

قبل أن نتناول الموضوع الذى نسوق له هذا الكلام ، يحسن بنا أن نلم الامة رفيقة بالنقد الأدبى عند العرب فى جاهليتهم ثم فى إسلامهم . ولا شك فى أنه كان هناك نقد ، ضرورة اختلاف الآثار بالجودة والرداءة ، وتفاوت المراتب فى الجيد وتفاوت المنازل فى الردىء ، وتفطن بعض الناس الى هذا ، وقولهم فيه ، وتنبيه سواهم اليه

إذن لقد كان النقد الأدبى قائما عند العرب من يوم جرت ألسنتهم بالشعر ، ومن يوم كان الشعراء . على أن هذا النقد انما كان يجرى فى أضيق الحدود ، وبعبارة أخرى كان نقداً ساذجا بسيطا يبعثه مجرد الحس الحاضر ، لا ينطلق فى حدود مرسومة ، ولا يتأثر فى مذهبه قضايا مقررة مقسومة ، شأن كل فن فى عهد البداوة ومطلع النشأة

وكيفما كان الأمر ، فان هذا الحس الحاضر هو الذى هدى الى الفنون ، وعليه قامت آساسها ، واليه المرجع فى تقرير ما تقرر لها من الأصول والاحكام . ولقد بسطنا هذا الباب فى غير هذا المقام

كان العرب فى جاهليتهم ينقدون الشعر ، ولكن هذا النقد كان ، كما أسلفنا ، ساذجا بسيطا . لايتكلفون فيه التبسط فى القول ، ولا المطاولة فى سبيل الابانة والكشف ، وتعمد الفلج ، تغنيا بصحة طبع السامع ، وقوة فطنته ورهافة حسه ، هذا الى أن النقد الذى يصدر عن حاضر الحس لا يحتاج الى جهد فى التدليل ولا طول معاناة

ولقد كان نقد العرب فى جاهليتهم متجرداً أكثره ، اذا لم يكن متجرداً كله ، فى سبيل المعانى بالدلالة على جيدها وعلى رديئها ، والمفاضلة بين الحسن والأحسن منها . وينبغى أن يكون الأمر كذلك ، وينبغى ألا يكون الأمر غير ذلك . وكيف يعتريهم النقد من ناحية اللغة فى متنها ، أو فى اعراب جملها ، أو فى تصرف ألفاظها ، وهم أولياء ذلك كله ، وهم ينبوعه ومنجمه ، وهم مصدره ومورده ، صحيحه ما نسب اليهم ، وفاسده مما ينبغى أن ينفى عنهم ؟

وكذلك القول فى نظم الكلام ، ووقوع أجزائه على النبرات الموسيقية ، فما كان (العروض) إلا هاديا فى النظم لسبيلهم ، ضابطا فى قواعده لما التزموا وما تجوزوا ، مقيداً لما تحرجوا فيه وتحرزوا

وأرجو ألا يذهب عنك أن العرب ، فى جاهليتهم ، سواء أكانوا يكثرون من نقد الشعر أم يقلون ، فان ما انتهى الينا فى هذا الباب قليل أى قليل ، لما علمت من أنهم لم يكونوا أصحاب تقييد وتدوين

ولعل من أقدم ما أثر الينا من نقد الجاهليين ، اذا صدق الرواة ، مازعموا من أن امرىء القيس وعلقمة تنازعا في الشعر ، وأيهما أشعر ؟ فرضى علقمة بأن تكون أم جندب زوج امرىء القيس حكما بينهما . فقال كل منهما قصيدة يصف فرسه ، على قافية واحدة وروى واحد . فجاء فى قصيدة امرىء القيس :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب

وجاء فى قصيدة علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فقالت أم جندب : علقمة أشعر ، لأن فرسه أدرك الطرائد ثانيا عنانه ، لم يضربه بسوط ولم يتعبه . وأما امرؤ القيس فقد ضرب فرسه بسوطه ، وحركه بساقه ، وزجره بصوته !

وكان النابغة تضرب له قبة بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها ، فأنشده حسان بن ثابت قصيدة له منها :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقال له النابغة : « أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك » لأن الأسياف والجفان من جموع القلة ، ولو طلب الكثرة لقال : سيوف وجفون !

وأضاف بعضهم نقد هذا البيت الى الخنساء ، وزادوا فى روايتهم نقدها لكلمات البيت جميعا !..

***

ولما كانت دولة الاسلام كثر نقد الشعر ، أو كثر ما نقل الينا منه ، بحكم شيوع الكتابة واثبات الكلام . ومن أطرفه ما حدثوا من أنه لما هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر بقصيدته السينية المشهورة التى أولها :

والله ما معشر لاموا امرءاً جنبا فى آل لأى بن شماس بأكياس

لم يوجعه منها قدر ما أوجعه قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

(البقية فى صفحة ٩٦٦)

المعرى الناقد

(بقية المنشور على صفحة ٨٧٢)

فاستعدى عمر رضى الله عنه على الحطيئة ، فدعاه حسان بن ثابت فقال له : أتراه قد هجاه بهذا ؟ فقال : ما هجاه يا امير المؤمنين ولكن سلح عليه ! ولم يكن عمر بن الخطاب ممن يخفى عليه موضع الاقذاع فى مثل هذا ، ولكنه أراد بتجاهله اطفاء الفتنة والتفريج عن الزبرقان

وكانت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما من أبصر الناس بنقد الكلام ، حدثوا أنه اجتمع بالمدينة بعض رواة الشعراء ، فاختلفوا فيما بينهم ، وقال كل منهم صاحبى أشعر . ثم تراضوا على أن يحكموا سكينة . فقالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فاذهبى بسلام ؟

وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟

ثم قالت لصاحب جميل : اليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

ما أرى بصاحبك من هوى ، انما يطلب عقله !

ثم قالت لصاحب نصيب : اليس صاحبك الذى يقول :

اهيم بدعد ما حييت فان امت فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده !

وما نسب الى سكينة وغيرها فى هذا الباب كثير ، نكتفى منه بهذا القدر الذى قدمناه

وقد رأيت أن النقد ، فى ذلك العهد ، لم يتجاوز ، فى الجملة ، وقوع الخاطر السريع على موضع النكتة ، وتجليتها فى أبشع صور التعييب والتهجين ، وقد يجليها فى أحلى صور التبهيج والتزيين . أما النقد اللغوى ، على اختلاف صوره ، والنقد العروضى فلم يكن لهما حظ فى وزن الكلام لأن اللغة كانت لم تزل فصيحة ، والفطر ما برحت سليمة صحيحة

فلما كان جعفر بن يحيي وكان ابو عثمان الجاحظ ، جعل كل منهما يحقق النظر فى مأثور الكلام ويجهد فى تقليبه وامتحانه ، ليقف على أسرار بلاغته وعلى علل القبح فيه ، حتى استظهرا من هذا صدراً ، اذا لم يضبط بقواعد عامة ، فقد لوح بهذه القواعد تلويحا

ثم جاء من بعدهما قدامة بن جعفر ، ثم عبد القاهر الجرجانى ، فأمعنا فى البحث والفحص ، وجدا فى الامتحان والتقليب . وبذلك اتسقت للبلاغة العربية قواعد ضبطها السكاكى بعد ذلك ضبطا ، وضغطها ضغطا بما أقام لها من الحدود والرسوم

وهنا يجمل بنا أن ننبه الى أن علوم البلاغة ليس من شأنها طبع الناس على البلاغة ، وقد

بسطنا هذا فى كلام طويل ، ولكنها فى الواقع علوم نقدية ، تنتهى آثارها الى التنبيه الى مواطن الحسن والقبح فى مطاوى الكلام

ولا يفوتنا أن نشير كذلك الى أنه لما تراخت الايام بالعربية الصريحة ، ونفذت العجمة الى الملكات ، جد النقد اللغوى ، وجعل النقدة يتعقبون الشعراء ، ويحصون عليهم الخلاف للغة العرب سواء في دلالة الالفاظ على المعانى ، أو فى اعرابها وفنون صرفها ، أو فى كيفية تأليفها ، وغير ذلك من أساليب البيان

كذلك عمد الخليل بن احمد الى تحرى اشعار العرب من جهة أوزانها وتقاسيمها ، ورويها وقافيتها ، وما قد يدخل على الشعر من الزحافات والعلل ، وأبان مايجوز من ذلك وما لا يجوز ، واستخلص من هذا فنا له صبغة نقدية أيضا ، أعنى فن العروض

وبعد ، فلا شك فى أن من أشد ما دفع العلماء للاحتفال للنقد والتشمير فيه حتى اتسعت آفاقه ، وترامت أقطاره ، أمرين : الأول الاجتهاد فى التعريف بوجوه البلاغات فى القرآن والكشف عن أسرارها ، والدلالة على اعجازه فى حقيقته ومجازه

أما الثانى ، ففى سبيل المفاضلة بين الشعراء ، واجتهاد كل ناقد لتجلية بلاغات صاحبه ، والتنبيه الى مواضع الحسن فى شعره ، ومواطن البراعة فى نظمه ، والاشادة بسبقه كلما استحدث جديداً . وكذلك التحسس من معايب قرنه ، وليسقط مزاله ، والابانة عن مواضع الاسفاف فى معانيه ، والفسولة فى لفظه ، والاسترخاء فى نظمه ، وهكذا . ولا أرى بداً من ان أعود الى القول بأن علوم البلاغة كما فشلت فى تعليم البلاغة وطبع الناس عليها ، فقد فشلت كذلك فى إذكاء ملكة النقد ، وتوسم أسرار الحسن والقبح في المنظوم والمنثور جميعا

وان من يتقرى آثار كبار النقدة من القدماء والمحدثين ، لا يراها متهدية إلا بالطبع ولطف الحس ورهافة الذوق ، وبالعلم باللغة ، أعنى متنها ونحوها وصرفها ، وبالعروض كذلك

نقد المعرى

لم أقع للمعرى على نقد متسق مطرد مجتمع الشمل إلا في كتابه (عبث الوليد) فى نقد ديوان البحترى . وانى أسوق اليك صدراً يسيراً منه لتتعرف مذهبه فى النقد وتذوق فنه ، قال :

قال البحترى : أشلى على منويل أطراف القنا ونجا عتيق عتيقة جرداء

ينكر عليه أنه قال : أشلى ، فى معنى : اغرى . والمعروف ان « الاشلاء » فى معنى : الدعاء ، لامعنى : الاغراء . وقد حكى أن « الكميت » استعمل « الاشلاء » فى معنى « الايساد » ويروى هذا البيت فى شعره :

خرجت خروج القدح ــ قدح ابن مقبل على الرغم من تلك النوابح والمشلى

وإنما ينكر ذلك من يرده الى السماع . فأما من يحمله على القياس ، فهو عنده جائز ، لأنه يجعل « الاشلاء » : دعاء للمشلى الى أذاة المشلى عليه

قال البحترى : كدن ينهبنه العيون سراعا فيه لو أمكن العيون انتهابه

فى النسخة : « كدن » وهو جائز . على أنه ردىء ، لأن الصواب ان يقال : رآته النساء ، فيؤنث الفعل بالتاء . أو : رآه النساء . فأما المجىء بالنون فى الفعل المتقدم ، فهو قليل . وذلك على مذهب من قال : أكلونى البراغيث . ومنه قول الفرزدق :

ولكن ديافىٌّ : أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط أقاربه

ولو قال : كاد ، لجاز ، وخلص من هذا الوجه . ويكون فى كاد ضمير المذكور ، فان جعله للعيون فهو جائز أيضا . الا أن الضمير يجىء فى ينهبن ، فتنفر الغريزة من ذلك ، لخلو « كاد » منه

وانما حمل أبا عبادة على مجيئه بالنون فى « كدن » كون « ينهبن » بعدها فى بناء البيت

قال البحترى :

فغدوت ذا بر لديك ونائل ورويت من اهل لديك ومرحب

هذا يحتمل ثلاثة معان :

أحدها : أن يكون يريد به كثرة الترحيب . من قوله : مرحبا وأهلا . وليس هذا بفائدة للمدوح ، الا أنه يدل على البشر والكرامة

والثانى : ان يكون أراد أنى من قولك لى : « اهلا ومرحبا » رويت ، وهذا كما يقال للرجل : إذا رأيتك فقد استغنيت

والثالث : أن يعنى كونه فى اهل — أى : من ينوب منابهم — وفى مرحب — أى : محل واسع . انتهى

وبعد ، فنقد المعرى يريك مبلغ غنى الرجل ووفرة محصوله من اللغة ، وكيف أحاط بها من جميع اقطارها ، ما يكاد يجل على علمه فيها جليل ، او يدق عن فهمه منها دقيق . وتراه فى نقده يصرف الى اللغة أجل همه ، على أنه لافت صدراً منه الى النقد العروضى ما أصاب موضعا للانتقاد . أما نقد المعانى ، وتفقد وجوه الحسن والقبح ، والاشارة الى ما فى نظم الكلام وما يتهيأ له من القوة والسلاسة ، او الترهل والفسولة ، فذلك ما لا يكاد يعنى المعرى كثيراً ولا قليلا !

على أن مما يلحظه مطالع المعرى الناقد ، أنه كثيراً ما ينكر الأمر على الشاعر . ويكشف عن جهة الخطأ فيه . ولكنه سرعان ما يدور من هنا ومن هنا في طلب المخرج والتماس الوجه . وكذلك ترفق أشد الترفق بالبحترى فى نقد ديوانه ، وان سماه « عبث الوليد »

عبد العزيز البشرى

صورة قلمية تمثل

رهين المحبسين

بقلم الاستاذ ميخائيل نعيمة

عشرة قرون . ان دقائق عشراً لفسحة من الزمان كافية لمحو عالم وخلق عالم ، فكيف بقرون عشرة ؟ وكيف برجل تمر به هذه القرون بمدها وجزرها ، فتجرف الكثير من الذين سبقوه والذين عاصروه والذين جاءوا بعده ، ولاتقوى على جرفه ، بل تحمله كمطية مطواع من فجر حول الى فجر حول ، ومن قلب جيل الى قلب جيل ؟ وهكذا يلف هذا الرجل الزمان ولايلفه الزمان ، ويطوى المكان ولا يطويه المكان ، فيصل ألف عام بساعاتها بهذا العام وهذه الساعة ، ويربط معرة النعمان بالوف الدساكر والمدن فى سائر الأقطار ، ومنها بلدة جاورت حنين فى لبنان ، ويحرك بأفكاره أقلاما لا تعد ، ومنها القلم الذى يجرى بهذه السطور

هو الرجل الذى كان من أشد الناس تبرما بالزمان والمكان ، ونقمة على حياة كان يحسبها جناية واثما لأنها فى اعتقاده ، أضيق من المكان وأقصر من الزمان . لها أول فيه بعض الحلاوة ، ولها آخر كله مرارة ، ومرارة آخرها تمحو حلاوة أولها . وهذا الرجل عينه ، من بعد الف سنة مرت على إنعتاقه من حياته المرة ، يفتح لى وللكثير سواى باب منزله على مصراعيه قائلا :

« تفضلوا وادخلوا » فكأنه ما اعتزل الناس فى حياته الا لتكون عزلته حافلة بهم بعد مماته ، ولا طلب الافلات من الحياة إلا ليمسك بالحياة فلا تفلت منه ، ولا الخروج من قبضة الزمان الا ليصبح الزمان فى قبضته

ها انا اطل عليه فى نفق ضيق مظلم من منزله الوضيع . فأراه جالسا وحده الى طبق من القش عليه قصعة من العدس المطبوخ ، وأخرى من الدبس ، وبعض الخبز . وأرى يده اليمين تمتد متمهلة بكسرة من الخبز الى قصعة الدبس وكأنها تخشى ان تخطئها فتقع على العدس ، أوأن تخطىء الاثنين فتقع على فسحة فارغة من الطبق . وبعد تردد تبلغ ما تقصد اليه ، فتغمس اللقمة بالدبس وترفعها بحذر الى الفم . لكنها لا تكاد تلامسه حتى يدخل الخادم لينعى الى مولاه وفاة صديقه ابى حمزة . فتجمد اليد فى الهواء ، وتقع اللقمة من بين اصابعها مارة بلحية الرجل وتاركة عليها آثاراً من الدبس لو كان له أن يراها لأنسته فظاعتها فاجعته بصديقه . إلا أنه لا يستطيع أن يراها

إذ لا منفذ للنور من عينه الغائرة وأختها النافرة ، وقد امتص الجدرى ماءهما ورد مافيهما من نور الى الداخل يوم لم يكن لصاحبهما من العمر أكثر من سنوات أربع

اما وجهه الأسمر النبيل المستطيل فتغشوه فى الحال سحابة سوداء لاتلبث أن تنقشع عن سحابة مثلها ، ثم أخرى ، ثم أخرى . فكأن ذلك الوجه النحيل الذى نخره الجدرى تحول مسرحا لخيالات سود تعدو سراعا من شعرة الى شعرة ، ومن شفة الى شفة ، ومن حاجب الى حاجب ، ومن أذن الى أذن . وكأن عينيه ، وقد خبا نورهما ، تحاولان التقاط ما قد يكون فى تلك الخيالات من أنوار خفية

دقيقة . دقيقتان . والرجل لا يتحرك من مكانه كأنه سمر بالأرض . وأخيراً تنفتح شفتاه الرقيقتان الذاويتان بكل ما فيهما من صبر وأنفة وشمم فيأمر خادمه بالانصراف عنه وبألا يأذن لأحد بالدخول عليه . ومن بعدها ينهض متواكلا بقامته الطويلة النحيلة وقد تغطت بجبة من الصوف الخشن ، وتكللت بعمامة تماثل الجبة خشونة وسواداً ، والعمامة والجبة تنمان عن فقر يتعشق النظافة رغم العمى ورغم قطرات الدبس

ويمشى الرجل بغير عصا ومن غير ان يتلمس الجدران الى باب النفق الضيق الواطىء فينحنى إذ يخرج منه الى حيث عادته أن يجالس قاصديه من طلاب معرفة ، اوغواة جدل ، أو ذوى حاجة من الحاجات . لكنه لا يتوقف هناك بل يجتاز المكان الى باب مخدعه الخاص . فيفتحه ويدخل ثم يوصده وراءه ويخطو بضع خطوات الى زاوية مفروشة باللبد لا غير . وهناك يتربع واضعا يديه على ركبتيه ومصوبا عينيه الى الأرض

وينحنى رأسه قليلا فقليلا كأن به ثقلا لا يقوى عنقه الطويل على حمله . وتكاد العمامة تهوى عنه الى الارض . فيأخذها بيديه ويضغط عليها . وينحدر الثقل من رأسه الى قلبه ، فيحس فيه انقباضا وأى انقباض ، كأن يداً من حديد تعصره فتكاد تزهق أنفاسه ، فيتمنى لو يذهب الموت بأنفاسه. ثم يخيل اليه أنه فى قبر ، وهل القبر أضيق أو أشد ظلاما من هذا البيت الذى قضى فيه أبوه ثم أمه وتركاه أعزلا من كل سلاح حتى من البصر ! — بيت ما أشرقت جدرانه القاتمة ببسمة طفل ، ولا رقصت عيدانه اليابسة لقهقهة ولد منذ خمسة عقود — منذ أن كان هو طفلا رضيعا ثم فطيما صغيرا — بيت لا تهتز أرضه لخطوات زوج تلتهب محبة لزوجها ، ولا تتجاوب زواياه بعذوبة صوتها . حقا أنه لقبر هذا البيت الذى احتبس فيه عن الناس وعن كل مافى العالم الواسع خلف جدرانه وهو دفين فيه من زمان ، وما برح يحسب نفسه من الاحياء

وهذا الجسد الذى أغلقت نافذتاه الى عالم الاشكال والألوان ، اليس هو كذلك قبراً ؟ فلا السماء بكواكبها ، ولا الارض بمواكبها تجد اليه سبيلا إلا على قدر ما تتناول منه أذناه ويداه ، وأنفه ولسانه ، وهل تتناول الاذن أشباح الانفعالات التى تتمايل على وجوه الناس فتنم عما فى

صدورهم بفصاحة أين منها فصاحة اللسان ؟ أو تتناول اليد البحر والجبل ، أو الانف عجائب الفجر والمساء ، أو اللسان غرائب الزهر والثمر ؟ بل‌هاهو ، وقد أفنى حياته فى الدرس والتأليف ما تمكن يوما من قراءة ما درس وما ألف لا بيده ولا بأنفه ولا بلسانه ولا باذنه . حتى ان الحروف التى يؤلف منها ما ينظم وماينثر طلاسم عنده فى طلاسم ، يستعين على فكها بنظر يستعيره من سواه

أما لذة المؤلف فى قلمه وهو يجرى به على القرطاس فلذة لا أثر لها فى نفسه على الاطلاق . وأى خير فى التأليف من‌أى نوع كان ؟ بل أى خير فى كل مايعمله الناس ـ بصيرهم ومكفوفهم ـ ما دام الموت لهم بالمرصاد ؟

أجل . انه لميت . وهذا البيت قبر . بل الارض كلها قبر واحد يبيت فيه أجساد الناس منذ فجر الخليقة ،فما كان أديمها غير أجساد بشرية بالية . فيا لغرورمن يمشى عليها مختالا بحسب أو بنسب أو بقوة أو بسلطان ، وهو لايعلم من تراب أى جيل‌جسده ، ولا بتراب أى بشر سيمتزج ترابه بعد الموت . وقد يكون عدو له فى الحياة شريكا له فى القبر بعد الممات . وقد يمسى فوقه من هو اليوم تحته . فما أجهل الناس يتسابقون فى مضمار حياة محجتها اللحد . وما أغباهم يفرحون للولادة ويحزنون للموت ولا فرق عند الارض بين تلك وهذا . ولو انهم أراحوا انفسهم من مثل هذه التفرقة بين الامور لتخلصوا من أوجاع كثيرة . لا . لا البكاء يجدى ولا الغناء ، انما يجدى الترفع عن الاثنين

« ولد ابو حمزة » . « مات ابو حمزة » . أى فرق بين هذين الخبرين عند من يعرف أن من ولدسيموت حتما ، ومن مات كان مولودا قبل ان مات ؟ أى فرق عند الشمس بين قول قائل : «أشرقت الشمس» وقوله « غابت الشمس » ؟

ان يكن هناك فرق بين شروق الشمس وغروبها فالشمس أدرى به . اما من ليس شمسا فما عليه إلا القبول بالشروق والغروب . كذلك ان يكن فرق بين الولادة والموت فالذى يولد ويميت أدرى به . اما من ليست الولادة ولا الموت فى قدرته فما له إلا القبول بهما

من يجهل العلل حذار أن يفرق بين النتائج فيحسب بعضها خيراً وبعضها شراً ، ويفرح للاول ويبكى للثانى . والناس يجهلون العلل لذلك إن هم فرقوا بين النتائج كان تفريقهم وبالا عليهم

وينكمش وجه الرجل عند هذه النقطة ويتقطب حاجباه وما هى إلا هنيهة حتى تطمئن ملامحه وتنبسط ، ويطفو عليها نور دقيق هادىء يكاد يشع حتى فى عينيه الفارغتين من النور . فكأن البيت الذى أوشك أن يسحقه بين جدرانه وسقفه قد تلاشى فى الأثير . وكأن سحراً مشى فى دمه فأحس جسده خفيفا كالاثير ، وأحس ذاته واسعا كالارض والسماء ، مجيبا كالقدرة التى

منها الولادة والموت . واذا بلسانه يتحرك وبشفتيه تتململان ، واذا به يسمع صوته هامسا فى أذنه :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

ويدور هذا البيت على لسانه دورات واذا بآخر يدور معه :

وشبيه صوت النعى اذا قيس بصوت البشير فى كل ناد

لكنه بيت ، اذا فهمه هو ، فلن يفهمه الناس الذين درجوا على ترتيب كل شيء فى الحياة ترتيبا يجعل الاشياء متفاوتة القدر والأهمية ، وما هى متفاوتة . فهم سيقولون إن فى بشارة الولادة فرحا وفى نعى الموت حزنا . فكيف يتساويان ؟ ألعلهم يقولون ذلك فى هديل الحمامة وهم لايعرفون ، أبكاء هو أم نواح ؟

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على غصن دوحها المياد ؟

وهكذا ينبثق البيت من البيت ، وهكذا تتماسك أعجاز البيوت بصدورها وصدورها باعجازها ، وفى كل بيت صورة بل صور تجعل الناظر اليها يخجل من الحزن والتفجع على الأموات . صور يجلو بعضها بعضا فتبدو رائعة ببساطتها ، غير متناهية فى مداها ، لاتعنت فيها ولا تكلف ، لا نغمة تؤلم الأذن ، ولا لون يجرح العين ، ولا معنى ينفر الفكر . حتى كأن هذه الصور صورت ذاتها ، وكأنها كانت فى العالم منذ أن كان العالم ، لكن ستاراً كان يحجبها عن أعين الناس ، فما فعل هذا الضرير اكثر من أن أزاح عنها الستار ، فكان وحده المبصر فى عالم عميان

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد

ومن بعد أن يفرغ خياله من صور الموت على الأرض يرتفع الى فوق فيرى ما فى الفضاء سائراً الى الاغلال . فزحل على ميعاد مع الردى . والثريا رهينة بتشتت الشمل . كل ما فى السماء وعلى الأرض زائل . اما الانسان . . .

ويتقطب حاجبا الأعمى ثانية ، ويضغط بيديه على رأسه أشد من قبل . ويغرق فى لجة من التفكير ، ثم يرفع رأسه الى فوق كأنه يستنجد قوة خفية . ويمر بيمناه على لحيته واذ ينحدر بها الى صدره تلامس شيئا لزجا على جبته . فيجفل كالملسوع . ويحتقن الدم فى وجهه . وتمشى قشعريرة فى بدنه . ويفطن للدبس الذى اكل . فينهض من مكانه متمتما « قاتل الله النهم » ويروح يفتش عن ابريق الماء حتى اذا وجده بل منديلا واخذ يمسح به الدبس عن جبته ، متعزيا عن هذه « الكارثة » بانه تنبه لها قبل أن يراها غيره ويضحك منه فى سره . فهو شديد الحذر الى حد الجنون من أن تكون بليته ببصره مدعاة لسخر الناس به . لكنه ما يكاد ينتهى من تنظيف جبته حتى يستغرب ذاته . فكأنه ليس الرجل الذى منذ دقائق كان يفكك الثريا ، ويذرى غبار زحل فى هاوية الزمان ، ويرفع النقاب عن وجه الأرض ليرى الناس ما تحته من قبور

كيف يخشى قطرة من الدبس على جبته ، من ليس يخشى الموت فى قلبه ، ومن يقول إن الموت والولادة سيّان ؟ أنه لعجيب هذا الانسان الذى يسطو على الاكوان بخياله وتسطو عليه قطرة من الدبس . بلى . عجيب واكثر من عجيب . اليس من الممكن أن يكون مفتاح الحياة والموت فيه ؟

يجول الرجل فى كل ناحية من نواحي فكره لعله يتمكن من الجواب بالنفى أو بالتثبيت ، فلا يتمكن ، فيكتفى باعلان حيرته فى ذاته وفى كل انسان :

والذى حارت البرية فيـــه   حيوان مستحدث من جماد

لكنها حيرة تتمخض عن معرفة . ولكنها معرفة فى قلبها ايمان

***

بعد أعوام يغيب أبو العلاء فى رمسه . اما « غير مجد » فتشرق أبياتها بنور ما يزال يتهادى على أسنمة السنين ، واصلا قطراً بقطر وجيلا بجيل . ولن يخبو هذا النور حتى تخلو الأرض من القبور

لعل من اختارته الحياة اناء لمثل هذا النور ما يزال ــ من بعد الف سـنة ــ ناقما على الحياة ، وفى ريبة من أن الانسان أبقى من الزمان وأوسع من المكان ؟

ميخائيل نعيمه

جناية الأبناء

صحبتك فاستفدت بهن ولدا   أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء   بذلك عن نوائب مسنمات
فمن شكل يهاب ومن عقوق   وارزاء يجئن مصممات
وان تعط البنات فأى بؤس   تبين فى وجـوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليـا   ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب   ولا من غارة متفشمات
ودفن والحوادث فاجعـات   لاحداهن احدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجا كراما   فيـا للنسوة المتأيمات

المعرى

كيف يخشى قطرة من الدبس على جبته ، من ليس يخشى الموت فى قلبه ، ومن يقول إن الموت والولادة سيّان ؟ أنه لعجيب هذا الانسان الذى يسطو على الأكوان بخياله وتسطو عليه قطرة من الدبس . بلى . عجيب وأكثر من عجيب . أليس من الممكن أن يكون مفتاح الحياة والموت فيه ؟

يجول الرجل فى كل ناحية من نواحي فكره لعله يتمكن من الجواب بالنفى أو بالتثبيت ، فلا يتمكن ، فيكتفى باعلان حيرته فى ذاته وفى كل انسان :

والذى حارت البرية فيـــه حيوان مستحدث من جماد

لكنها حيرة تتمخض عن معرفة . ولكنها معرفة فى قلبها ايمان

***

بعد أعوام يغيب أبو العلاء فى رمسه . اما « غير مجد » فتشرق أبياتها بنور ما يزال يتهادى على أسنمة السنين ، واصلا قطراً بقطر وجيلا بجيل . ولن يخبو هذا النور حتى تخلو الأرض من القبور

لعل من اختارته الحياة اناء لمثل هذا النور ما يزال ـ من بعد الف سـنة ـ ناقما على الحياة ، وفى ريبة من أن الانسان أبقى من الزمان وأوسع من المكان ؟

ميخائيل نعيمه

جناية الأبناء

صحبتك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مسنمات
فمن شكل يهاب ومن عقوق وارزاء يجئن مصممات
وان تعط البنات فأى بؤس تبين فى وجـوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليـا ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا من غارة متفشمات
ودفن والحوادث فاجعـات لاحداهن احدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجا كراما فيـا للنسوة المتأيمات

المعرى

المعرى النباتى

كان رحيما متقشفاً لا زنديقاً ملحداً

بقلم الدكتور محمد بك عبد الحميد
وكيل القومسيون الطبي العام

النباتى لغة العارف بالنباتات . أما النباتى فى عرف الطب فهو من اقتصر فى غذائه على المواد النباتية ممتنعا عن تناول شىء من المواد الحيوانية . ومن النباتيين من يتنطع فى مذهبه فلا يتناول البيض واللبن والجبن والسمك لأنها من أصل حيوانى ، ومنهم من يعف عن اللحوم المختلفة لكنه لا يأبى أن يتناول البيض واللبن والجبن والسمك

حجج النباتيين

ويرتكن النباتيون فى مذهبهم على أسباب مختلفة . فهم يدعون من الناحيه الفسيولوجية أن الانسان قريب المشابهة بالقرد آكل الفواكه والاثمار ، بعيد كل البعد عن أكلة اللحوم وأكلة الأعشاب وأكلة اللحوم والأعشاب معا . فيرد بعضهم على ذلك بأن الانسان من الناحية الفسيولوجية يعتبر حيوانيا نباتيا ، ذلك لأن له أنيابا ولأن امعاءه متوسطة الطول بين أكلة اللحوم وأكلة الأعشاب . فيعترض عليهم النباتيون بأن للقرد آكل الفواكه والأثمار أنيابا ، أما امعاء الانسان فلا تجعله صالحا لتناول الأعشاب التى تستلزم امعاء طويلة ، ولا تجعله صالحا لتناول اللحوم التى تستلزم امعاء قصيرة لكى لا يطول مكثها فيها فتتعفن ويصيبه أذى من تعفنها

ويقول النباتيون من الناحية الكيميائية إن العناصر الغذائية الضرورية متوفرة فى المواد النباتية فيرد عليهم المعترضون بأن الجسم لا بد من استيعابه مقادير كبيرة منها للحصول على العناصر الغذائية الضرورية له وأن الجسم لا يعانى عناء كبيراً فى هضم المواد الحيوانية وتمثيلها

ويعتقد النباتيون أنهم باقتصارهم على تناول المواد النباتية يتجنبون الامراض التى قد تنتقل اليهم عن طريق المواد الحيوانية ، وانهم أرحم من أن يقتلوا الحيوان أو يذبحوه ليأكلوه . فيرد عليهم المعترضون بأن تلك الامراض يمكن اتقاؤها بالمراقبة الصحية الشديدة ، وان الرحمة بالحيوان تتم باحسان الذبح على نحو ما يحتم الشرع الاسلامى مما يطول بى الكلام لو أردت بيانه ، واننا اذا

تركنا أنواع الحيوان ترعى وترتع وتلعب ولم نذبح الصالح منها لغذائنا تكاثرت تكاثراً كان من شأنه أن يعتدى بعضها على بعض ويفترس قويها ضعيفها

ومن الأسباب التى يعتمد عليها النباتيون أن المواد النباتية أفضل من الناحية الاقتصادية لرخصها عن المواد الحيوانية ، وانهم باقتصارهم على المواد النباتية تكون صحتهم قوية وقوتهم عظيمة . فيرد الخصوم عليهم انهم لو أضافوا الى غذائهم شيئا من المواد الحيوانية لازدادوا صحة على صحتهم وقوة على قوتهم . وكذلك يقول النباتيون : هبك جنبت عدداً معينا من الأفدنة لتربية المواشى لذبحها فلحومها لا تكفى إلا عدداً صغيراً من الناس ، على غير ماهى الحال اذا زرعتها بقولا وحبوبا ونباتا فهى وقتئذ تكفى عدداً أكبر . فيعترض عليهم أن من الارض ما لا يصلح إلا لانبات الكلأ والحشائش التى ترعاها المواشى

وكذلك يقول النباتيون إن إنبات البقول والحبوب والفواكه والخضر يحتاج الى استخدام عدد كبير من الفلاحين أو المزارعين وبذلك تكثر الأيدى العاملة وتقل البطالة على غير ماهى الحال اذا جنبت الارض للمرعى

نباتية المعرى

ودعك من النباتية أو الحيوانية أو الجمع بينهما يتخذها الانسان سبيلا لغذائه المستمر طوعا لارادته وهواه . فهناك امراض معينة تقتضى أن يمتنع الانسان عن اللحوم وأن يقتصر على الخضر والفواكه ، وهى أحوال يطول بى الكلام لو أردت شرحها تفصيلا ، فلنتركها لنتكلم عن أبى العلاء المعرى الذى عاش نيفا وثمانين سنة لم يأكل اللحم منها خمسا واربعين سنة . فقد روى بعضهم « أنه مرض مرة فوصف الطبيب له الفروج فلما جىء به لمسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك هلا وصفوا شبل الاسد ؟ »

وكذلك روى بعضهم : « أنه بقى خمسا واربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ويحرم إيلام الحيوان ويقتصر على ماتنبت الارض ويلبس خشن الثياب ويظهر دوام الصوم »

وكذلك روى : « أن رجلا لقيه فقال له : لم لا تأكل اللحم ؟ قال : أرحم الحيوان » ، قال : « فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان فان كان لذلك خالق ، فما انت بأرأف منه ، وان كانت الطبائع المحدثة لذلك فما أنت باحذق منها ولا اتقن عملا . فسكت »

ويستدل القوم على ان المعرى كان معتنقا المذهب النباتى من قوله فى لزومياته :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما اخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
وابيض أمات أرادت صريحه لاطفالها دون الغوانى الصرائح

ولا تفجعن الطير وهى غوافل   بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له   كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها   ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى   أبهت لشأنى قبل شيب المسائح

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة حسبنا منها ماذكرت مما معناه : أنه يدعو عليل العقل والدين ليخبره بالصحيح من الأمور ، وينصح بعدم أكل ما يخرج الماء لأنه يعتقد أن السمك لا يخرج من الماء الا وهوكاره . وكذلك ينصح بعدم أكل غريض الذبائح اجتنابا لايلامها فى أثناء ذبحها . وينصح بعدم شرب اللبن لأنه يرى أنه لأطفال البهائم التى تشرب لبنها . وفى ذلك يقول : « ومشهور أن الأم اذا ذبح ولدها وجدت عليه وجدا عظيما وسهرت لذلك الليالى ، وقد أخذ لحمه وتوفر عليه اصحاب أمه ما كان يرضع من لبنها . وأى ذنب لمن تحرج عن ذبح السليل ولم يرغب فى استعمال اللبن ولا يزعم أنه محرم ، وانما تركه اجتهاداً فى التعبد ورحمة للمذبوح رغبة أن يجازى عن ذلك بغفران خالق السموات والارض . واذا قيل ان الله سبحانه يساوى بين عباده فى الاقسام فأى شىء اسلفته الذبائح من الخطأ حتى تمنع حظها من الرأفة والرفق ؟» ثم استأنف ناصحا بعدم أكل الطير بقوله :

ولا تفجعن الطير وهى غوافل   بما وضعت فالظلم شر القبائح

وفى ذلك يشرح المعرى رأيه بقوله :

« ان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن صيد الليل وذلك أحد القولين فى قوله عليه الصلاة والسلام : « أقروا الطير فى وكناتها » وفى الكتاب العزيز : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم » الى غيرها من الآى فى هذا المعنى . فاذا سمع من له أدنى حس هذا القول فلا لوم عليه إذا طلب التقرب الى رب السموات والارضين بأن يجعل صيد الحل كصيد الحرم وإن كان ذلك ليس بمحظور »

ثم تمادى فى النصح بعدم تناول العسل الابيض الغليظ لأن النحل لم تحرزه لكى يكون لغيرها ولا جمعته لتجود به أو لتعطيه الغير كما تعطى الناقة أو الشاة لبنها غيرها بقوله :

« لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه وتجتهد أن ترده عن ذلك فلا غرو ان أعرض عن استعماله رغبة فى أن تجعل النحل كغيرها مما يكره فيه ذبح الاكيل وأخذ ماكان يعيش به لتشربه النساء كى يبدن وغيرها من بنى آدم »

واستأنف المعرى قائلا : « انه روى عن على عليه السلام حكاية معناها أنه كان له دقيق شعير فى وعاء يختم عليه فاذا كان صائما لم يختم على شىء من ذلك الدقيق . وقدكان عليه السلام يصل الى

غلة كثيرة ولكنه كان يتصدق بها ويقتنع اشد اقتناع . وروى عن بعض اهل العلم انه قال فى بعض خطبه ان غلته تبلغ فى السنة خمسين الف دينار وهذا يدل على أن الانبياء والمجتهدين من الأئمة يقصرون نفوسهم ـ أى يحبسونها عن الشهوات ـ ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة »

ومن الغريب انى طالعت كثيراً عن المذهب النباتى في المطولات الطبية والموسوعات الانكليزية فلم أجد من ذكر العسل الابيض وأشار بالامتناع عن تناوله كما فعل المعرى . فاذا افتخر بقوله المشهور : وانى وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

أقول فاذا افتخر المعرى بقوله هذا فما كان أحراه أن يفتخر بما لم تدركه الأواخر مع تقدم العلوم تقدما عظيما عن العصر الذى عاش فيه

هل كان المعرى ضالا ؟

ولا ريب فى ضلال من حرم ما احل الله لنا . فقد احل لنا السمك بقوله تعالى : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة » وبقوله أيضا « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » وقد أحل لنا العسل بقوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس »

وقد أحل لنا لحوم الانعام بقوله تعالى : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » وكذلك أحل لنا اللبن بقوله تعالى : « وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » بل لقد ورد فى القرآن الكريم ما يدل على ان المواد الحيوانية قد تكون فى غذاء الانسان أفضل من المواد النباتية وهو ما يلتئم والاراء الحديثة فى الطب فقد جاء فى الكتاب العزيز : « واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصر فان لكم ما سألتم » والطعام الواحد الذى قالوا عنه أنهم لن يصبروا عليه هو المن والسلوى فقد جاء ذكره فى قوله تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وقد عبر عنه بطعام واحد وان كان مركبا من المن والسلوى لانه كان مأكلا واحداً لا يتبدل ولا يتغير . والسلوى الطير المعروف بالسمانى

أقول لا ريب فى ضلال من حرم ما أحل الله لنا من هذه الطيبات متعمداً مستهتراً ولكن هل كان أبو العلاء المعرى من هذا النوع ؟

لقد اختلف المؤرخون فى ذلك . فمنهم من اتهمه بالزندقة والالحاد ومنهم من دافع عنه وبرأه من هذه التهمة

ويخيل لى انه رحمه الله لم يتخذ المذهب النباتى لأنه يرى تحريم ما أحل الله ولكنه كان مدفوعا اليه اجتنابا لايلام الحيوان رأفة به ورحمة له ورغبة في أن يجازى عن ذلك بالغفران . ولعل أكبر دليل على ذلك ماجاء فى لزومياته :

تسريح كفى برغوثا ظفرت به   أبر من درهم تعطيه محتاجا
لا فرق بين الأسك الجون اطلقه   وجون كندة أمسى يعقد التاجا
كلاهما يتوقى والحياة له   حبيبة ويروم العيش مهتاجا

فهو فى هذه الأبيات يرى تسريح البرغوث واطلاقه خيراً من التصدق بدرهم على محتاج . ألا يدل ذلك على أنه كان رقيق القلب عطوفا رءوفا ؟

ومن الأدلة على رفقه بالحيوان رفقا شديداً قوله فى اللزوميات أيضا :

يكفيك أدما سليط ما اريق له   دم ولامس روحا إذ جرى ألم

وعندى أن اقتصاره على المواد النباتية أو امتناعه عن تناول المواد الحيوانية هو من باب ايثار الحيوان على نفسه توغلا فى الزهد والتقشف . فقد رد على من ادعى أن ترك أكل اللحم ذميم بقوله : « ولو أخذ بهذا المذهب ، لوجب على الانسان ألا يصلى صلاة إلا ما افترض عليه لأن ما زاد على ذلك أداه الى كلفة والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ، ولوجب أن الذى له مال كثير اذا اخرج عن الذهب ربع العشر لايحسن به أن يزيد على ذلك ، وقد حث الناس على النفقات فى غير موضع من الكتاب الاشرف »

وقد يكون من التعسف أن نحكم حكما قاسيا على كل من امتنع عن شىء أحله الله لنا وهو لا يقول بتحريمه

ولنا فيما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة ، فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قيل له أحرام هو ؟ - والكلام على الضب - قال لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى اعافه

فالمعرى ، على ما اعتقد استنباطا من اشعاره وأقواله ، زاهد غاية فى الزهد ، عابد متنطع فى عبادته ، متقلل يأخذ نفسه بالخشونة قانع باليسير ، معرض عن الدنيا وزخرفها . وهذا مما يجعلني أميل الى الاعتقاد بأن نباتيته ناشئة عن شفقته وزهده وتقشفه لا عن زندقته والحاده

أما ما ورد فى أشعاره مما يصح أن يؤخذ عليه فلا يبعد أن يكون مدسوسا عليه للنيل منه فقد جاء عنه « أنه كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الاشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وايثاراً لاتلاف نفسه »

ومما يدل على ذلك قوله :

حاول اهوانى قوم فما   واجهتهم الا باهوان

يحرشــــونى بســـعاياتهم فغيروا نيــة اخــوانى
لو استطاعوا لوشوا بى الى الــ ـمريخ فى الشهب وكيوان

وكذلك قوله :

غريت بذمى أمة وبحمد خالقها غريت
وعبدت ربى ما استطعــ ـت ومن بريته بريت
وفرتنى الجهال حا سدة على وما فريت
سعروا على فلم أحـ ـس وعندهم انى هريت

ولست أدرى أيصح ان أقول عن المعرى ما قاله المعرى عن المتنبى ، فقد كان يتعصب له ويفضله وكان المرتضى يتعصب عليه فجرى ذكره يوما فتنقصه المرتضى فقال المعرى لو لم يكن للمتنبى من الشعر إلا قوله : « لك يامنازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا فغضب المرتضى وأمر به فسحب برجله وأخرج وقال : أتدرون ما قصد بهذه القصيدة فان للمتنبي ما هو أجود منها ، فقالوا : لا ، قال : أراد قوله فيها

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بانى كامل

واستأنف الراوى على ماجاء فى بغية الوعاه قائلا :

« ولما رجع ابو العلاء الى المعرة لزم بيته وسمى نفسه رهين المحبسين ، يعنى حبس نفسه فى المنزل وحبس بصره بالعمى »

ولعل رفقه بالانسان لا يقل إن لم يزد عن رفقه بالحيوان مما يدل على قوله :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا خوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد
ما دامت الوحش والانعام خائفة فرسا فما صح أمر النسك للاسد

بل ليس أدل على رفقه بالانسان مما أوصي أن يكتب على قبره :

هــذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

الدكتور محمد عبد الحميد

ان مسافة الخلف بين المعرى والخيام واسعة . فالاول رواقى المذهب والثانى ابيقورى النزعة . ولكنهما فى التشاؤم بالحياة والزراية بها والرثاء لحال الانسانية سواء

بين أبى العلاء والخيام

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

— ١ —

عظيمان من علماء الاسلام وأدبائه ، عاش أولهما بين سنتى ٣٦٣ و ٤٤٩ من الهجرة ، وعاش الثانى فى القرن الخامس وأوائل السادس لا يعرف يقينا تاريخ مولده ووفاته ، وان يكن أدرك زمان المعرى فما أدرك منه إلا سنين قلائل

بعض الأدباء يذكرون الخيام مع المعرى ، ويكثرون من تشبيه أحد الرجلين بالآخر فهل هم فى ذلك على هدى ؟ . ماذا عسى أن يتبين الباحث من تشابه بين عالم فارسى غلبت عليه الفلسفة النظرية ، والرياضة والفلك ، وأديب عربى غلبت عليه الفلسفة العملية والشعر وعلوم الادب ؟

ماذا يجد من قرب بين بصير رأى الوان الحياة ، وسرح طرفه فى ارجائها وأمتع نفسه بمشاهدها ، وسرى همومه بمرائيها ورأى فيها مضطربا واسعا ، وبين آخر كفيف لا تنطلق نفسه فى نظراته ، ولا يهتدى السبل فى مناكب الارض ، لزم داره وتسمى رهين المحبسين : العمى والدار ، بل رأى الحياة محبسا ثالثا فقال :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدى ناظرى ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسد الخبيث

بل ماذا تجد من شبه بين هذا الفلكى البصير الذى يأخذ حظه من متاع الحياة ولذة العيش ويدعو الناس الى انتهاز الفرص ، وبين هذا الأديب الضرير الذى غلب عليه الحزن والانقباض وزهد فى الدنيا ودعا جاهدا الى الزهد فيها ؟ هذا بين كأسه ومزهره ونديمه فى المروج الخضراء على مجارى الماء ، وهذا فى ظلمته يملى على الناس ما أدرك عقله من مساوىء هذا العالم ، وما أحس قلبه من هموم هذه الحياة ، ويغتم لما لم يدرك من أسرار الكون ومعمياته . كأن هذين الاديبين كما قال ابو العلاء :

زحلى داجم يصحبه زهرى الطبع غنى وزمر

ان قارىء اللزوميات كثيرا ما يمر بمثل هذه الأبيات :

يحل بمهر رحيق الرضاب وليس يحل رحيق العنب
يعيد الفتى كالذى نابه جنون ، على أنه لم ينب
توخ بهجر أم ليلى فانها عجوز أضلت حي طسم ومارب
دبيب نمال عن عقار تخالها بجسمك شر من دبيب العقارب
ولو انها كالماء طلق لأوجبت قلاها أصيلات النهى والتجارب

وكذلك يمر قارىء اللزوميات بأبيات كثيرة تنهى عن اللهو واللعب . وأما الزهد فلا تكاد تخلو من الدعوة اليه صفحة من الكتاب . وأما قارىء الرباعيات ، رباعيات الخيام ، فهو فى دعوة الى الشراب واللهو تلقاه بها كل صفحة

شرب الخمر والطرب مذهبى
والفراغ من الدين والكفر دينى
قلت لعروس الدهر ما مهرك ؟
قالت مهرى القلب الطروب
تقلب الدهر بالصيف والشتاء
يطوى أعمارنا طى السجل

فتجرع الخمر ولا تتجرع الهم فقد قال الحكيم : هموم الدنيا كالسم وترياقها الخمر

وعلى هذا القطب يدور شعر الخيام فى رباعياته

فهذان شاعران دعوة أحدهما : اشرب واطرب ولا تبال شيئا ، ولا تفكر فى الأمس ولا الغد

* أيأتى نبى يجعل الخمر طلقة لتحمل ثقلا من همومى واحزانى
وهيهات لوصلت لما كنت شاربا مخففة فى الحلم كفة ميزانى
* مافات مات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

والثانى دعوته : أزهد واهجر الخمر واللهو وفكر فى أمسك وغدك . ذانك مذهبان فى العيش مختلفان كل الاختلاف تترادف عليهما الأدلة من شعر الشاعرين

— ٢ —

ان الذى يقنع بالنظرات العاجلات لا يرى بين شاعر المعرة وشاعر نيسابور تشابها ، بل يرى بينهما تباعدا وتنافرا وتناقضا . وله العذر فى هذا الرأى فالاختلاف بين الرجلين عظيم ، والذى يقرأ اللزوميات والرباعيات قراءة مستوعب متأمل يرى مسافة الخلف بين الاديبين تزداد اتساعا ، ولكنه ، ولا ريب ، يدرك مع هذا الاختلاف البين شبها بينا

يرى المعرى قد أجال فكره فى العالم كله جملته وتفصيله ، ونظره فى الحياة أصلها وفروعها ،

فهو يروع القارىء بسعة الفكر ، وعمقه ، وتنوعه ، ويرى الشاعر جائل الفكر بين السماء والارض والحياة والموت ، والدين والكفر ، والعدل والجور ، والشفقة والقسوة ، أمور كثيرة ترجع الى أخلاق الناس وسياسة الامم . يقول فى اللزوميات :

* فكرى أنت ربما هدى الانسان للمشكلات بالتفكير

ماالذى نستفيد فى هذه الدنيا بطول الرواح والتبكير ؟

* حياة وموت وانتظار قيامة ثلاث أفادتنا الوف معان

فذلك الأصل الذى يبدأ منه تفكيره ثم يمده ويفصله حتى يتناول كل ما يهم المفكر فى هذه الحياة

ويظهر المعرى فى شعره مفكراً ملحا فى التفكير ، مهموما حزينا ، حائراً ومهتديا، شاكا ومؤمنا، باختلاف الامور التى ينظر فيها والأحوال التى تتداول نفسه ، حتى يكاد يكون شعره فلسفة وتفكيراً. وكذلك يدرك القارىء هذا المسلك الوعر الذى حمل الشاعر نفسه عليه فى حياته ظاهرا فى أسلوبه اللفظى كذلك ، فهو يلتزم فى القافية ما لا يلزم ، ويكلف نفسه أن ينظم قوافيه على الحروف كلها المألوف منها وغير المألوف ويقيد نفسه بكثير من الجناس وضروب الصناعة اللفظية والمعنوية

وأما الخيام فتمثله رباعياته رجلا لاهيا قد انتبذ مكانا فى مرج تحت شجرة على مجرى ماء ، ومعه كأسه ومزهره ونديمه وهو يقول : نحن لا ندرى ـ لا ندرى من أين جئنا الى هذا العالم ، ولماذا جئنا ، والى أين ننتهى ، اننا الى فناء سريع فى تطور هذا العالم . فخذ حظك من متاع الحياة ، ولا تبتئس ، ولا تبال بشىء ولا تضيع فرصة تلوح لك . حياتك كالربيع يزدهر ثم يذبل وشيكا ، فاذا زين الربيع وجه الارض وغنى البلبل للورد فخذ مزهرك وكأسك وشارك الورد فى بهجته والبلبل فى غنائه الخ الخ

معان قليلة يصورها الخيام صوراً شتى ، ويعرضها فى ألوان كثيرة . كالزهر تختلف أشكاله وتفترق ألوانه ، ولكنه زهر تعدده الصور ويوحده المعنى. وأين ذلك من لزوميات أبى العلاء التى تشبه البرية المنبتة تخرج من الشجر والنجم والعشب والشوك والريحان كل ما فى طبيعة الارض

— ٣ —

ما الشبه الذى نجده بين الخيام والمعرى بعد الفروق التى قدمنا ؟ كلاهما متفلسف قرأ الفلسفة وفكر تفكيراً عميقا فلسفيا وكان له فلسفة عملية انتهت اليها آراؤه على بعد ما بين النهايتين . لست أزعم أن الخيام والمعرى درسا الفلسفة بمقدار واحد ، وليس يعنينى هنا ان اقيس الخيام بالمعرى من هذه الوجهة لنبين أن الخيام من الذين درسوا الفلسفة درسا واسعا وألفوا فيها ، والمعرى أديب لا نعرف كيف درس الفلسفة والى أى مدى بلغ فيها ، ولكن الذى يعنينا أن الرجلين كليهما فكرا فى

العالم والانسان فتحيرا ولشاءما ، وحزنا وصورا للناس ما أدركا وما أحسا من ذلك . يقول الخيام(١)

« ان الذين أحاطوا بالآداب والعلوم ، وأضاءوا لاصحابهم حينا ، لم يجدوا مخرجا من هذا الليل المظلم فقصوا أساطير ثم اخذهم النوم »

« تفكر قوم فى الأديان والمذاهب ، وتحير آخرون بين اليقين والشك ، واذا بمناد يناديهم أيها الجاهلون ! ان الطريق ليست هذه ولا تلك »

« جاء بي الى الوجود مضطراً ، فما ظفرت من الحياة بغير الحيرة ، ونذهب مكرهين لا ندرى ما المقصود من هذا المجيء والاقامة والذهاب »

وهكذا نجد الخيام حائراً معترفا بالجهل والعجز عن الادراك ، ونجد المعرى يقول :

* ســألتمونى فأعيتنى اجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا
* وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس نتصادم
* انما نحن فى ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته
* أيكنى الى من له حكمة أيكنى اليه ، أيكنى ألك . (٢)

وكذلك اتفق الأديبان على تقبيح هذه الحياة ، وذمها والابانة عن مصائبها والفناء السريع الذى قدر للاحياء . وأن الانسان تقلب فى أطوار العالم فهو اليوم انسان ، وغدا تراب يصنع منه الآنية ، وتبنى به الدور وهلم جرا . وكلامهما فى شرور الحياة وسرعة الفناء لا يحتاج الى دليل . فحسبنا هذه الأمثلة من كلامهما فى تقلب طينة الانسان فى أطوار مختلفة :

* صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد
* لعل مفاصل البناء تضحي طلاء للسقيفة والجدار
* فلا يمس فخارا من الفخر عائد الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل أناء منه يصنع مرة فيأ كل فيه من أراد ويشرب
وينقل من أرض لأخرى ومادرى فواها له ! بعد البلى يتغرب

ويقول الخيام : « مررت بمصنع خزاف فرأيته قائما أمام دولابه ، يصنع صحافا وأباريق من هامة ملك وذراع سائل . ويلك أيها الصانع ! تلبث أن كنت عاقلا . حتام تهين طينة الانسان ؟ ماذا تظن ؟ ان الذي وضعت على الدولاب أصبع أفريدون وكف كيخسرو »

ذلكم بعض ما يتشابه فيه شيخ المعرة ، وحكيم نيسابور من الجهة النظرية . وأما العمل فقد افترقت فيه مذاهبهما ، واختلفت دعوتاهما ، ولكنهما افترقا بعد ان جمعهما رأى واحد كالمسافرين يبدءان سفرهما من موضع واحد فيشرق أحدهما ويغرب الثانى . اجتمع الرجلان على التشاؤم بهذه

(١) لم يتسع الوقت لان أترجم نظما ما استشهد به من الرباعيات (٢) ألك يألك : أرسل يرسل

الحياة والاشفاق من شرها ، والزراية عليها ، والرثاء لحال الانسان فيها ثم قال المعرى كما قال الرواقيون من قبل : هون على نفسك هذه الحياة لذاتها وآلامها ، حرر نفسك من همومها ، واطلق قلبك من قيودها ، ازهد فيها ، ولا تحرص عليها وتجنب لذاتها . اسم فوق حروفها واستكبر على نميرها واعبد الله حتى يأتيك الموت ، ومرحبا بالموت :

لا أخطب الدنيا الى مالك الد نيا وانما خطبتي أختها
النفس فيها وهى محسودة ذات شقاء عدمت بختها
ما أم دفر ام طيب ولو أنك بالعنبر ضمختها

وبعد ، فهذا تمثيل يخطر لى كلما تذكرت المعرى والخيام ، اتمثل المعرى أسدا أسيراً قد أحيط محبسه الضيق بقضبان الحديد الغليظة . وطويت قوته وحريته وزئيره ومرحه وافتراسه وكبرياؤه فى هذا المحبس . فهو يطوى نفسه على غم قاتل ، وحزن محرق ،ولكنه ينظر الى الفضاء من خلال القضبان ساكتا ساهما ثائر الروح ساكن الجسد

وأتمثل الخيام عصفورا فى قفص قد حرم مروج الارض وآفاق السماء ، وحبست ارادته التى تنطلق فى الجو انطلاق الفكر في العالم فى شبرين من الضيق ، كلما احس ضيق القفص ملأه حركات ونزوات ، وزقزقة وصفيراً كأنه فرح مرح ، وكأنه يتسلى بنزواته ، ونغماته عما يجد فى هذا السجن الاليم ، وما يفقد من هذا الفضاء الفسيح

هذه نظرات فى شعر المعرى والخيام لا تكفى الباحث المتطلع ولكنها تصلح أن تكون عنوانا لما وراءها من فلسفة الرجلين

وأما الخيام فقد قال كما قال الابيقوريون من قبل ، هذه الحياة مليئة بالشر والغم ، والآلام والاسقام فاله عنها بملذاتك ، واستعن عليها بلهوك ، ولا تتركن وسيلة الى اللذة الا توسلت بها ، ولا فرصة للسرور الا انتهزتها ، ولا تغفل عن الخمر صبوحها وغبوقها

« الى كم تمضى عمرك فى الهموم ، أو التفكير فى الموجود والمعدوم . اشرب الخمر فهذا العمر الذى يخالفه الغم ينبغى أن يمضى بالنوم أو السكر »

« قد مضى يوم آخر من عمرى وعمرك كما يمر الماء فى النهر ، والريح فى الصحراء ، لست أبالى ما عشت ، ذينك اليومين : اليوم الذى مضى واليوم الذى لم يأت »

« موسم الورد ، وحافة المرج ، وشاطىء النهر ، وفاتنات كالحور العين . هات القدح فان شراب الصبوح قد استراحوا من المساجد ، وفرغوا من الكنائس »

« هذا وقت السحر فافق أيها الغلام ، وصب الخمر القانية فى أقداح البلور ، فان هذه الساعة من العافية ، فى هذه الدنيا الفانية ، ستمر ثم تتفقدها فلا تظفر بها »

عبد الوهاب عزام

أبو العلاء : بقلم جبران خليل جبران



المعري كما تخيله جبران

كان أعمى بين مبصرين ، ومبصراً بين عميـان . وقد قادته هذه الحالة الى الوحدة ، فالتشويش ، فالكآبة ، فالشك ، فالتمرد

نظر الى الحياة بعينه المعنوية ، فرأى الخرافات فتوهمها دينـا ، وأبصر الموت فظنه فناء ، وحدق بالقضاء فتخيـله ربا ، فانتصب بين أشباح أفكاره يجدف على اسم الحياة فى جيـل مستسلم الى مشيئة الايام والليالى ، استسلام العناصر غير العاقلة الى قوة الاستمرار

كان شاعراً متمرداً ولم يكن فيلسوفا . فالفيلسوف يجرد الوجود من ظواهره فيبدو له عاريا مطلقا ، أما الشاعر فيراه سائراً فى حقل من الأوزان الرنانة والمعانى المبتكرة . فالمعرى لم يوجـد فلسفة مطلقة ، ولـكنه أوجد شعراً مطلقا

ولـكن أى بشرى تمكن من إيجاد فلسفة مطلقة ؟ . أوليست الفلسفة كالأزياء تتبدل مع العصور وتتقلب مع الأميال ؟

إنما الحيـاة موكب يسير أبداً الى الأمام ، فالفيلسوف يستطيع أن يوقفها دقيقة بفكرة مبتكرة ، أو بتعليم جديد ، ولـكنه لا يقدر أن يصدها عن متابعة السير الى حيث لا تدرى

أما الشاعر فيسير معها مترنما ، متشببا راثيا ، واصفا مفـاخراً ، فاذا ما تنحى عن سبيلها ضحكت منه ، وان ظل متبعا آثار قدميها قادته الى هيكلها الأقدس وكللته بالغار

ولقد كللت الحياة أبا العلاء بأوراق الغار ، ولـكنها لم تلتفت اليه كفيلسوف

ان الحياة تتمرد حتى على المتمردين . . .

جبران خليل جبران

في هذا المقال سخرية من المعرى وعطف عليه ، فما موجب تلك السخرية ؟ وما موجب ذلك العطف ؟

هل كان المعرّى يكره الدّنيا

بقلم الدكتور زكي مبارك
الاستاذ بدار المعلمين العليا ببغداد

أكتب هذا المقال فى لحظات حزينة اكتوى بنارها أبو العلاء ، أكتب هذا المقال وأنا أحزم أمتعتى للرحيل عن بغداد ، وهو رحمه الله قد بكى يوم فارق بغداد ، ولعله لم يعرف موجعات الحزن الا يوم قهره الوجد على أن يقول :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضنا لم يستقل وانما تحامل من بعد العثار على ظلع
فبئس البديل الشام منكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربعى
الا زودوني شربة ولو أنني قدرت اذا أفنيت دجلة بالكرع

أما بعد فانى أرى أن أبا العلاء لم يكره الدنيا أبداً ، ولم يكن يوم اعتزل دنياه إلا حيوانا مفترسا نزع الدهر ما كان يملك من أظافر وأنياب . ولو كان أبو العلاء كره دنياه لاكتفى منها بأيسر العيش ، ولكنه عاش عمراً طويلا جداً ، وطول العمر يشهد بقوة الأواصر بين المحب والمحبوب . فالقتال بين ابى العلاء وبين دنياه كان قتالا بين عاشقين يظهران البغض والحقد ، ويضمران العطف والحنان

والناس متفقون على أن أبا العلاء كان طلق دنياه فلم يظفر بما فى حواشيها من نعيم ومتاع ، ولكنى بعد التأمل عرفت أنه زهد فى جميع الاشياء إلا المجد ، والمجد هو أشهى الاطايب فى دنيا الرجال . فان لم يكن هذا صحيحا فكيف نفسر خضوعه لما شاع فى زمانه من التقاليد الأدبية ، والخضوع للتقاليد الأدبية دليل الحرص على انتهاب ما يملك الناس . وأحب ان أشرح هذه النظرية فأقول :

ينقسم شعر أبى العلاء الى قسمين : أولهما ممثل فى سقط الزند ، وثانيهما ممثل فى اللزوميات . أما سقط الزند فمجموعة شعرية تشهد بأن الرجل كان يعجبه ويرضيه أن يكون من أقطاب اللغويين ، وهو قد أفصح عن ذلك حين خاطب الشريف الرضى والشريف المرتضى فى القصيدة التى رثى بها ابا احمد الموسوى فقال :

يا مالكي سرح القريض اتتكما منى حمولة مسنتين عجاف

لا تعرف الورق اللجين وان تسل تخبر عن القلام والخذراف

وهى شهادة صريحة بأنه كان يحب ان يملك قلوب البغداديين ، وكان البغداديون ألفوا حب البادية ، وهو مرض فظيع ترك فى اللغة العربية أسقاما وعقابيل . وأما اللزوميات فمجموعة شعرية تشهد بأن الرجل خضع لأمراض زمانه أبشع الخضوع ، فقد كان الأدباء فى صدر القرن الخامس قد ابتلاهم الجهل ببلية سخيفة هى الهيام بالزخرف ، والفناء فى التزويق والتهويل

والفرق بين مجموعة سقط الزند ومجموعة اللزوميات فرق عظيم جداً عند من لا يعرف . أما أنا — وأنا باحث زعم أنه يعرف — فأحكم بان المعرى انتقل من بلاء الى بلاء ، وأراه فى سقط الزند مولعا بالاغراب ، أعنى تصيد الغريب من الأخيلة والالفاظ والتعابير ، وأراه فى اللزوميات مريضا بعلتين : الاغراب والبديعيات

هل كان المعرى يجهل أنه يجنى على اللغة العربية بما صنع ؟ هل كان يجهل أنه فى أغلب أحواله يخاطب أهل العراق وأهل الشام بما لا يفهمون ؟ هل كان يجهل أن فى سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران شطرات وفقرات لا يفهمها المتفهم الا بعد التأمل العميق ؟ هل كان يجهل أن البيان الحق هو الذى يروعك لأول نظرة كما يروعك الجمال الفصيح ؟

ما كان أبو العلاء يجهل ذلك او بعض ذلك ، وانما كان رجلا لبقا يعرف مواضع الضعف فيمن عاصروه فغزاهم بلا رحمة ولا اشفاق

قد يقول القارىء وما محصول هذا الكلام ؟

وأجيب بأن هذه النزعة هى الشاهد على أنه لم يكن فى دنياه من الزاهدين ، ولو أنه كان زاهداً لانصرف عن حيازة ما يملك معاصروه من زخرف وبريق ، وهو قد انتهب ثروتهم فاعتز بها واستطال

كان المعرى سياسيا فى حياته الأدبية ، والسياسى لا يكون صحيحا سليما إلا ان استراح الى أوهام الناس فتملق أهواءهم بلا تهيب ولا استحياء ، وكذلك صنع المعرى فتكلف الغريب من الأخيلة والالفاظ والتعابير ، لأن الغريب كان فى ذلك العهد رائج السوق فى مصر والشام والعراق

ولو كان الرجل زاهداً فى المجد الأدبى لظهرت الحكمة على لسانه سمحة سهلة لا يشوبها تكلف ولا افتعال . ولكن القارىء لن يسكت ، فقد يكون ألأم منى ، فيسأل : وأين أنت من الزاهد الذى حرم على نفسه لحم الحيوان ؟

ان قال ذلك فانى سأقنعه بأيسر جهد ، فقد اتفق لى أن اعيش نباتيا فى باريس زمنا غير قليل ، وما كنت مخلصا كل الاخلاص فى ايثار الحياة النباتية ، وانما أردت ان أعرف سر المذهب النباتى لأكتب عنه بحثا أو بحثين ، وحالى فى هذا أقرب الى النزاهة من حال ابى العلاء ، فقد حرم على نفسه لحم الحيوان ليوهم الغافلين أنه تفرد بالرحمة والشفقة والعطف ، وما كان فى حقيقة أمره إلا

آكل لحوم ، وستعرفون صدق هذا الحكم بعد لحظة أو لحظتين

هل يذكر القارىء ما وقع لأبي العلاء يوم مرض ؟

مرض أبو العلاء ـ عفا الله عنه وعنى ـ فنصحه الطبيب بالحمية ، وحين اطمأن الطبيب الى نجاته من المرض وصف له فروجا ، والفروج فرخ الدجاج ، ودارت يد أبى العلاء حول جسم الفروج فى ترفق مصطنع ، ثم هتف : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ !

الله أكبر ! ذلك هو منطق شيخنا أبى العلاء

فهل كان يظن هذا الشيخ ان الطبيب يستطيع ان يصف له شبل الاسد ؟ ان نثيرة واحدة من شبل الاسد كانت تكفى لنقل أبى العلاء الى حظيرة الاموات ، ولكن الرجل استطاب الضحك على المغفلين من أبناء ذلك الزمان

هل زهد أبو العلاء فى أكل اللحم ؟ هذا تمويه وتضليل . كان الرجل يتحرج من لحم الطير والحيوان ، ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم ، لحم الانسان ، فما ترك فئة ولا جماعة الا انتاش لحمها بأنياب حداد

لقد انسحب المعرى من المجتمع ، وما كان ذلك بابا من الزهد ، وانما كان فرار المناضل الذى تعب من النضال . وماذا صنع المعرى حين انسحب من المجتمع ؟ أترونه نظر اليه نظر الرفق والعطف ، وذلك واجب الفيلسوف ؟

ما صنع شيئا من ذلك ، وانما قضى دهره فى أكل لحوم المجتمع ، ولو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع قد يفسد من حيث لا يريد ، لو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع غير مسئول عما يعانى من أوهام وأضاليل ، فتلك مواريث القرون الطوال ، لو كان المعرى على شىء من الصفاء لأدرك أن المجرم قد يجرم وهو غير مسئول

ولو كنت أستبيح لحم المعرى كما استباح لحوم الناس لقلت إن ثورته على المجتمع كانت ضربا من الانتقام الأثيم ، فالرجل كان يعرف أن أهل زمانه يتهمونه بالمروق من الدين ، فشاء له هواه أن يسجل مخازيهم ومآثمهم وأن يفضحهم فى العالمين

قد يقول القارىء مرة ثانية : وما محصول هذا الكلام ؟

وأجيب بأن هذا النزق هو دليل الحيوية ، فالمعرى كان يناضل نضال الاحياء

وما أعيب عليه غير التناقض فى فهم الرحمة . فهو كان يعطف على جميع المخلوقات إلا الانسان ولو أنه دخل فى معركة مع الطير أو الحيوان لنظم فى ثلبها مجموعة أعنف من اللزوميات

كانت نظرات أبى العلاء الى المجتمع نظرات عوام لا خواص ، وأنا أرتاب كل الارتياب فى أن يكون هذا الرجل حاول التوفيق بين سيطرة المقادير وضعف الناس ، وأكاد أجزم بأنه لم يدرك خطر العسف ، عسف الحاكم الذى يبيح فتح الحانات ثم يعاقب الناس على الشراب

أما آراؤه فى الزهد والزهاد فهى أضاحيك . وهى تشهد بأنه لم يعرف الزهد ، لأنه كان فى سريرة نفسه يؤمن بأن الناس لايزهدون إلا مخادعين أو مرائين ، ولعله لم يزهد إلا خداعا ، أو رياء . بل لعله جهل كيف لطف الله به حين حجب بصره عن أسباب الشهوات . فلو أن الله كان حفظ عليه نور العيون لعرف أن الفضائل لا تشق ولا تصعب إلا على من يقارعون فتن الوجود .
لو أن أبا العلاء كان مبصراً لرحم الناس . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف صدق الحكمة التى تقول « القابض على دينه كالقابض على الجمر » . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف ان الرجل لا يستطيع البعد عن مواطن الشبهات إلا حين تكون عزيمته أرزن من الجبال

لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف أن الناس لاينخدعون لمظاهر الفتون لاهين أو لاعبين

من أنت والانسانية يا أبا العلاء ؟ من أنت والانسانية حتى تفضحها بذلك الكتاب الذى اسمه اللزوميات ؟ أيها الرجل العظيم ! انى أرثى لك واعطف عليك ، فقد حرمتك الأقدار من نعمة الجهاد فى سبيل الفضيلة ، حرمتك الأقدار من أسباب الشهوات فلم تكتب لك صفحة واحدة فى كتاب الجهاد

وكيف يحتاج الى جهاد النفس من يحبس نفسه فى بيته ولا يأكل غير البقول ؟

كيف يحتاج الى جهاد النفس من يقضى الدهر ولا تقع عينه على وجه جميل ؟

كيف يحتاج الى جهاد النفس من لا تذوق روحه صهباء الوجود ؟

أغلقت أبواب الجهاد الأكبر — جهاد النفس — فى وجه أبى العلاء ، منذ أصبح رهين المحبسين ومنذ اكتفى بالطعام الذى لايوقظ شهوات الحواس . ولكن بقى أمامه باب واحد من أبواب الجهاد : هو نزاهة الأذن ونزاهة اللسان ، فماذا صنع ؟

لقد أصبح أبو العلاء فى ذمة التاريخ ، وما يضره أن نتجنى عليه ، ولو كنت أعتقد انه يتأذى لحبست عنه قلمى ، وفى حدود هذا التحفظ اقول ان الرجل أقام اذنيه مقام عينيه فعرف من صور المجتمع كل شىء ، وكان له فيما افترض اصحاب ينقلون اليه سوءات الناس فيمضى فى ثلبهم وذمهم وتجريحهم بلا ترفق ، وكذلك حرم من روح التصوف فلم يعرف معنى العطف على مصائب الناس

قلت ان ابا العلاء كان ينتقم من المجتمع . واقول مرة ثانية ان ذلك دليل الحيوية . فمن الذى يحرم على هذا الرجل أن ينتقم من أهل عصره وقد آذوه أشنع ايذاء ؟

ومن الذى يملك من الصبر ما يكف به لسانه عن عورات الناس فى بعض الأحيان ؟

ان ابا العلاء هجم على المنافقين ، والقرآن استباح الهجوم على المنافقين ، وما يمكن أن نعيب على أبى العلاء ما استباحه القرآن . ان أبا العلاء هجم على رجال الدين ، ولا غرابة فى ذلك ، فرجال الدين أنفسهم يهجم بعضهم على بعض . ان أبا العلاء اعلن يأسه من الانسانية ، فهل استطاعت

الانسانية أن تحمى أهل الصدق والوفاء ؟ . ان أبا العلاء سخر من تعدد الديانات والمذاهب ، فهل استطاع المصلحون أن يمحوا أسباب الخلاف بين الديانات والمذاهب ؟

ان أبا العلاء جزم بأن بنى آدم : ما فيهم بر ولا صالح الا الى نفع له يجلب
فهل استطاع بنو آدم أن يقيموا الدليل على خطأ هذا الظن الاثيم ؟

ان أبا العلاء حكم بأن المرأة اذا شربت الكأس فقد تعرت ، فهل اكتسى من بعده النساء ؟ .

ان ابا العلاء حدثنا بأن ناسا ينهون عن الخمر فى الصباح ويشربونها فى المساء ، فهل انقرض هـذا النوع من النفاق البغيض ؟

أسرف أبو العلاء فى تجريح الانسانية ، وقد انصف ، فهذه الانسانية الباغية تحتاج الى من يفضح بغيها من حين الى حين . ومن هم بنو آدم حتى يعطف عليهم ابو العلاء ؟

هل عاش فيهم مصلح إلا بغصة أليمة لا يزحزحها فى حلقه غير الموت ؟

وهل كانت تواريخ الانبياء إلا سلسلة من الرزايا والنكبات ؟

وما الذى كان يصنع ابو العلاء والدنيا من حوله تضج بالظلم والعسف والزور والبهتان ؟

ان أشعار أبى العلاء سجل صحيح لأوهام الانسانية ، فلتكذبه الانسانية الباغية ان استطاعت

لم يعرف الناس أن أبا العلاء رجل ضرير ، وأن من كان فى مثل حاله خليق بالشفقة والعطف ، وهم تعقبوه بقالة السوء من أرض الى أرض ، فلتكن قالته فيهم وصمة باقية على الزمان . ولكن ما هذا الذى صنعت بالناس يا ابا العلاء ؟ ان عماك اخف من عماهم ، هم جميعا مساكين صحت فيهم كلمة من يقول : القاه فى اليم مكتوفا وقال له اياك اياك ان تبتل بالماء

أنت عبت النفاق على رجال الدين ، فكيف غاب عنك ان رجال الدين لم يعش بينهم رجل صريح ؟ انت عبت الظلم على الحكام ـ فكيف غاب عنك أن الحاكم العادل جزاؤه الخسران ؟

أنت أنكرت تعدد الديانات والمذاهب ! فكيف غاب عنك أن لله حكمة فى هذا التعدد ؟

أنت رجوت أن يكون الناس حكماء ، وما استطعت أن تكون حكيما

أنت رجوت أن يضبط الناس ألسنتهم ثم عجزت عن ضبط لسانك

أنت عشت فى قرية صغيرة ولم يسلم عقلك من الفتون ، فكيف رجوت السلامة لمن عاشوا فى كبريات المدائن ، وصارعوا فواتك الاهواء

أما بعد فانا اشهد أن المعرى كان رجلا عظيما ، بدليل أنه عاش نحو الف سنة على السنة الناس فى المشرقين والمغربين ، ولو كان حقيراً لمات يوم مات !

والمعرى له أخطاء لا تحتملها الملائكة ولا الشياطين . وله عندى عذر مقبول . فقد كان على عظمته شخصا من بنى آدم ، آدم المسكين الذى أغوته امرأة حمقاء فنزل الى الارض بعد أن كان يسكن فراديس الجنان . عفا الله عنك يا أبا العلاء وعفا عنى !

زكى مبارك

قرية المعري وقبره

للأستاذ سامي الكيالي

محرر مجلة الحديث بحلب

يا ماء دجلة ما أراك تلذ لي   شوقا كماء معرة النعمان

* * *

فيابرق ليس الكرخ داري وانما   رماني اليها الدهر منذ ليال

فهل فيك من ماء المعرة قطرة   تغيث بهـا ظمآن ليس بسال

من حنين ابي العلاء لوطنه

كثيراً ماتتميز المدن باسماء الموهوبين من الرجال ، شعراء كانوا أو قواداً أو أدباء أوفلاسفة . فلولا نابليون لما ذكرت جزيرة سنت هيلين مثلا ، تلك الصخرة الناتئة ، الجاثمة وسط الاوقيانوس والتي تبعد ستة آلاف ميل عن اوربا ، ولولا أبو العلاء لما ذكرت المعرة هذا الذكر الضخم الذي استفاض على اقلام الأدباء والشعراء والمؤرخين ، وهي ـ كقرية كبيرة ـ لا تختلف عن الكثير من تلك المعرات الضاربة في هذه البادية بين حلب وحماه وما اليها ، لا يميزها عن غيرها الا أنها مدينة هذا الفيلسوف الشاعر الذي خلد اسمه خلود الأجيال . وأذهب الى أبعد من هذا فأقول ان التصاق اسمه بها هو الذي جعل لها شهرة المدن الكبيرة سيما عند خاصة الأدباء والشعراء ، فما من رجل ، في الشرق وفي الغرب ، له مشاركة في الأدب ، ويعلم طرفا عن هـذا المفكر الفذ الا وتشوقه هذه البلدة ـ أو القرية على حد تسمية الكثيرين ـ ويود زيارتها حين تطأ قدماه بلاد الشام . فقد زارها كثيرون من أعلام الفكر وود طه حسين منذ عشرين سنة ونيفا ـ اي حين كتب رسالته « ذكرى أبي العلاء » ـ لو أتيحت له زيارة المعرة ليكتب عن هذه القرية عالما بها ، مستقصيا أمرها ، متأثراً بما توحي اليه من ذكرى أبي العلاء وأزهار علمه وفلسفته [1] . وردد لي هذه الأمنية سنة ١٩٢٦ حين زار مدينه حلب ممثلا « الجامعة المصرية » في مؤتمر الآثار الذي عقد في بيروت . ولكن اضطراب الامن في تلك المنطقة آنئذ ، حال دون تحقيق أمنيته ، ولم تكن أمنيته أن يمر بها مروراً سريعا بل أن يمكث فيهـا سنة أو اكثر من سنة لدراسة أبي العلاء من جديد، لأنه يرى ان كثيرا من آرائه التي دونها في كتاب « الذكرى » تحتاج الى تغيير وتحوير .

وقد تفضلت مجلة « الهلال » فخصتني بالكتابة عن قرية ابي العلاء وقبره . أما القبر فقد سبق أن

---

(١) تجديد ذكرى ابي العلاء ص ١٠٧

دعوت فى الصحف وفى مجلتي الى ضرورة العناية به عناية تتساوق ومجد أبي العلاء . ويسرني أن أقول إن هذه الصيحات التى رددها الكثير من الأدباء قد اثمرت بعض الثمر أو كله . وها هى « الجمهورية السورية » تشارك الأدباء والشعراء هذه الامنية الغالية . وسأعود الى تفصيل ذلك بعد أن أستوفى الكلام عن قرية الشاعر الحكيم

المعرة بلدة بنيت على نشز يتصل فى الغرب بالتلعات الصاعدة نحو جبل الزاوية ، وتحيط بها من بقية جهاتها أودية وسهول كانت فيما مضى مغارس للتين والزيتون والفستق واللوز ولم يبق من ذلك الا أثر ضئيل (١) . وقد وصفها المؤرخون وصفا دقيقا . ولم يهملها الرحالون الذين مروا بها . فهذا ناصر خسرو الرحالة الفارسى الذى مر بها عام ٤٣٨ هـ قد وصفها بقوله

« هى مدينة آهلة بالسكان كثيراً . ويحيط بها سور من حجر . وشاهدت بالقرب من هذه المدينة سارية من الحجر زبرت عليهـا كتابة بحروف ليست بعربية ، فسألت أحدهم عن ذلك فأجابنى ان هذا طلسم يحول دون العقارب ودخول المدينة والبقاء فيها » ثم قال « وأسواق المعرة طافحة بالارزاق والخيرات . وجامعها الاعظم مبنى على اكمة قامت وسط المدينة . ولا يزرع فى هذه الجهات الا الحنطة وتغل غلة حسنة . ويكثر فى قراها اشجار الزيتون والتين والفستق واللوز والكرمة . ومياه المعرة تجمع من المطر أو تمتاح من الآبار »

وذكرها ابن جبير فى القرن السادس فقال :

« وهى سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه . ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهى من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقا »

وقال ياقوت فى معجم البلدان بعد أن عرض الى ذكر كلمة المعرة واشتقاقها ودلالة هـذا اللفظ على شتى المعانى ، وبعد أن أورد عدة روايات عن سبب تسميتها بمعرة النعمان وصفها بقوله :

« معرة النعمان مدينة كبيرة قديمة مشهورة ، من اعمال حمص ، بين حلب وحماه . . . ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين »

وقال ابن بطوطة فى القرن الثامن سنة ٧٢٥ هـ « المعرة مدينة صغيرة ، أكثر شجرها الزيتون والفستق ، ومنها يحمل الى مصر والشام » ولا عجب أن يراها ابن بطوطة مدينة صغيرة وهو لم يترك بقعة من بقاع الأرض إلا ذرعها وكتب عنها . ولم يخرج شيخ الربوة والعزيزى وغيرهما من المؤرخين وكتاب السير عما قدمناه فكيف وصفها المحدثون الذين عرضوا لدراسة فيلسوفها ؟ »

لقد أورد الدكتور طه فى كتابه « ذكرى أبى العلاء » بعض نتف مما قاله ناصر خسرو وياقوت ثم اعتمد على المستشرق الفرنسى سلمون . ويظهر من نصوص كلامه انه زارها فى رحلة

(١) جولة أثرية فى بعض البلاد الشامية للمهندس الزراعى احمد وصفى زكريا ص ١٨٤

لا نعلم متى كانت . فقد وصف سفره من حماه ، محاذيا نهر العاصى ، عابراً الجسر الذى أقامه بنو منقذ ، فمدينة أفاميه الأثرية ، فجبل الأربعين الذى تطل هضباته على المعرة « تلك المدينة الجميلة القائمة فى منخفض هذا السهل الفسيح » . وينتهى عند هذه الجملة « ولقد تدل الاطلال المنتشرة فى السهل حول هذه القرية على أنها كانت مدينة كبيرة فى عصرها القديم ، بذلك يشهد مسجدها الذى تظلله قبة ضخمة على ثمانى أساطين » (١)

ويطول بنا المجال لو أخذنا نستعرض أقوال الثقاة والمؤرخين الذين ذكروها ، قديما وحديثا ، فحسبنا ما قدمناه على أن نحقق هذا الذى ذكروه بزيارة نقوم بها الى المعرة ـ وليست هى الأولى ، فقد زرناها قبل هذه المرة مرات

على بعد ثمانين كيلو مترا من حلب الى الغرب فالجنوب ، وفى طريق جميل معبد بالزفت تجتازه السيارة بكثير من الراحة ، وبعد ان تمر بعدة دساكر وقرى انتثرت هنا وهناك ، وسهول فاتنة زهت بمفاتن الطبيعة وخضرة الربيع ، تطل عليك المعرة بمنارتها الشامخة ، وأبنيتها القديمة ، وكرومها الهادئة ، وبساتينها الباسمة الغناء . ويشعر زائر المعرة حين يهبطها بنشوة الفرح للحفاوة التى يلقاه بها أهلوها الذين يفاخرون غيرهم بأن أرضها كانت ولا تزال مثوى لأكبر مفكرى العرب قاطبة . ويلاحظ أولا ان المعرة منذ مر بها ناصر خسرو حتى يومنا هذا هى هى ، الا فى تفاريق من الوصف غاية فى الايجاز ، فلا تزال أرضها من أخصب الأراضى لزراعة القمح وشتى أنواع الحبوب ، ولا يزال ماؤها يجمع من المطر أو يمتاح من الآبار ، ولا يزال سوقها الطافح بالأرزاق والخيرات صباحاً حتى إذا قارب الظهر نفد كل شىء وجمدت حركة الأخذ والعطاء (٢) ، وجامعها الكبير هو هو ، قد انبسط فى قلب البلد تنحدر اليه فى عشر درجات فاذا أنت فى ساحة واسعة أو ما يعرف بـ « صحن الجامع » توسطه حوض ماء بسقفه وأعمدته البيزنطية ، فمأذنة قائمة فى مدخل الجامع من اليسار ، يبلغ ارتفاعها ثلاثين مترا تقريبا ، مربعة الاضلاع ، نقشت عليها كتابات مختلفة

والمعرة ، ككل البلدان الصغيرة ، قد احتوت الجوامع والحمامات والخانات والمطاحن والمعاصر وهى ، على حد تشبيه البعض « صورة مصغرة من مدينة حلب » (٣) ووقوع المعرة على محاذاة طريق حلب ـ دمشق ـ بيروت ، يجعلها دائما محط الكثير من المسافرين يقصدونها إما للراحة من وعثاء السفر أو لزيارة ضريح أبى العلاء ، أو للأمرين معا . والسيارة التى قربت المسافات البعيدة قد جعلت حتى المدن الصغيرة تعمل جهدها على أخذ طابع المدن الكبيرة . وهذا ما تحاوله

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٠٧ (٢) من الامثال العامية التى يرددها القرويون حين لا يجدون حاجتهم فى سوق ما ، قولهم « كسوق المعرة لا بياع ولا شرى » (٣) جولة أثرية ص ١٨٤

للمعرة التى افتتح فيها شارع كبير يخترق المدينة من مدخلها محاذيا السراى الجديدة حتى ضريح أبى العلاء . وقد سمى هــذا الشارع الذى تقام على جانبيه بعض الابنية الحديثة باسمه ، ويزيد فى جمال المدينة ــ رغم قدمها ــ أنها واقعة فى مرتفع من الارض المحاطة بالسهول والـكروم وبعض البساتين . وهى لا تزال غنية بكروم التين والعنب كما كانت منذ الف عام . وثمة بساتين أنشأت حديثا تضم أشجار التوت والجوز والمشمش ، فأغراس من الخوخ والدراق . وأما الفستق الذى تحدث عنه ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة فلا أثر له فيها . وان كان بعض المزارعين يحاول الآن غرسه فى بعض المناطق الحوارية التى تشابه تربتها تربة حلب تقريبا

وقد حرصت ، وأنا فى المعرة ، على أن أحقق هذا الذى ذكره المؤرخون القدماء عن السور الصخرى الذى كان يحيط البلد ، وعن السارية التى نقشت عليها الـكتابة العربية والتى تذود العقارب عن المدينة فلم أجد لهما أى أثر . ولا وجدت من شيوخها القدماء من يحفظ أسطورة السارية . وأما السور فلا يبعد أن يكون على عهد ناصر خسرو أو بعده وأن يكون قد تهدم بعد غارة الصليبيين على المعرة ــ تلك الغارة التى انتهت سنة ١٠٩٩ م بفتح المدينة وتدميرها . ومما لا ريب فيه أن المدينة كانت مسورة ، وكانت لها أبوابها السبعة لتتقى بها هجمات الغازين الذين اجتاحوها أكثر من مرة . واحاطة المدن بالاسوار والأبواب هو طابع كافة المدن فى العصور القديمة . ولـكن هل حماها سورها الصخرى وأبوابها السبعة من صولات الغزاة والمغيرين ؟ اللهم لا . فمنذ حطم عبد الله بن طاهر أسوار المعرة حين أرسله المأمون لتأديب نصر بن شبث العقيلى الذى غضب لقتل الأمين ، الى الغزوة الرومانية الـكبرى التى أثارها القائد البيزنطى نيسفور فوكاس الذى اشتبك بحروب طاحنة مع سيف الدولة ، الى غارات السلجوقيين ، الى هجمات الصليبيين ، عدا الغزوات والفتن الداخلية التى أثارها القرامطة وبنو كلاب ــ ان جميع هذه الغارات والحروب التى استهدفت لها سورية قد اجتاحت فى طريقها مدينة أبى العلاء فتعرضت أكثر من مرة للنهب والسلب ، وللتخريب والتهديم ، وللحرق أحيانا . ولا عجب بعد ما مر بها كل ذلك أن يذهب الـكثير من المعالم التي تحيط بها من الخارج كالابواب والأسوار

وقد آد هذه المدينة ما نزل بها على مر العصور فوصف هذه النكبات الـكثير من الشعراء ومنهم شاعر مغمور الاسم لعله من شعراء المعرة قال :

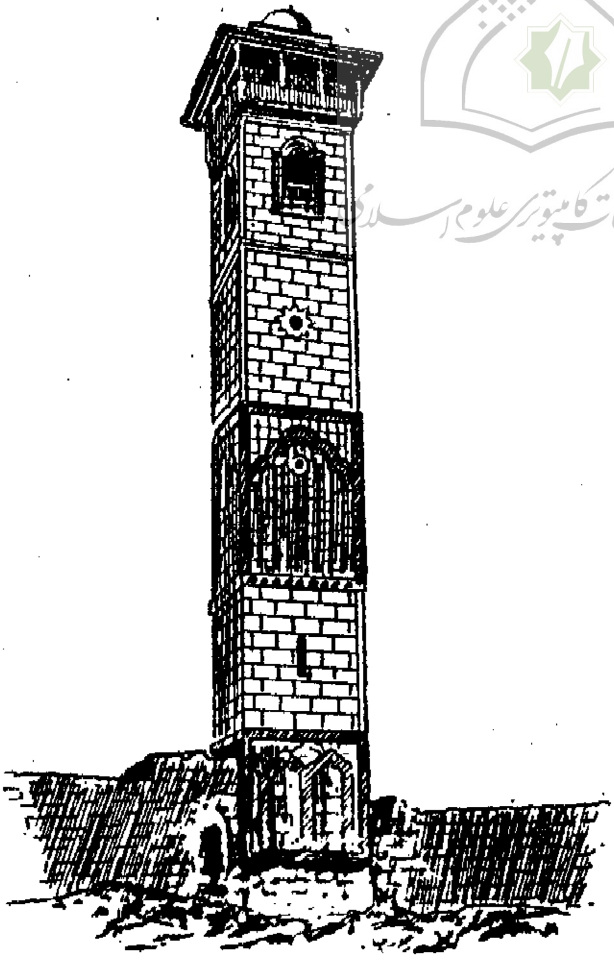
هذه صاح بلدة قد قضى الله عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفة وابك من كان من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوماً اليها فهى كانت منازل الاحباب

هذا الماع سريع عن ماضى المعرة وحاضرها ــ هذه البلدة التى تصطبغ بصبغة المدن والتى يتكاثر عدد نفوسها يوما عن يوم . فقد قدر نفوسها بعض المؤرخين المعاصرين بستة آلاف نسمة

وهى اليوم تسعة آلاف ، وهى آخذة فى الازدياد . ولا أعلم كيف أفسر رواية صاحب « النجوم الزاهرة » ـ وهو من ثقاة المؤرخين ـ حين عرض الى تاريخ الحروب الصليبية وتوغل الافرنج فى المدن الشامية سنة ٤٩٠ ـ ٤٩١ هـ فقد ذكر ان الافرنج لما اجتاحوا المعرة كانت ١٠٠ الف نسمة ، قال : « وجاءوا الى المعرة فنصبوا عليها السلالم ـ وهذا يدل على أنها كانت الى ذلك العهد مسورة ـ فنزلوا اليها ـ فقتلوا من أهلها مائة الف انسان » (١) فما سبب هذا التقلص ؟ أهو ثمرة الويلات التى اجتاحتها فى الماضى ؟ . . أم ان التقدير لم يكن صحيحا ، وهذا ما نميل اليه . . ام أن العربان التى كانت محيطة بجهات المعرة قد احتمت بالمدينة ؟ وهذا أقرب شىء لانقاذ رواية صاحب النجوم الزاهرة من التجريح !..

ونقف عند هذا الحد لنتحدث قليلا عن المسجد الذي يحوى الضريح . وفى رواية أنه ليس مسجدا بل بيتا . ومهما كان فقد أصبح هـذا البيت من الأمكنة الاثرية التى نحرص على عدم مس معالمه مهما عملنا على اقامة ضريح فخم يليق بمكانة صاحبه

دخلنا الدار ، وهى دار صغيرة ذات ثلاث غرف ، احداها قـد اتخذها شيخ ضرير لتعليم أولاد القرية القرآن الكريم على طريقة الكتاتيب . لم نكد نقرئه التحية ونعلمه رغبتنا بزيارة الضريح حتى فتح لنا الغرفة التى تحتـوى جثمان شيخ المعرة وفيلسوفها الفذ . وهى غرفة معتمة ضيقة لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار وعرضها على مترين . قـد خلت من كل زينـة وزخرف اللهم إلا من هذه الكلمات التى خطها الزائرون على جدرانها . نثراً وشعراً ـ وكلها إجلال لصاحب الضريح ـ ومن قبر وشاهدتين مكسورتين قد استندت احداهما على حافة فرشة القبر والاخرى على الجدار . وأما الضريح فقد استوى على فرشة حجرية مخرومة من النصف . فشاهدة واحـدة نقش عليها بالكوفية



منارة ضريح المعرى

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦



ضريح أبي العلاء

هذه الكلمات « ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان » وتتحدث هذه الشاهدة بقدمها عن خاليات العصور ، وقد تساءلت أين هي وصيته التي حرص على ان تنقش على قبره :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد ؟

أترى كان هذا البيت من الشعر على الشاهدة الثانية فاقتلعها خصومه الذين حكموا عليه بالكفر والزندقة ؟ على ان بعض المؤرخين المعاصرين يذهب الى ان الشاهدة الثانية تضم هذين البيتين :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نفيسة صاغها الرحمن من شرف

عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

ولا اميل الى هذا الرأى ، والبيتان المذكوران مكتوبان على قطعة من الورق معلقة على الجدار

اما الغرفة الثالثه فهى مهجورة لم تنل من اهتمامنا ، وفى رواية انها تضم جسد خادمه

زائر هذا البيت لا بد له من ذكر « البانتيون » والمقارنة بين قبور عظمائهم وقبور عظمائنا وان كانت المقارنة مفقودة بين قبر أبي العلاء وقبر فولتير مثلا . فهناك الجلال والروعة والفن والزخرف ، وهنا الزراية والبساطة والزهد والتقشف . وتجرنا هذه الحالة الى الحديث عن العناية بالقبر ، وها انا ذا أحدث قراء « الهلال » عن الادوار التي مرت بهذه القضية

فكرة إشادة ضريح لأبي العلاء نبتت قبل الحرب العامة . قام بها بعض الغيورين على مثل هذه

الامور ، وقد جمع قسم من المال ثم طويت الفكرة . ولا أحد يعرف ما تم بالمال ؟ ولا شك ان الذى اؤتمن عليه أراد ان لا يخيب نظرية أبى العلاء فى البشر !

ثم أعيد البحث فى هذه القضية سنة ١٩٢٥ وأخذت الحكومة السورية المشروع على عاتقها . وبالفعل أدرج المال اللازم فى موازنة الدولة ، ثم نشبت الثورة السورية وأصبح البحث فى مثل هذه المشاريع كتفريط في حق من حقوق الوطن ! . .

وحينما استقرت الأمور السياسية أثار المشروع مجدداً أحد النواب فى دورة سنة ١٩٣٣ ، واقترح طبع مجموعة من الطوابع باسم أبى العلاء المعرى فى عهد أول جمهورية سورية ، على ان الاقتراح لم يقبل وهلة واحدة . فقد وجد من عززه ووجد من حاول قذفه ،وعملت الحكومة كل الوسائل لتسويفه وتأجيل البت فيه فلم يتراجع النواب وهاجموها مهاجمة عنيفة مما جعلها أن تتراجع وتقول بلسان وزير المعارف « ان الحكومة لا تقول بعدم تشييد ضريح لأبى العلاء ، بل انها ساعية لتشييده بما يمكن من السرعة » فوقف نائب المعرة وجابه الوزير بهذه الكلمات : « وقول الحكومة انها تفكر في الامر معناه انها لا تريد أن تعمل شيئا » . ثم وقف مقدم الاقتراح وجرت بينه وبين مقرر اللجنة المالية مناقشات طويلة ، وكانت بينهما خصومة سياسية عنيفة — وخاطبه أو خاطب الحكومة بهذه اللهجة الحادة : « ما هي قيمة جمهوريتكم أمام أبى العلاء ؟ ان ذكرى أبى العلاء أعظم من كل جمهورية تنشئونها » . وانتهت المناقشة بتراجع الحكومة وباقرار الاقتراح ، وفتح اعتماد بثمانية آلاف ليرة سورية لتشييد الضريح . وصدرت الطوابع سنة ١٩٣٤ . وبيعت فى شهور معدودة . ولا يزال المبلغ مرصوداً فى خزانة الدولة لهذه الغاية

وشاءت الاقدار أن لا يتم المشروع أيضا ! فقد عصفت بسورية الأحداث وصرفتها عن التفكير بمثل هذه المشاريع . وها هى بعد خمس سنوات ، أى بعد أن استقرت الامور ودخلت الجمهورية السورية فى دورها الانشائي الجديد تعاود الحكومة بحث الفكرة بكثير من الاهتمام . فقد ناطت وزارة المعارف بأحد كبار رجال الفن الافرنسيين عمل تصميم القبر وهو يشتغل به منذ سنة وصدر مرسوم جمهورى بشراء بعض الدور التى تحجب موقع الضريح عن الطريق العام . وقد لا ينقضي هذا العام إلا ويوضع الحجر الاساسى لاشادة البناء ، ثم يقام فى المعرة وفى كافة المدن السورية مهرجانات أدبية كبرى للحفاوة بذكراه الألفية، أى بذكرى أكبر أديب عربى لم تحل عزلته فى قريته الوادعة دون أن يكتب أخلد الآراء وأدق التأملات الفلسفية فى أكثر من ستين كتابا لم يصلنا منها غير كتب معدودة تدل بنزعتها التحريرية الجريئة على انه أكبر فيلسوف عرض النفس البشرية والطباع الانسانية فى بوتقة صافية من التحليل الممزوج بالرفق والقسوة مما لا يستطيع أن يجاريه فيه أحد . وحق له أن يخلد على الأزمان ، وأن تعتبره العربية من أكبر أدبائها العالميين

سامى الكيالى

حول احياء ذكرى أبى العلاء

بقلم الاستاذ محمد أمين حسونة

فى صيف سنة ١٩٢٥ سافر الدكتور طه حسين بك مندوبا عن الجامعة المصرية لتمثيلها فى فى مؤتمر الآثار الذى عقد فى بيروت ، وانتهز هذه الفرصة فزار حلب ومنها قصد الى معرة النعمان ليحج الى ضريح الفيلسوف الذى خلد اسمه فى رسالته « ذكرى أبى العلاء »

وما انتهى المؤتمر وعاد الدكتور طه الى مصر حتى أخذت هذه الفكرة تطوف بذهنه ، وسعى من ناحية أخرى الى تأليف جماعة أطلق عليها اسم « جماعة أصدقاء أبى العلاء » تضم صفوة من رجال الفكر والأدب وتباشر الاكتتاب لاعادة بناء ضريح أبى العلاء ، وقبل معالى الاستاذ لطفى باشا السيد أن يرأس الجماعة ، واقترح أن تشترك الجامعة المصرية فى إحياء ذكرى أبى العلاء ، وذكر الدكتور طه أن الجماعة اذا لم توفق الى تشييد الضريح فانها سوف تعمل جهد الطاقة على نشر مؤلفاته نشراً دقيقا ، خصوصا فلسفته فى « اللزوميات » وفنه فى « سقط الزند » و « رسالة الغفران » وموضوعات رسائله التى لاتزال غامضة أشد الغموض

وزار الضريح فريق من المفكرين وعلماء المشرقيات وفى مقدمتهم المستشرق ماسينيون الذى أسف للحالة المزرية التى وجده عليها وود لو كان فى وسعه أن ينقل رفاته الى « البانتيون » فى باريس ليرقد الى جوار زملائه من جبابرة الفكر الانسانى ، وما أن عاد الى باريس فى شتاء عام ١٩٢٨ حتى ألقى محاضرة نفيسه عن أبى العلاء وقبره فى جمعية نشر الثقافة العربية وأهاب بالمستمعين — وجلهم من أهل العلم والأدب — أن يبادروا بانقاذ ضريح أبى العلاء من يد الدهر والاهمال

وكان الاستاذ الجليل احمد امين أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر قد زار حلب فى صيف سنة ١٩٣٠ فى رحلة علميه قوامها بعض أساتذة الجامعة وطلابها ، وانتهزوا فرصة تجوالهم فى الشام فعرجوا على معرة النعمان لزيارة ضريح المعرى ، وقد أخذت الدهشة مأخذها منهم حينما ألفوا انفسهم أمام هذا الضريح المتهالك المتهدم الذى يضم رفات أكبر مفكر عربى

ووجه الصحفى المصرى الاستاذ محمود عزمى نداء على صفحات السياسة الأسبوعية دعا فيها أدباء العربية الى العناية بآثار المعرى ، ثم كتب سلسلة مقالات ضافية عن ضريحه وأهاب بالعالم العربى أن يعمل على انقاذ قبر أبى العلاء ، مثوى عظمة الفكر العربى وجلال الادب العربى

وكانت لمقالات الاستاذ محمود عزمى صدى تجاوبته انحاء العالم العربى وردد بعض الصحفيين السوريين دعوته على صفحات صحفهم وفى مقدمتهم الاستاذ سامى الكيالى صاحب مجلة الحديث

الغراء التى تصدر بحلب . وتولت جماعة الرابطة الشرقية الاهتمام بتنظيم حركة ترمي الى العناية بالضريح ، وقرر مجلس ادارتها فى نوفمبر سنة ١٩٢٨ تأليف لجنة تعنى بصيانة قبر أبي العلاء وعلى رأسها معالى الاستاذ احمد باشا لطفى السيد ومن أركانها الشعراء الثلاثة شوقي وحافظ ومطران ثم الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق

ولم تذهب صيحات الاستاذ محمود عزمى مع الرياح فقد هزت الأريحية تاجر أديب أصله من حلب ، فوجه كتابا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ الى استاذه الشيخ كامل الغزى رئيس لجنة الآثار العربية فى حلب ورئيس تحرير مجلة العاديات ، يعرض عليه ضرورة تجديد ما تهدم من ضريح أبى العلاء ، أو اعادة بنائه بما يتفق مع عصر المعرى ومكانته فى العالم العربى ، ويعلن رغبته فى دفع نفقات البناء من ماله الخاص مهما بلغت ، على أن يعهد الى من فيه الكفاءة من المهندسين لوضع تصميم الضريح وبيان النفقات . ومما يؤسف له غاية الأسف أن كتاب هذا الثرى ظل محفوظا نحو خمسة شهور بدون جواب الى أن عرض الموضوع على لجنة الآثار فحبذ أعضاؤه الفكرة ، ثم نامت الى أجل غير مسمى

والآن بعد مضى نحو عشر سنوات على الموضوع أراد صفوة من أدباء الشباب فى المعرة أن يحققوا الفكرة عمليا وأن يربطوا بين بناء الضريح الذى تبرع البرلمان السورى بعشرة آلاف ليرة لاعادة بنائه ، وبين إقامة مهرجان الفى للشاعر الفيلسوف فى جميع مدن سوريا ، ورأت هذه الصفوة المفكرة أن تدعو نخبة من الادباء الى عقد مؤتمر تمهيدى فى بلدة أبى العلاء

بيد أن أشد ما نخشى منه أن تطوى هذه الفكرة كما طويت مشروعات سبقتها فيحرم ضريح هذا الفيلسوف من أن يحاط بكل مظاهر التجلة والاحترام ويندثر ما تبقى منه مع الايام

محمد امين حسونة

ابو العلاء المعرى

من قصيدة للاستاذ احمد محرم

ثقة الدهور وحجة الازمان خذ من بيانك ذمة لبياني
أعيي القريض فان بلغتك خانني قلبي ، وعي عن المقال لساني
تبني العقول، وترفع الايدى، وما يسطيع شأوك رافع أو بان
اكبرت رزء العقل حين رأيته رهن العمى ، وغضبت للانسان
تجري الامور وليس يعلم كنهها وهو المراد بهذه الاكوان
ويقاد أعمى فى الحياة وبعدها ، والدين والدنيا له عينان
كل له ذكرى ، وكل عبرة تجلو اليقين وصادق الايمان
فلئن حجبت عن الغيوب فانها لله ذى الجبروت والسلطان
أعلى لك الغرفات يوم لقيته وحباك ما تبغى من الرضوان
فرأيت منزلة العليم وأجره وحمدت عقبى العلم والعرفان
شغفت بك الدنيا تريدك وامقا وشغفت بالأعراض والهجران
تجلو زخارفها فتغمض دونها عين الحكيم ، وتنثنى بأمان
فتنت محاسنها العقول ، ولم تزل فى حيرة من عقلك الفتان
صارمتها وكشفت عن سوآتها ليفيق مختبل ويقصر عان
وصددت عن صلف الملوك وكبرهم متعاليا عن ذلة وهوان
أغناك عن آلائهم وهباتهم أنف الشريف وعفة المتغاني
أوتيت من أخلاق ربك رحمة لم يؤتها بشر ، وفرط حنان
أشفقت من وطء التراب على الألى غال التراب ، وكل حى فان
يمشى الفتى يختال فوق رفاتهم جذلان فعل الشارب النشوان
الجو أرواح تفيض وأنفس والارض من رمم ومن اكفان
عفت الاذى ونهيت عن مكروهه وأمرت بالمعروف والاحسان
ورحمت حتى الوحش فى فلواتها وحميت حتى الطير فى الاوكان
ورثيت للشاكين من بلوائهم فحملت ما حملوا من الاحزان
ومسحت دمع النائحات معزيا فكففن عن نوح وعن إرنان
ونسين من هول الفجائع ما مضى وسلون بعد تعذر السلوان
شرع بعثت به ، ودين لم تقم فيه لغير الواحد الديان
بوركت فى دين المسيح وأحمد ومدحت فى الانجيل والقرآن

احمد محرم

مكانة المعرى فى الشعر العالمى

بقلم الاستاذ خليل مطران

أخرج المعرى للناس من وحي فكره الحر آيات بينات ، ولكن لاسبيل الى المقارنة بينه وبين شعراء الغرب ، فهم قد ألفوا فى قصائدهم وحدة الغرض وهو لم يألفها ، على أن مراميه الموزعة فى أبياته تنم عن تفوق فى الفكر وان كان دونه قليلا تفوقه فى صناعة الشعر

إذا كان ميسوراً أن تفرد للمعرى مكانة بين شعراء العرب لامكان المقارنة بينه وبينهم ، فلا سبيل الى المقارنة بينه وبين شعراء الفرنجة . وإذا كان فى الواقع قد أحرز شهرة عالمية بما ترجم من أقواله الى لغات مختلفة ، فمن المحقق بجانب ذلك أن ليس للمعرى مكانة فى الشعر العالمى يستطاع تحديدها

ذلك أن الأجانب لم يوفقوا الى ترجمة كثير ولا قليل من روائع القريض الذى تعتز به لغة الضاد ، إذ أنه متى جرد من مشرق لفظه وموثق المعنى المرتبط لزاما بذلك اللفظ ، وقفوا تجاهه حيارى لا يفقهون له غرضا على النحو الذى ألفوه . أما منظومات المعرى فقد استطاعوا ترجمة مأثورات منها لأن فى نوع معانيها ما يفعل فعله فى نفوسهم وان عريت من روعة مبانيها . وليس الذى نقلوه عنه الا نتفا ، وأكثر شيوعه انما هو فى بيئات العلم والفلسفة

كان المعرى ذكي الفؤاد ، نفاذ البصيرة ، قوى الذاكرة ، متضلعا من اللغة مستظهراً من أصولها وفروعها وشواردها وأوابدها مالا تضمه دفتا معجم

وكان فياض القريحة فى نثره وشعره ، وانما غلبت عليه فى نثره وشعره نزعته الى اللفظ الغريب والأسلوب الفخم . وقد يخيل الى العارف بمقدرته البيانية وسخاء قريحته أنه لو استخدم هاتين القوتين للتعبير عن الأغراض التى وقف عليها الشعر والنثر قبله ، لجاء الى جانب المتفوقين من الفحول الذين تقدموه بالزمن أو عاصروه ، إلا أن محاكاة أبى العلاء لأولئك كانت مستحيلة عليه لعلة أصيب بها وتأصلت فيه منذ طفولته

يرزأ المعرى بصره فى الرابعة من سنه ، فهو بعد ذلك اليوم مغضب على الحياة محنق ، يعتاض من نور الشمس التى فقدها ، نور العلم الذى انصرف اليه واشتغل به عما سواه ، فهو به أصدق نظراً فى الدنيا وأجرأ على أهلها . فاتته منها ملاهيها وزيناتها ومحاسنها ومباهجها وهى الأعراض

التي يخفي تحتها جوهر الحقيقة ، فلم يعج بتلك الأعراض ومضى ممعنا في طلب الحقيقة . فهو بحكم حالته إذا انصرف إلى الأدب لم تعطه منه قريحته سوى ما يلائم تلك الحالة . ويتأنى له من ثم ان يكون كاتبا لا كسائر الكتاب ، وأن يكون شاعراً لا كسائر الشعراء ، إذ أن الدنيا لا تتمثل له الا في صورة « أم دفر » أي أم المصائب والرزايا والجهالات والمتاعب ، فيوسعها ذما وسخراً ولا يكاد يستصلح شيئا من خلائق أهليها ، على أنه مع هذا لايفتأ يدعو إلى الرحمة لأنه تألم ويفهم الألم

فلئن خلا كلام أبي العلاء من السوانح المرقصة والاحاسيس اللطيفة التي استحبها الناس في أولئك المتقدمين ، لقد رزق من الطلاقة في الفكر والجرأة على البحث في العلل والمعلولات ، ما لم يلبث أن وجهه الوجهة التي اختص بها ونبغ فيها وبلغ ما لم يبلغه سواه في بني قومه من قبله ولا من بعده

ولما كان هذا المقال مقصوراً على شعره فسيرى مطالعه الوجه الذي أشرت اليه من أمر المعرى فيما يختص بمنظوماته

في ديواني سقط الزند وضوء السقط قصائد متينة المعاني رصينة القوافي ، تمر منها بالقصيدة تلو الأخرى كما تمر بالبناء المتراص ذي العقود القائمة ، ولا تجد فيها من الزخارف والزينات شيئا يغصب الاعجاب كما يقع لك حين تقرأ قصائد لأبي تمام أو للبحتري . ولا يروعك فيها من الحكم المسوقة بعد تمهيد بارع وفي ثوب لامع مثل ما يروعك في شعر المتنبي الذي كان المعرى أحد شراحه

فهو في ديوانيه هذين شاعر متصرف صحيح الأسباب متين الأوتاد ، ولكنه في ديوانه الثالث الذي أسماه « لزوم ما لا يلزم » سمت به سليقته الى رتبة العبقرية لا يدافع فيها ولا ينازع . وههنا مبعث شهرته العالمية ومجده الخالد

لم يكن المعرى بفطرته الوعرة وما يشعر به من التفوق بعلمه وسلامة حكمه على جمهرة الناس من أولئك الذين يخدعون أنفسهم بأن لهم الصدر بين شعراء الخيال ، وهو خليق بأن يتنحى لهم عنه ، فرجع بالشعر الى الناحية التي يستطيع حقا أن ينفرد بها . ولدى هذه العودة اجتمع فيه متناقضان عجيبان

أخذ ينظم لزوم مالا يلزم . أي أنه أخذ يكلف نفسه في قرض القريض عنتا لم يكن له من تأويل سوى اعتزامه أن يثبت لنفسه اقتداراً على التصرف في اللغة ليس مما يتغالى في مثله الشعراء المجيدون عادة ولا هو مما يأبهون له

ولكنه ماذا فعل وهو يتقيد بتلك القيود الثقيلة المضاعفة ؟ أخرج للناس من وحي فكره الحر، ومن جنى خبرته الأليمة ، ومن معالجته بعض المذاهب الاجتماعية آيات بينات ، نقلته فوراً في الاذهان من محله الحير في مصف شعراء الخيال الى مكانة الشاعر الفيلسوف المنفرد . على أنه حين طفق يكاشف الناس باستدراكاته الملطفة أو اللاذعة على ما ألفوه وقدسوه من غير أن يعرفوه

عرفان المتحرين المفكرين ، لم يسترسل استرسال المتهور فى تقويضه لبعض القواعد الأساسية الكبرى مما دانوا به ، بل تولى ذلك التقويض بوسيلتى النقد والسخرية مع الاحتراس بجانب ذلك والرجوع الى الله اطراداً والى الدين أحيانا ، كأنه بما قال كان ذائداً عنهما من الجهالات الشائعة

فأمر هذا المتقيد الحر كما ترى كان عجبا عجابا ولا سيما فى زمنه . لم يسعه ــ خصوصا وهو رهين المحبسين ــ أن يعبر عما يخالج صدره من أمور الاديان بطريقة متسلسلة وفى مقالات مفصلة الحجج متصلة ، فاستعار الشعر وبدواته للافصاح عما يجيش به صدره فى مقطوعات او فى أبيات منفردة يدمجها آنا بعد آن بين معان أخرى ، ويحتال بمداورات شتى للاعتذار عنها ، أو ليدرأ عن نفسه الشبهات السيئة التى كان يخشى أن تثيرها فى أذهان مخالفيه . على أنه لم يكن كذلك شأنه فى بث أفكاره الاجتماعية فالذى يقوله فيها يباشر به مراميه ولا يحارف ولايداوى بوسيلة ماجرح بحيله

فلنأت الآن من شعر المعرى بالشواهد التى ترينا لباب أمره فى فلسفته

كان للمعرى آراء اجتماعية وآراء دينية وكلها جرىء فى ذلك الوقت وكلها مدعاة لبحث دقيق وتفكير عميق ، على أنى لا أحصيها فى هذا المقال الموجز ولكننى أمر بأهمها من غير اطالة فى البيان

فأما الآراء الاجتماعية فمنها الايثار وهو أشرفها

ورد القوم بعد ما بات كعب وارتوى بالنمير وفد ظماء
كيف لا يشرك المضيقين فى النعـــمة قوم عليهم النعماء

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

ومن يعدم أخوه على غناه فما أدى الحقيقة فى الاخاء

ولا تجتنبى الاحسان ضنا إذا ما كان نجرك غير نجرى

ومنها نهيه عن أكل الحيوان تغاليا منه فى البر والرحمة ، وتحت ذلك دعوة مستترة الى السلام بين الناس ، إذ كان يكره البغاة والسفاكين للدماء على ما سترى فيما يلى :

يكفيك ادما سليط ما أريق له دم ولا مس روحا اذ جرى ألم

لو كان يدرى اويس ما جنت يده لاختار دون مغار الثلة العدما
فان من أقبح الاشياء يفعله شاكى المجاعة يوما أن يريق دما

أخفّت حلوم الناس أم كان من مضى من القوم جهالا خفاف حلوم

فلا تأسفن الشاة ان أدنى ابنها لشفرة عات فى الرجال ظلوم

لا تحدث القطع فى كف ولا قدم ولا تعرض مدى الدنيا لسفك دم

ومنها حملته على الزواج بترغيبه الناس عنه وتزهيدهم فيه . الا ان تكون الزوج عقيما لأنه يضن بالأولاد على شقاء هذه الدنيا

على الولد يجنى والد ولو انهم ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعدا من بنيك وزادهم عليك حقوداً أنهم نجباء

جنى ابن ستين على نفسه بالولد الحادث ما لا يجب

وواحدة كفتك فلا تجاوز الى أخرى تجيء بمؤلمات

فان انت لم تملك وشيكا فراقها فعف ولا تنكح عوانا ولا بكراً
والقالك فيها والداك فلا تضع بها ولدا يلقى الشدائد والنكرا

أرى النسل ذنبا للفتى لا يقاله فلا تنكحن الدهر غير عقيم

ألا تفكرت قبل النسل فى زمن به حللت فتدرى أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا وما علمت بأن العيش يشقيه

هـذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

ومسك الوصاة فى هذا الباب أنه لا يتورع من فناء الدنيا بمن عليها لينتهى بفنائها الشقاء

لو أن كل نفوس الناس رائية كرأى نفس تناءت عن خزاياها
لعطلوا هـذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ومنها سوء ظنه بالنساء ونهيه عن تعليمهن لمن يتخذ منهن أزواجا

ولو صلّت بمنزلها وصامت لألفت ما تحاوله لديها
ولكن جاءت الجمرات ترمى وأبصار الغواة الى يديها
وليس محمد فيما أتتـه ولا الله القدير بمحمديها
اذا ما رامت الصلوات خود فكن البيت أفضل مسجديها

علموهن الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءه

فصلاة الفتاة بالحمد والاخلاص تجزى عن يونس وبراءه
تهتك الستر بالجلوس أمام الستـــــران غنت القيان وراءه

ولا تحمد حسانك ان توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آيا محكمات

ومنها كرهه للرياء وخصوصا من الصوام القوام

قد حجب النور والضياء وانما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا ان مصليك أتقياء
لا يكذبن امرؤ جهول ما فيك لله أولياء

يقولون هلا تشهد الجمع التى رجونا بها عفواً من الله أو قربا
وهل لى خير فى الحضور وانما أزاحم من اخيارهم ابلا جربا

توهمت يا مغرور انك دين على يمين الله مالك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكا ويشكوك جار بائس وحزين

أما آراؤه الدينية ، فمع رسوخ عقيدته فى الله تتبين من اشتداده فى وصف كل ما اعتقده مخالفا للعقل أو متمشياً مع الأوهام

بعلم الهى يوجد الضعف شيمتى فلست مطيقا للغدو ولا المسرى
أأصبح فى الدنيا كما هو عالم وادخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

اذا تم فيها تؤنس العين مضجعى فزدنى هداك الله من سعة شبرا
وان سألوا عن مذهبى فهو خشية من الله لا طوقا ابت ولا جبرا

يسمى غوى من يخالف كافرا له الويل أى الناس خال من الكفر
حصلنا على التمويه فارتاب بعضنا ببعض فعند العين ريب من الشفر

وليس الذى قال اليهودى ثابتا سوى انه بالخط اثبت فى السفر

دين وكفر وأنبـــاء تقص وفرقا ن ينص وتوراة وانجيل

في كل جيل أباطيل يدان بها   فهل تفرد يوما بالهدى جيل
ومن أتاه سجل السعد عن قدر   عال فليس له بالخلد تسجيل

قلتم لنا خالق حكيم   قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان   ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء   معناه ليست لنا عقول

وكيف للجسم أن يدعى الى رغد   من بعد ما رم في الغبراء أو ازلا

يتلون اسفارهم والحق يخبرني   بأن آخرها مين وأولها
وصاحب الشرع كان القدس قبلته   صلى اليها زمانا ثم حولها

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت   ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا   دين وآخر دين لا عقل له

أخلت عمود الدين في الارض ثابتا   وفي كل يوم يضمحل على مهل

أوجال نفسي في الاولى مضاعفة   ولا ازال من الاخرى على وجل

الله عالم غيب لا أحاوله   من ذي نجوم ولا أبغيه في الكهن

كم ظلم الأقوام أمثالهم   ثمت بادوا فمتى يلتقون

أما رأيه في الاستمساك بمذاهب متعددة في الدين الواحد فيتبين جليا مما يلي :

اذا رجع الحصيف الى حجاه   تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما ابداه لب   ولا يغممك جهل في صراها

ونعيد هنا أن المقارنة بين المعري وبين شعراء الغرب المتفوقين لا سبيل اليها ، لأنهم الفوا في قصائدهم وحدة الغرض وهو لم يألفها ، وسلكوا المعاني متسلسلة في قلائد من نوع متجانس على تنويعه ، واما هو فلم يكتب ملحمة متسلسلة ولم يرم مرمى تتوازعه أبيات قصيدة واحدة فضلا عن أن تتوازعه قصائد ديوان

فله شهرة عالمية بلغها بتفوق فكره ، ولم يبلغها بتفوق خياله وصياغته في شعره

خليل مطران

بم يمتاز المعري عن شعراء العرب؟ وماهي الخصائص الفكرية التي يتفرد بها والتي جعلته أنضج ثمرة من ثمار الادب العربي؟ هذا مايبحثه كاتب المقال

أبو العلاء بين شعراء العربية

بقلم الاستاذ فخري أبو السعود

ليس أبو العلاء أحد فحول شعراء العربية فقط، يحل منهم في الطبقة الاولى بجانب المتنبي وأبي تمام وابن الرومي، وليس هو فقط أحد أساطين كتابها، يباري ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان بصراً باللغة وتمكنا من أساليبها واحاطة بتراثها. بل هو بين أدباء العربية شخصية فذة فريدة: يتشابه الآخرون في أشياء كثيرة حتى كأنهم أبناء عصر واحد، ويختلف عنهم جميعا في أشياء كثيرة كأنه ابن عصر وحده، أو كأنه يمت الى أدب غير أدبهم وتراث ثقافي غير تراثهم، وهذا التميز أهم سمات ابي العلاء

فقد كانت نزعة المحافظة غالبة على الأدب العربي منذ عرف العرب الحضارة والثقافة، قد احتفظ أهلوه بتقاليد ورثوها عن فحول الجاهلية وصدر الاسلام، وحرصوا على اتباعها ولم يجبوا أن يدخلوا عليها كبير تبديل، فقصروا الشعر والنثر على موضوعات خاصة لم تتجدد كثيراً، وانما كان هم اكثرهم أن يجاري المتقدمين في طرقها. فالفخر والحماسة والمدح والهجاء والنسيب الاستهلالي في الشعر، والرسائل الديوانية والاخوانية في النثر، والاسلوب المحلى بالمحسنات البديعية في هذا وذاك. وقد طمع اكثر الشعراء في جوائز الملوك فقصروا اكبر جانب من قصيدهم على المدح، وطمح الكتاب الى الكتابة في دواوين الأمراء فتوفروا على تحبير الرسائل الانشائية، وعاش هؤلاء وأولئك في حياة صاخبة بين مواكب الحاكمين ومحافلهم، وبين مظاهر الترف المادي وأسباب اللذات الحسية، ومن ثم كان الأدب العربي الاسلامي اكثره ارستقراطي

أما أبو العلاء المعري فسلك طريقا وحده امتاز بها عن أبي نواس والبحتري والطائي، كما امتاز بها عن عبد الحميد وابن العميد والصاحب وغيرهم من الكتاب الوزراء، فجاء أدبه اكمل من أدبهم، وشخصيته مفترقة ممتازة عن شخصياتهم، وكان تراثه الأدبي من شعر ونثر أعظم قدرا وأخلد أثراً وأشد إمتاعا للاديب العصري من تراث من ذكروا ومن لم يذكروا ممن هم على شاكلتهم

فأبو العلاء لم يتعلق بحبال الأمراء ولم يقل في مدحهم الا القليل الذي أودعه ديوان سقط الزند، على أنه لم ينظم ما نظم في ذلك الباب طلبا لنوالهم ولا استظلالا بجاههم، ولكن نظمه

مجاملة أو مودة أو رياضة للقصيد وتلهيا بمعارضة المتقدمين ، ولم يستغرق ذلك إلا جانبا ضئيلا من شعره ، ولم يستأثر بمعظم مانظم كما استأثر المدح والهجاء بمعظم مانظم البحترى والطائى ومهيار وغيرهم

إنما التفت أبو العلاء الى التأمل المجرد والتفكير الحر المنزه ، على أنه لم يطرق الأبواب المعهودة المتوارثة فى الأدب العربى ، والتى كان يطرقها الشعراء حين يتحررون من المدح والهجاء ، كالوعظ الذى شغل به أبو العتاهية وأمثاله ، والحكمة التى أولع بها الطائى والمتنبى وسواهما ، والتمدح بمكارم الأخلاق والتحدث عن الاخوانيات اللذين كلف بهما الشريف الرضى وغيره . كل هاتيك كانت موضوعات مألوفة تقليدية فى الادب العربى ، تداولها الشعراء فى مختلف العصور ، وتشبهوا فى كثير منها بالمتقدمين . أما أبو العلاء فانفرد بالتأمل فى أحوال الانسانية جمعاء : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فصرف ذهنه فى التاريخ وتدبر أحوال الغابرين ، وتساءل أين القبور من عهد عاد ، ورجح أن يكون قبل آدم أوادم آخرون ، وتصور سائلا فى المستقبل يسأل عن مكة كما يستخبر المستخبرون عن جديس وطسم ، الى غير ذلك من نظرات الفكر الذى يروعه تقلب العصور وتغير الأجيال والشعوب والبلدان ، ولايقنع قناعة اكثر شعراء العربية بالنظر الى حاضره واغتنام عاجله ، عن التأمل فى الماضى والمستقبل وتقصى بعيد الآفاق

ولم يقتصر أبو العلاء على النظر في شئون الانسان ، بل وسع فكره وشمل اهتمامه عالم الحيوان واحتفى له احتفاءه ببنى جنسه ، بل عد الانسان والحيوان متماثلين فى الصفات والطباع ، متماثلين فى رضوخهم لصروف الأقدار والنواميس الطبيعية ، وخضوعهم لتنازع البقاء وما يستتبع من سجايا كلها غدر ولؤم كما يقول ، وهو ينعى على الأحياء بغيها بعضها على بعض ، ثم يرثى لهما جميعا لأنها لا معدى لها عن ذلك الصراع الدائب ، وتراه يتحدث فى شعره عن الضرغام والظبى والصقر والحمامة والذئب والشاة والنحلة ، حديثه عن أناس يعنيه أمرهم ويحرص على اسعادهم ويود لو يستطيع اصلاح ذات بينهم

وما هكذا العهد بذكر أدباء العربيـة الحيوان والطير فى آثارهم : إنما كانوا يذكرون الليث والذئب ليدعوا الفخر بالتغلب عليهما ، والظبى والكلب للتفكه بذكر الطرد والقنص ، والحمائم والبلابل تغنيا بجميل أصواتها ، ويستعيرون صفات هاتيك السباع والاطيار لما يتخيلون لأنفسهم أو لمدوحيهم من القوة والهيبة ، ولمعشوقاتهم من حور العيون وتلع الأجياد وسحر اللفتات ، أما الاحتفاء للحيوان ذاته والحدب عليه وطول التأمل فى أحواله ، فميزة من الميزات العظيمة التى انفرد بها أبو العلاء

ولم يقف فكره الجوال وتأمله الشامل عند الاحياء ، بل كان معنيا بشئون الجماد كذلك موكلا بالتفكير فى الأكوان والكواكب والآباد ، يعبر عن كل ذلك فى أساليب شعرية ممتعة : فيقول ان جبريل لو طار بقية عمره ما استطاع الخروج من الدهر لأنه أزلى ، ويقول ان لنار

للريخ من حدثان الدهر مطفيء وان علت فى اتقاد ، وان مولد الشمس يعني المرء تحديده ، وأن النور محدث والازلى هو الزمان المظلم ، الى غير ذلك من نظرات تجمع بين النزعة العلمية والحلاوة الشعرية . وبدهى ان احداً غيره من أدباء العربية لم يعن بالفلك بعض هذه العناية ، أو يكلف ذهنه فى مجاهل الفكر بعض هذا العناء

وكان أبو العلاء فى تأمله هذا فى شؤون الخلق متشائما ، يكربه مايرى من تصارع الأحياء وتنازعهم البقاء ، ويحزنه ما يشاهد من ضعف الانسان وقصور باعه وذهنه ، ويملأه غما ما يرى فى طباع الناس والاحياء كافة من لؤم وأثرة وخديعةوعدوان . وهو فى تشاؤمه أيضا نسيج وحده فى العربية ، فالتفاؤل هو السمة الغالبة على الأدب العربى ، وان كثرت فيه شكوى الزمان والاخوان والوعظ والتذكير بالموت والبلى ، والمتنبي مثلا على طول ما خاصم معاصريه ولاقى منهم ، ورغم خيبة مساعيه وضيعة أمانيه ، ظل عمره حريصا على الحياة كما قال مستهاما بها صبا

وانما أفضى بأبى العلاء الى التشاؤم طول تفكيره فى شئون الخلق والحياة ، كما تقدم ، وتوقله فى قمم الفكر العالية الباردة ، بجانب ما رزيء به من فقد البصر الذى كان فاتحة رزايا أخرى ، وما امتاز به من رهافة الحس ، هذا الى ما كان يعج به عصره من فساد واضطراب ، أما شعراء العربية الآخرون فنأى بهم عن التشاؤم انصرافهم ـ كما تقدم القول ـ الى حاضرهم ، واقبالهم على دواعى الحياة العملية ، واعراضهم عن طول التأمل فى مظاهر الحياة والغازها ، فابو العلاء هو ممثل التشاؤم فى العربية ، وهو فى هذا أيضا فذ متفرد

ولأبى العلاء فلسفته الالهية ، وهى جانب كبير من فلسفته ، والدين من أهم المسائل التى شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام . وليس ينفرد أبو العلاء بالشك والزيغ بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن سواه في هذا الأمر امتيازه عنه فى سواه : فان المتزندقين من أمثال بشار وحماد وأبى نواس كانوا قوما مستهترين متهالكين على اللذات ، لا يكربهم أمر الدين إلا ريثما يتهكمون بالمؤمنين ويتحدون عقائدهم ويغيظونهم بفتكهم ، وكأنهم فرحون إذ خلعوا عذار الايمان وخلصوا من ربقة الدين

أما ابو العلاء فكان زاهداً لا مستهترا ، محرما على نفسه متع الدنيا لا متهافتا عليها ، وما انتهى الى الشك اعتباطا ولا استهتارا ، ولا لسوء صحبة أوضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو الناشيء فى بيت التقى والفضل ، وانما انتهى فكره الناصب الى الشك بعد طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول ما وسعه أن يصل الى اليقين ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طويل بحث ولا تساؤل ، وكم طلب اليقين من جهينة كما قال فلم تخبره جهينة سوى الظن ، ولو ارتاحت نفسه الى الايمان عن اقتناع لكان أول المؤمنين وأحسنهم عقيدة

وعلى سبحات فكره فى آفاق الزمان والمكان ، وعنايته بالماضى والمستقبل ، لم يهمل أبو العلاء حاضره القريب ، ولم يعش بنجوة عن مجتمعه ، بل كان معنيا بأمره ، يأسى لسوء حال الرعية وجور الامراء على مصالحها ، ويعد أولئك الامراء أجراء لها عينتهم ليتعهدوا مرافقها ويسوسوا أمرها ، وهى نظرية العقد الاجتماعى التى ناقشها فلاسفة أوربا المحدثون . وكان أبو العلاء يأسف لعدم تساوى الناس في الثروة وتقاربهم فى الحظوظ ، فمنهم أمير متوج بالذهب وفقير معرى فى الشتاء ، ومجدود يرزق أقوات أمة ومنكود يحرم قوت يومه

وهنا أيضا يمتاز ابو العلاء على غيره من أدباء العربية ميزة عظيمة : فقد كان أكثرهم صنائع للملوك يترجمون عن رغباتهم ويتمدحون باعمالهم ، ويؤيدون دولتهم وان عتوا وان ظلموا ، قد انحازوا الى صف الحاكمين وكل همهم أن يغنموا مما يفيئون عليهم ، واعتزلوا المحكومين لا يأبهون بحالهم سعدت أو شقيت ، ولا يترجمون لهم عن شكاة ، ولا يحاولون لهم إصلاحا

وقد كان شعراء العربية وكتابها لاتصالهم بالامراء وتوفرهم على مرحهم وانشاء رسائلهم ومشاركتهم فى حياتهم الرسمية والخاصة ، مشغولين عن التوفر على الادب الخالص والفن لذاته . ومن ثم نرى الشعراء العظام منهم كانوا شعراء فحسب ، لم يؤثر عنهم غير القصائد ، كالمتنبي والبحترى وغيرهما ، والكتاب كانوا كتاب رسائل فحسب ، فلم يؤثر عنهم فيما عدا ذلك شيء يعتد به ، كالصاحب وابن العميد ، ومن أجاد الشعر من الكتاب كالصابىء وحميد بن سعيد كان مقلا فيه ، ومن توفر على الشعر قلما تظفر له بنثر أو رأى يعتد به فى النقد

أما ابو العلاء فلاعتزاله حياة الامراء الصاخبة ، وتوفره على الأدب والدرس توفر الكاهن على كهانته ، كان أديبا مكتملا متعدد نواحى الانتاج ، ضرب فى الشعر بقدح معلى وفى النثر بسهم وافر ، فصاحب اللزوميات هو أيضا صاحب رسالة الغفران ، وناظم ذلك الشعر الفائق هو كاتب هذا النثر الممتع ، وهو فى هذا وذاك لا يقتصر على باب من القول دون باب ، بل يجيل ذهنه فى شتى شئون الحياة والموت والماضى والحاضر والدنيا والآخرة ، والأدب والنقد واللغة والفقه ، وهو الشاعر العربى الكبير الوحيد الذى أثر عنه نقد وآراء معروفة مفصلة عن سابقيه من الشعراء كالمتنبي والبحترى وحبيب الطائى

وقد كان الأدب العربى فى جملته عملى المقاصد قريب الاغراض ، تقل فيه آثار سبحات الخيال ، وتقل فيه الآثار الفنية المطولة ، فغاية ما بلغ فيه الخيال إنشاء المقامة ، أو اختراع موقف الغزل ، أو تلفيق الأقصوصة القصيرة تنسب الى الجاهلية ويفسر بها خبر من الأخبار أو مثل من الأمثال السائرة ، أما القصة والملحمة والرواية وما اليها من آثار الخيال الواسع ، فان خلو الادب العربى منها معروف واضح . ولكن أبا العلاء أبى إلا أن يمتاز على سائر فحول العربية فى هذا الفن ايضا ، فرسالة الغفران هى العمل الأدبى الكبير الوحيد فى العربية ، الذى يقوم على الخيال

للتصال ، ويحوى أروع الصور والأوصاف والقصص والفكاهات ، وتدور حوادثه فى العالم الآخر، مستمدة حقائقه مما جاء فى القرآن الكريم ، كما استمد دانتى وملتون حقائق ملحمتيهما من أنباء الانجيل ، ورسالة المعرى وان طابقت كل أنباء القرآن الكريم وأظهر صاحبها الاعتقاد بصحتها ، عمل جرىء لم يقدم عليه غير أبى العلاء من قبل ، هو عمل جرىء من وجهة الفن والخيال ، وهكذا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية فى ارساله عنان الخيال وكبحهم إياه ، وانه للكفيف المحجوب وانهم للبصرون الطلقاء

ذلك أدب أبى العلاء المعرى ، هو فيه نسيج وحده بين أدباء العربية ، وما كان أدبه إلا صورة من حياته ، حياة الزهد والاعتزال والدرس والادب ، فهو لم يصدف عن حياة الأبهة فى حاشية الامراء فقط ، ولم يأب على نفسه ما كان يصبو اليه الشعراء والكتاب فحسب ، بل حرم على نفسه ما يتمتع به الفرد العادى : فاقام رهين محبسيه أو فى ظلام الثلاثة من سجونه كما قال ، وترهب فلم يتخذ حليلة ، ورغب عن شهى المطاعم وحرم على نفسه لحم الحيوان ، وكان على اعتداده بقدره شأن كل عظيم متواضعا بعيداً عن الادعاء ، يعلم أنه هو وغيره من طالبى العلم والدرس جهال لا يقاس ما علموه من شئون الكون بما جهلوه ، هذا على حين كان هم الكثيرين من شعراء العربية وكتابها التفاخر والتطاول على معاصريهم

فابو العلاء المعرى فى اعتزاله حياة البلاطات ، وتوفره على العلم والادب وادمانه النظر فى شئون الكون ، ودراسته للحياة دراسة تتجلى فيها النزعة العلمية ، وارساله عنان الخيال فى رسالة غفرانه ، واحتفائه فى نظراته الاجتماعية بشئون الرعية دون الحاكمين ، هو فى كل ذلك مخالف لغيره من فحول العربية ممتاز عليهم ، وهو لكل ذلك أقرب الى أدباء الغرب الذين عاشوا فى ظل الديمقراطية أحرار الفكر والنزعة ، معنيين بشئون الحياة والمجتمع لا بأمور الملوك والحكام

وابو العلاء لكل ذلك يمثل أنضج ثمرات الادب العربى ، ولا غرو فقد عاش بين القرنين الرابع والخامس الهجريين فى العصر الذى بلغت فيه الحضارة والثقافه العربيتان أوجهما وأشرفتا على الاضمحلال . ولولا فساد الاحوال السياسية والاجتماعية الذى أسرع بالحضارة والادب الى التدهور ، لكانت هذه السنن الحيدة التى سنها ابو العلاء للادباء ، مبدأ عصر جديد فى الادب العربى يكون فيه أقرب الى الفن الرفيع ، ويكون الادباء فيه أكثر توفراً على أدبهم ومغالاة بقدره ، وأشد كلفا بالتبصر فى بعيد آفاق الحياة . ولكن عوامل الانحلال كانت تتعاور المجتمع الاسلامى من داخله ومن خارجه ، فلم يقدر للادب العربى طور إحياء جديد ، بل سرعان ما دخل فى طور تدهوره الطويل ، الذى لم يفق منه إلا فى العصر الحديث ، وكان ابو العلاء المعرى آخر نجم لمع قبل هبوط ذلك الليل الحالك

فخرى أبو السعود
المدرس بمدرسة الرمل الثانوية

المعرّى :
هل كان سابقاً لعصره

بقلم الاستاذ عبد الرحمن شكرى

مما لا شك فيه أن كل قارىء يرى فى الكتاب الذى يطالعه بعض ماهو فى نفسه وعقله سواء أكان الكاتب قديما أم حديثا . ومما لا شك فيه أن اثنين يقرءان كتابا يختلفان بعض الشىء فى طريقة إدراكه مهما عظمت أوجه التشابه بين فهم كل منهما للكتاب ، فان كل قارىء يجد فهمه لما يقرأ محدوداً بعض الشىء بنوع تربيته وتعليمه وبمزاجه وطبائعه وبذكرياته وبما تعلم وبما قرأ . فلا غرابة اذا كان القارىء العصرى يرى فى شعر أبى العلاء المعرى مالم يقصده ابو العلاء ، فهذا أمر غير مقصور على المعرى ولا على غيره من الكتاب والشعراء ، بل هو غير مقصور على مايقرأ فان سامع الحديث أيضا يفهم فى الحديث بعض مالم يعنه المتحدث، وقد يختلف اثنان فى فهم حديث واحد يستمعان له بعض الاختلاف ، وليس الأمر مقصوراً على السمع والمطالعة والفهم لما يسمع أو يقرأ بل ان ادراك المرئيات قد يختلف باختلاف المخلوقات اما قليلا واما كثيرا

> تأثر المعرى بعصره ولكنه ارتفع عن مستوى التفكير الذى كان شائعا بين جمهور ذلك العصر وهكذا تقدم زمنه وتلك ميزة العبقرى

فاذا انقصنا من شعر المعرى بعض جدة معانيه بسبب ما نكون قد قرأنا فى معانيه من آرائنا ، بقيت له بعد ذلك جدة كثيرة فى المعانى وبقيت له الميزة التى جعلتنا نكثر من نسبة آرائنا اليه لا الى غيره ، فانه لا بد أن يكون قد ألم ببعض جوانب هذه الآراء ان لم يكن قد الم بجوانب أخرى منها . ثم ان جدته فى اتجاه التفكير ونوع الشعور ينبغى أن يحسب أيضا ولو كانت الفكرة مطروقة . والجدة اذا أريد بها جدة معانى التفكير فى النفس والخلق والحياة ، انما هى أمر نسبى وهى فى الحقيقة يراد بها الشيوع والاذاعة أكثر من الجدة ، فان كثيرا من المعانى التى يأتى بها التفكير فى النفس والخلق والحياة قد كان معروفا عند بعض القدماء حتى فى أقدم العصور وانما كان غير شائع ، فاذا عثرنا فى قولهم بشىء من ذلك سميناه جديداً ، والحقيقة هى أن العقول البشرية يكون نضجها فى التفكير فى النفس والخلق والحياة أسرع من نضجها فى التفكير فى حقائق الكيميا أو ما شابهها

من العلوم ، ولكننا كثيرا ماتقيس تفكير العقول فى النفس والخلق والحياة على تفكيرها فى العلوم فنخطىء بعض الخطأ . على اننا نقرأ فى بعض الأحايين لبعض القدماء آراء فى العلوم الكونية وغيرها تدل على انهم قد فكروا فى جوانب بعض الآراء الحديثة وانهم قد رأوا لمحا منها ، فاذا كان هذا أمرهم فى الأمور العلمية البطيئة النضج فلا غرو اذا كان تفكيرهم أسرع نضجا فى أمور الحياة والنفس والخلق

ومهما قرأنا فى شعر الشاعر المتقدم من آرائنا فلا بد أن نتساءل لماذا يختلف شاعر عن شاعر من الشعراء المتقدمين في هذه الميزة ، ولا بد ان نتساءل أيضا لماذا يختلف الشاعر الواحد فى قول عن قول فنرى فى قول ما نسميه جدة ونرى فى قول آخر ما نسميه قدما والقائل واحد فى الحالتين . وأكبر ظنى ان اختلاف الناس فى العصور المختلفة في اللباس والعادات والمعتقدات والآراء الشائعة قد جعل أهل العصور الحديثة يبالغون بعض المبالغة فى تمييز آرائهم عن آراء القدماء . ولعل أحسن دواء لذلك ان نقرأ كتب السير جيمس فريزر فان من يفعل ذلك يدهش لأنه يرى ان كثيراً من العادات والمعتقدات الشائعة يرجع أمرها الى العصر الحجرى وما قبل العصر الحجرى

واذا قرأ قارىء لوكرتيوس الشاعر الرومانى القديم أحس كأنما يقرأ بعض آراء الفلسفة المادية التى كانت شائعة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فى أوربا ، وشعر لوكرتيوس أوضح مثل لتشابه الافكار وترددها عصراً بعد عصر . وقد نقل ماتيو ارنولد قطعة لمؤلف قديم لا اذكر اسمه الآن يصف حواراً واحتفالا حدث فى الاسكندرية فى العهد الاغريقى البطليموسى ، وانما نقلها ماتيو ارنولد كى يدل على أن الناس هم الناس فى كل عصر

واذا قرأنا قول ابى تمام :

وقديما ما استنبطت طاعة الخا　　لق إلا من طاعة المخلوق

حكمنا أنه لا بد ان يكون قد ألم فى تفكيره بما ألم به الفلاسفة العصريين فى تتبعهم نمو فكرة الخالق فى الأذهان البشرية من قديم الزمن وإلا لم يكن للبيت معنى . وفى بعض الأحايين يكون إلمام الشاعر بمذاهب التفكير الحديثة الماما أبعد وعلى وجه التعميم دون التفصيل ومثل ذلك أن الذى يقرأ قول الشريف الرضى :

ولولا نفوس فى الأقل عزيزة　　لغطى جميع العالمين خمول

يقول انه لا بد قد فكر فى بعض ما فكر فيه كارليل وغيره من المؤرخين الذين يجعلون تاريخ الرقي الانسانى والحضارة تاريخ الآحاد الممتازين من الناس

فاذا تذكرنا وحدة العقل البشرى وتشابهه فى الأزمنة المختلفة ، وأنه أسرع نضوجا فى المعقول الذى يأتي به التفكير فى الحياة والنفس والخلق منه فى الأفكار العلمية التى تحتاج الى تجارب عملية

عديدة ، وإذا تذكرنا أيضا ان الالمام بالمعنى لا يستدعى الالمام بكل صغيرة وكبيرة منه ، وأن الجدة ليست جدة مطلقة بل جدة نسبية هى اشبه الأشياء بالاذاعة ، وأن الشاعر يكون أكثر نصيبا من هذه الجدة إذا لم يقيد ذهنه بقيود تمنعه من التأمل فى الحياة والخليقة والنفس وأخلاقها وآرائها — أقول إذا تذكرنا كل هذه الأمور حكمنا ان أبا العلاء المعرى أحق بأن يسمى حديثا من بعض المعاصرين . وأما قوله (غدوت ابن وقتى) ، فانما يعنى انه متأثر لما يقع حوله من الحوادث وكثيرا ما يكون هذا التأثر عكسيا أى انه يتأثر هنا كى يظهر السخط والانكار

وإذا نظرنا الى قول المعرى :

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها

وجدنا معنى كان معروفا لدى المفكرين الاغريق قبله بقرون وعصور ، وكان هؤلاء المفكرون لا يميزون بين الفضيلة والجمال ولا بين الحق والحسن ، ولكنه مع ذلك لم يكن معنى ذائعا ولا سيما فى عصره وبعد عصره ، بل المعنى الذائع هو أن امتناع المرء عن المعاصى لامعنى له إذا لم يكافأ عليه فى الآخرة . وقد يعظم هذا المعنى الاخير ويدخله الخطأ الكثير حتى يتصور الرجل العامى أنه سيكافأ بأن يباح له ما امتنع عن عمله فى هذه الحياة الدنيا ، فجدد المعرى الصلة بين الفضيلة والجمال وبين الحق والحسن . وكان الناس فى عصره يرون ان الانسان علة المخلوقات والكون ومرئياته ، فأبان المعرى عن ضآلة الانسان فى الكون كما تفعل نواحى التفكير الحديثة ، وقال المعرى بسنة تطور الامم واضمحلالها وفنائها حتى أهل الحجاز فقال

سيسأل قوم ما الحجاز وأهله كما قال قوم ماجديس وما طسم

وقال بتحكيم العقل كما قال فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ومن أتى بعدهم

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء

وان كان يعترف بقصور العقل عن أمور كثيرة فى قوله

سألتمونى فأعيتنى إجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

ورأى ان السلاطين والأمراء أجراء فقال

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال :

انما هذه المذاهب أسباب لجلب الدنيا الى الرؤساء

وكل هذه الأقوال وأمثالها لم تكن من الآراء الشائعة المعتقدة كما هى شائعة الآن،فلا غرابة إذا رأى القارىء فى شعر المعرى جدة فى المعانى ، ولا غرابة إذا قيل انه كان سابقا لعصره والحقيقة أن كل مفكر يرتفع عن مستوى جمهور عصره يكون من أجل ذلك سابقا لعصره

على أننا إذا نظرنا إلى حالة الدولة العربية فى عهده من حيث السياسة والنزعات الدينية وما

وصلت اليه نهضة الدولة العباسية الفكرية ، أمكننا أن نفهم الأسباب الظاهرة التى اشتركت مع اسباب من نفس المعرى ومزاجه فهيأته للخروج عن اتجاه التفكير المعهود لدى الجماهير فى عصره ، فان الفوضى السياسية فى أواخر الدولة العباسية كانت مصحوبة بفوضى فكرية ، فظهر القرامطة وغير القرامطة من الطوائف الهادمة المستحدثة ، وتلك الفوضى السياسية وما صحبها من الطغيان والشر تفسر لنا أبياته التى ينزع فيها منزعا يشبه الآراء الديموقراطية الحديثة والتى تدل على ضياع الثقة بالنظام الحكومى الذى كان يعد السلطان فيه ظل الله فى أرضه عند ما كانت الرعية تستظل بظل الأمن والاطمئنان بسبب قوة الخليفة . وكذلك لم يكن من عفو الأمور ان ظهر مفكر مطلق التفكير من القيود كالمعرى فى عهد ظهرت فيه الطوائف الدينية والفكرية الهادمة المستحدثة ، إلا أن أكثر هذه الطوائف كانت تلجأ الى وسائل التعمية والتمويه والتأويل والأسرار أو ادعاء الأسرار لاجتذات الجماهير لأغراض سياسية ، وعملها هذا يفسر لنا الأبيات التى ينعى فيها المعرى على أصحاب المذاهب مسلكهم

فالمعرى قد ارتفع عن مستوى التفكير والشعور السائد فى جماهير عصره ، ولو أنه كان متأثراً بعصره صادقا فى قوله (غدوت ابن وقتى)

عبد الرحمن شكرى

اشتراكية أبى العلاء

ويا بلادا مشى عليها أولو افتقار وأغنياء
إذا قضى الله بالمخازى فكل من فيك أشقياء

***

كيف لا يشرك المضيقين فى النعمة قوم عليهم النعماء

***

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة من البسيطة خلت الامر مشتركا

وفاة أبي العلاء

ورأيه في الموت وما بعده

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

انفق ابو العلاء عمره الطويل منذ مولده حتى وفاته في داره بمعرة النعمان ولم يغادرها فيما روت التراجم الوثيقة سوى مرتين ، الأولى وهو حدث في العشرين من عمره الى اللاذقية وطرابلس ليستكمل في مكاتبهما دراسته الاولى ، والثانية وهو شاب في الخامسة والثلاثين الى بغداد حاضرة الخلافة ومثوى العلوم والآداب الاسلامية يومئذ ، وهنالك مكث عاما وسبعة اشهر اتصل خلالها بمجتمعات بغداد العلمية والأدبية ، ودرس فيها بعض كتبه ورسائله ، ووقف فيها على كثير من الآراء الفلسفية التي تجلت بعد في تفكيره وشعره ، ثم عاد الى بلده سنة اربعمائة ليستقر بها حتى وفاته زهاء نصف قرن آخر

ستة وثمانون عاما هي عمر أبي العلاء منذ مولده حتى وفاته ، انفقها الحكيم الضرير والشاعر الفيلسوف في هذا البلد الصغير معرة النعمان ، ثم ثوى بها الثواء الأخير على مقربة من داره المتواضعة التي عاش فيها فاسبغ عليها إبان حياته شهرة طبقت انحاء العالم الاسلامي ، وأسبغ عليها بعد وفاته ثوبا من الخلود لم يعف حتى اليوم رغم تعاقب العصور والقرون

لبثت المعرة أيام أبي العلاء زهاء نصف قرن كعبة يحج اليها العلماء والطلاب من كل صوب ، يأخذون على حكيمها أدبه وتفكيره ، وتترى اليه رسائل العظماء والوزراء واعلام الفكر يلتمسون مكاتبته أو مناظرته ، وهو فيما بين ذلك يحيا حياة هي غاية في النسك والتقشف والزهد . فهو يلزم داره ولا يكاد يغادرها ويسمى نفسه « رهين المحبسين » . وهو يصوم معظم الوقت ولا يتناول من الطعام سوى العدس والبقول وشيئا من الفاكهة ، وهو لا يأكل اللحم مطلقا ويدعو الى الكف عن ذبح الحيوان وتعذيبه ، ثم هو يلبس الثياب الحقيرة الخشنة وينام على لبد وحصير . وعلى الجملة فهو يخمد في نفسه كل شهوة مادية ويقاطع كل ميل الى الدعة والرفاهة والنعماء

وقد اقترنت هذه المظاهر الفلسفية المؤثرة بشخصية أبي العلاء وغدت أبرز صورة في حياته وعلى ضوئها نستطيع أن نستعرض كثيراً من فلسفة أبي العلاء وآرائه في الحياة ، ومع اننا نعنى في

هذا الفصل بموت أبى العلاء وفلسفته فى الموت والعدم فقط ، فان هذه الفلسفة تغدو أكثر فهما ووضوحا متى عرفنا لمحة من آرائه فى الحياة ذاتها . كان ابو العلاء يرى الحياة جحيما . ويرى هذه الدنيا معتركا من الشقاء والشر والاثم ، وان العدم خير من البقاء ، ومن ثم فانه خير للانسان ألا يولد والا تكتحل عيناه برؤية هذه الدنيا — اليس هو القائل ؟ :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وهو القائل :

قضى الله أن الآدمى معـــذب حتى يقول العــالمون به قضى

فهنىء ولاة الموت يوم رحيله أصابوا تراثا واستراح الذى مضى

وهذه المعانى والآراء فى شعر أبى العلاء وفى نثره كثيرة يطول بنا المقام اذا حاولنا الاقتباس منها فى هذا الفصل الموجز . بيد أنه يكفى أن نذكر قصة البيت الشهير الذى أوصى أبو العلاء أن يكتب على قبره عند ما حضرته الوفاة وهو :

هــذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحــد

فالحياة فى نظره هبة أثيمة وهى جناية الآباء على الابناء . ولهذا فقد رفض ابو العلاء أن يتزوج طول حياته ، وأن يرتكب نفس الجناية التى ارتكبها أبوه فى حقه فيأتى بنسل يعانى جحيم الحياة كما عانى

والانسان — وهو أبرز مظاهر الوجود فى نظر أبى العلاء — مخلوق أثيم لئيم الطبع يغلب فى هذه الحياة خبثه وشره ، وقد خصه ابو العلاء بكثير من ذمه المقذع فهو يقول مثلا :

ان مازت الناس أخلاق يقاس بها فانهم عند سوء الطبع اسوأ

أو كان كل بنى حواء يشبهنى فبئس ما ولدت للناس حواء

ويقول :

فآل حواء راعوا الاسد مخدرة ولم يغادوا بسلم ربة الوجر

ومن أتاهم بظلم فهو عنــدهم كجالب التمر مغتراً الى هجر

هم المعاشر ضاموا كل من صحبوا من جنسهم وأباحوا كل محتجر

والخلاصة ان أبا العلاء لم يجد فى هذه الحياة من الخير ما يستحق أن يغرى الانسان بالاقبال عليها ، فهو يقاطعها ويذمها من أعمــاق نفسه وهو يهجو بنيها ويراهم مثلهــا عناصر شر واثم وفساد

وليس من موضوعنا أن نتقصى مصادر هذه الفلسفة التشاؤمية عند أبى العلاء وهى فلسفة تطبع شعره ونثره كما تطبعهما نزعته الالحادية الشهيرة . بيد أننا نذكر فقط أن الحياة المظلمة الكدرة التى عاناها ابو العلاء كانت أول مصادر فلسفته ، وانه عاش فى عصر غلبت فيه عوامل

الانتقاض والثورة والحروب الأهلية فى الشام ، وذاعت فيه النظريات المادية والالحادية فى مصر فى عصر الحاكم بأمر الله ، وسرت منها الى الشام كما سرت اليها نظريات القرامطة ومبادئهم الاباحية قبل عصر أبى العلاء بقليل ، وكان المجتمع من حول أبى العلاء يفيض بعوامل البغض والحقد والتطاحن وعدم الاستقرار

— ٢ —

توفى أبو العلاء بداره بالمعرة فى يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ (٢٢ مايو سنة سنة ١٠٥٧ م) بعد ان عمر زهاء ستة وثمانين عاما

وقد نقل الينا ياقوت رواية عن وفاة أبى العلاء خلاصتها أنه حينما احتدم الجدل بينه وبين داعى الدعاة الفاطمى أبى نصر ابن أبى عمران فى رسائلهما المعروفة التى كانت تدور حول رأى أبى العلاء فى وجوب تحريم ذبح الحيوان ورد داعى الدعاة عليه ، رأى الداعى ابو نصر أن يستدعى أبا العلاء الى حلب ليرغمه على التنازل عن آرائه الالحادية ويحسن اسلامه أو يقضى بقتله، فلما وقف ابو العلاء على ذلك شرب السم ومات . وهذه رواية ضعيفة لا يقبلها ياقوت نفسه بل ينقلها الينا على علاتها

وفصل ابن خلكان منظر وفاة الشاعر الفيلسوف ، فذكر لنا أنه مرض قبل وفاته بثلاثة أيام فقط ، ومات فى اليوم الرابع . وكان لديه فى مرض موته بنو عمه فطلب اليهم فى اليوم الثالث أن يكتبوا عنه فصدعوا برغبته ، ولكنه أملى عليهم أقوالا مضطربة فقال القاضى ابو محمد عبد الله التنوخى أحسن الله عزاءكم فى الشيخ فانه ميت ، ثم توفى فى اليوم التالى ، وأوصى ابو العلاء حين حضرته الوفاة أن يكتب على قبره البيت الآتى :

هـذا جناه أبى علىّ   وما جنيت على احـد

وكانت وفاة أبى العلاء حادثا جللا تردد صداه فى ارجاء الشام وارجاء العالم الاسلامى كله ، وحفلت المعرة على أثر موته بجمهرة عظيمة من الشعراء والادباء جاءوا ليزوروا قبر الشاعر الفيلسوف وليشيدوا بذكره . ونقل ياقوت عن أبى زكرياء أنه لما توفى ابو العلاء انشد على قبره بعد موته اربعة وثمانون شاعراً مراثيهم ، وكان من أشهرها وأوقعها مرثية تلميذه أبى الحسن على ابن همام وهى التى يقول فيها :

ان كنت لم ترق الدماء زهادة   فلقد أرقت اليوم من جفنى دما
سيرت ذكرك فى البلاد كأنه   مسك فسامعه تضمخ أو فما
وترى الحجيج اذا أرادوا ليلة   ذكراك أوجب فدية من أحرما

ولبث قبر المعرى بعد وفاته عصوراً مزاراً يحج اليه الناس من سائر الاقطار . واشتهرت المعرة باحتوائها على قبر الشاعر الفيلسوف حتى يومنا . وكان القبر كصاحبه غاية فى التقشف والبساطة

وقد وصفه لنا الوزير جمال الدين يوسف القفطي حينما زاره فى سنة خمس وستمائة فذكر أنه يقع فى ساحة بين دور أهله وعليه باب قال : فدخلت فاذا القبر لا احتفال به ورأيت على القبر خبازى يابسه والموضع على غاية ما يكون من الشعث والاهمال . وذكر الذهبي أنه رأى القبر بعد رؤية القفطي له بمائة سنة أعنى فى سنة خمس وسبعمائة فرآه على نحو ما وصف القفطي . هذا وقد لبث قبر أبي العلاء الى عصرنا على حاله من الاهمال والشعث والتهدم . ولا زلنا نذكر المساعى الكريمة التى بذلت منذ اعوام قلائل فى الشام ومصر لاصلاح قبره ، وهى أمنية نرجو أن تكون قد حققت بما يثلج صدور المعجبين بالشاعر الفيلسوف وروائع تراثه وتفكيره

— ٣ —

لأبي العلاء فى الموت فلسفة خاصة ، فالموت فى رأيه حقيقة أزلية والفناء ضرورة للوجود حسبما يقول لنا :

ويجوز أن تبطىء المنايا والخلد فى الدهر لايجوز

والعدم فى نظر أبي العلاء خير من البقاء حسبما قدمنا ، بيد أنه لا يؤمن بالحياة الاخرى فيما يبدو من شعره ، فهو لا يعتقد بخلود الروح بعد الموت بل يرى انها شعاع نورانى يخبو مع الموت ، وهو صريح فى ذلك إذ يقول :

والنفس تفنى بانفاس مكررة وساطع النار تخبي نوره اللمع

ويزيد ابو العلاء على ذلك قوله بأن الموت يشمل الجسم والروح معا بالعدم المطبق فلا حس من بعده للجسم أو الروح :

لا حس للجسم بعد الموت نعلمه فهل تحس اذا بانت عن الجسد

ويستتبع ذلك ان أبا العلاء لايؤمن بالبعث وهو صريح فى ذلك كل الصراحة حين يقول مخاطبا المولى عز وجل :

ونهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقتلهـا ملـكين
وزعمت ان لنا معـــاداً ثانيا ماكان أغنـــاها عن الحالين

ثم ان أبا العلاء يرى أن الجسم بعد ان تفارقه الروح يغدو عرضا زائلا لا يستحق التكريم ويقول لنا :

تكرم أوصال الفتى بعد موته وهن اذا طال الزمان هباء

ومن رأيه ان يكتفى فى جثمان الميت بأن يوارى فى التراب بكل بساطة ، وهو لذلك ينعى على النصارى انهم يضعون موتاهم فى توابيت من الخشب ضيقة لا رحاب فيها :

قد يسروا الدفين حان مصرعه بيتا من الخشب لم يرفع ولا رحبا
يا هؤلاء اتركوه والثرى فله انس به وهو أولى صاحب صحبا

ومن الغريب ان ابا العلاء يمتدح فى شعره تقاليد الهندوس فى حرق موتاهم ويرى أن هذه الطريقة فى اعدام الجسم أفضل وأكفل بصونه من شنائع التحلل وما قد يتعرض اليه من نهش الضوارى

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم وذلك أروح من طول التباريح
ان حرقوه فما يخشــون من ضبع تسرى اليه ولا خفى وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا غبا واذهب للنكراء والريح

والخلاصة ان لأبى العلاء فلسفة فى الموت وما بعد الموت كما أن له فلسفة فى الحياة . واذا كان فى نظرته الى الحياة يميل الى التبرم والتشاؤم فهو فى نظرته الى الموت وما بعده يميل الى الشك والانكار . وهو فى الحالتين متأثر بالفلسفة القديمة . ويبدو لنا بنوع خاص ميله الى المذهب المادى ومذهب المتشككين . والى هذا الميل نستطيع أن نرجع كثيراً من آرائه الالحادية التى أخذت عليه وأثارت عليه فى عصره ، وفيما بعد عصره ، حملات شديدة لايزال يتردد صداها الى اليوم فى أقوال الباحثين والنقدة . بيد أنه يجب ان نلاحظ من جهة أخرى ان هذه النواحى الفلسفية هى أهم عناصر القوة والطرافة فى شعر أبى العلاء وفى تفكيره [1]

محمد عبد الله عنان

رهين المحابس الثلاثة

سمى ابو العلاء نفسه رهين المحبسين : المنزل الذى اعتقل فيه نفسه عن الناس ، والعمى الذى حجب عنه جميع مشاهد الحياة ، ولـكنه أضاف اليهما محبسا ثالثا ، هو هذا الجسم المادى الذى احتجز روحه فمنعه من الانطلاق الى حيث يتطهر ويسمو ، فقال :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث

(١) رجعنا فى هذا البحث الى معجم الادباء لياقوت ، وتاريخ الذهبى ، وابن خلـكان ، ورسائل المعرى (نشر مرجليوث) ، وذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين ، والى اللزوميات الخ

المعرّى يُبعث حيا

بقلم المرحوم الاستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى

تخيل المغفور له الاستاذ المنفلوطي أن أبا العلاء المعرى قد عاد إلى الدار الاولى ، فأخذ ينقد مساوئها ويعيب نقائصها ، ويبدى آراءه فى أوضاعها . وقيل إنه وضع في ذلك كتاباً فقد اثر وفاته ، ولم يبق منه سوى ثلاث مقالات نشرت في كتاب « النظرات » . فان صح هذا فقد خسر الادب العربى ذخرا ثمينا ، فقد أفتن المنفلوطى وأبدع فى هذه المقالات ، كما يتبين فيما نقتطفه من احداها

ما كنت أجهل قبل اليوم رأى الشيخ فى الطعام وما يحب منه وما يكره ، ولـكننى ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأى غير رأيه ، فقدمت اليه فى طعام العشاء دجاجات ربلات كنت أعددتهن للضيفان من قبل ، فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر اليها مرة وإلى أخرى ثم قال : « ما اسم هذا الطعام الذى تقدمه الى » ، قلت : « انهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندى شأن غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن ، فكانت تؤثرهن بأفضل ما تؤثرها به من طعام وشراب ، وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه ، حتى امتلأن واكتنزن واستدرن للذبح ، وقد كنت أبقى عليهن كلما طرقنى طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صدرها حزنا على أترابها الصغيرات ، أما اليوم فلم أر من ذلك بدّاً فذبحتهن اكراما لك فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائهن »

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقا طويلا سمعته يهينم فيه بهذه الـكلمات :

« وارحمتاه ! ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حق حسه ووجدانه ويأبى إلا أن ينظمه فى سلك الجمادات الصم ، لأنه صامت لا ينطق وأخرس لا يبين . ربما كان زقاء الديك ، وقوقأة الدجاجة ، وصرصرة البازى ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصفور ، وثغاء الشاة ، ومؤاء الهرة ، وخوار الثور ، وحنين النيب بكاء بغير دموع ، وشكوى بغير لسان ، وربما كان يكتم ذلك الذبيح فى نفسه من الوجد والبرحاء مالو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخر عيونا »

ثم رفع رأسه الى وقال : « أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئا عند ما أردت ذبحهن » قلت : « لا يامولاى ومتى قلن للناس شيئا فيقلن لى » . فنظر الى نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع فى قلبى ما حييت ثم قال : « أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له :

«مهلا رويداً أيها القاتل السفاك! لاتدن مني ولا تمدد يدك الي، فلا شأن لك معي ولا ترة لك عندي. أنا صاحبة الحق المطلق فى حياتي وأنا لا أريد ان أموت ولا رغبة لى فى فراق الحياة لأن ورائى أفراخا صغاراً هن الى حياتى أحوج منك الى مماتى. وليس من الرأى أن أكل أمرهن اليك من بعدى لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك

«أنت لا تملك أن تعطينى الحياة فلا تملك أن تسلبنى اياها

«كل ماتستطيع أن تمن به على أنك كنت تطعمنى وتسقينى. فهل تعلم انك ما كنت لا تطعمنى الا فتات مائدتك ولا تسقيني الا غسالة يديك، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بى ولا احسانا الى، بل لتهيء لنفسك ما يسد شهوتك ويطفىء لوعتها. وهل تعلم أنك أنت الذى سجنتنى فى أقفاصك وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يساومنى فيه مساوم ولا يحاسبنى عليه محاسب. أمن أجل تلك الحثارة القذرة والجرعة الكدرة تسلبنى حياتى وتفجع بى أفراخي، ولا ذنب لى ولا لهن عندك الا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض وهوامها ورسل الفجر المنير اليك

«لا تظلم السبع بعد اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن، فهو يبقر البطون بأظفاره وأنت تفرى الأوداج بمداك، لا بل ان جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره، لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت تفترس لترفه نفسك، ولأنه يعجز عن الاحتيال لقوته وانت على ذلك من القادرين. استضعفتني فبرزت الى فهلا برزت لشبل الاسد..»

هيه يا صاحب الدجاجات حدثني عنك، ألم يكن لك فى جميع ما تنبت الأرض من بقلها، وقثائها، وفومها، وعدسها، وبصلها، مناذح لاكرامي والقيام بحق. وأنت تعلم أنى رجل سلخت فى دنياكم هذه من حياتى الأولى نيفا وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه فحميت نفسى حتي عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعاما والبلس حلوى، لأنى كنت أعلم ان النبات طعامى الذى لا يلائمنى غيره ولا يشبهنى سواه وأن لحم الحيوان انما خلق للشفاه الغليظة، والأنياب العريضة، والأظفار الحادة، والجلود المزأبرة، والأعضاء المتوثبة، والهامات الضخمة، وكنت أرى أن أكلة اللحوم انما يخادعون أنفسهم فيها ويجترونها الى طبائعهم اجترارا لأنهم لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف والتقديد والشى والقلى ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والافزاح مزجا يكاد يخرج بها عن جوهرها الى جوهر النبات، حتي إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا الى الله منها وفزعوا الى النبات فى طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم كأنما يطلبون شفاءهم فى الرجوع الى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم انهم كانوا ينكرون على رأيى فى ترك ذلك الطعام

ويمعنون فى مساءلتى عنه وحجاجى فيه وحملى عليه ، ويلحون فى ذلك الحاحا شديداً ، حتى ظننت أنهم قاتلى من دونه . كأنما يزعمون فى ضوضائهم هذه أنهم انما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم ، أو ان الله تعالى أنزل عليهم قرآنا ألا يقيم لهم يوم القيامة وزنا ولا يقبل منهم صرفا ولا عدلا الا إذا قدموا عليه يبطون بجر مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم فى منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه ، فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة الا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح باعراضهم عنه حراما ، كما ترك النبى صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة . وقد كنت امرأً فقيراً لا املك فى كل عام من الرزق الا نيفا وعشرين دينارا لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين الترفين ، وما كنت اجد السبيل الى غيرها الا من طريق الكدية والتكفف اى بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين . وقد علم الله من شأنى أنى رجل لو علمت انى إن أذلت ما صان الله من ماء وجهى على عتبة أمير او قدم وزير ، امطرت السماء على ذهبا ، واستحالت الحصباء تحت قدمى دراً ، ما فعلت ضنا بنفسى على هذا الموقف المستوبل وإيثاراً للرضاء بقضاء الله وقدره فى قسمة أرزاقه بين عباده . فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ، ولو قدرت عليه لما اشتهيته ، من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ، ولا للايمان والزندقة فى ذلك مدخل

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يجيع نفسه من غير عوز ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول إن رسول الله لم يمتلىء قط شبعا وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي واقول: نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول : ياعائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ماهو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم . وكان يقول شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة. وعلا عمر رضى الله عنه ولده عبد الله ابن عمر بالدرة إذ دخل عليه فرآه يجمع فى طعامه بين الثريد والشواء ، وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ثم يأكله قائلا : كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط فى حياته لا بالجواذب والكباب ولا بالخل والزيت . فويل لى من هؤلاء الناس شركتهم فى دنياهم فقالوا شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

مصطفى لطفى المنفلوطى

المرأة
في رأي أبي العلاء

بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

ليت المرأة لم تخلق ــ عالمها عالم الحس ــ وجوب الحجاب ــ لا عفة للمرأة ــ وأد البنات ــ الأصح انتساب الولد الى أمهاتهم ــ تعليم المرأة ــ العروس الموافقة جنة الرجل الاولى ــ انكار تعدد الزوجات ــ النسل قبل كل شيء ــ وفاؤها للحياة لا للرجل ــ لماذا لم يتزوج أبو العلاء

لا أحسب المرأة إلا مزهوة بما يقال فيها حمداً كان ذلك أو ذما . فليس أحب الى نفسها وأرضى لغرورها من أن تكون هم الرجال وشغلهم الشاغل . فسيان عندها عابد لها وناقم عليها مادام شديد الشعور بوجودها . ولعلها في قرارة سرها ــ وان تصنعت الغضب ــ أشد استمتاعا بلعنة اللاعنين لما فيها من اعتراف صارخ بخطر سلطانها وروعة فتنتها وعظم غوايتها

وابو العلاء في طليعة الناقمين على المرأة ، وهو القائل في لزومياته :

بدء السعادة ان لم تخلق امرأة

وليس معنى هذا أن أبا العلاء جامد الطبع ناضب العاطفة من ناحية المرأة ، وانه مسلوب الشعور بما فيها من جواذب وفتنة . وانما على الضد هي شدة حسه ــ كما قدمنا ــ بما لها من دولة آمرة وسلطان قاهر ، وان الصورة التي يتمثلها لبنات حواء لأشبه ما تكون بصورهن في أخيلة أصبي الرجال اليهن وأشدهم تعلقا بهن واشتهاء لهن . فهذي بنات حواء ــ في تائيتيه المطولتين في اللزوميات ــ يطلعن كالظبيات في اللحظ واللفتات ، ويغدين ويرحن خواطر كالغصون متأودات ، في وشي ثياب مورسات ، وبالجوهر الفريد مقلدات ، وفي سنا الحلي متوقدات ، معاصمهن بالأساور معلمات ، وسوقهن بالحجول طوافر مقيدات . خدودهن بالشباب موردات ، وأكفهن بالخضاب موسمات ، وبناتهن معنمات . مرهفات القدود مهندات ، في ضيق من الأزر مغمدات لحاظهن كالسيوف مجردات ، ثغورهن عذاب بخمرة الريق مفدمات ، تفض خواتمها عن الصهب

محتمات . صواحب منطق متزيدات ، مطربات بالمقال مهودات ، يشنفن للسامع قائلات ، ويكلمن القلوب مكلمات . يترقبهن الفتيان فى الصعدات ، وانفاسهم من الشوق متصعدات . وأى زناد شوق لم يقدحنه ، وأى رشيد عقل لم يحيرنه ، وأى راجح حلم تركنه غير مفند ! !

هذه بلا نزاع صورة المرأة فى مجلى فتنتها وحفل زينتها . ولو لم نقل انها لابى العلاء لظنها القارىء الكريم لأحد الشعراء الغزلين ، بله الخليعين . ولكن ، أيرى القارىء لو كان ابو العلاء لا يعرف للمرأة هذه الفتنة كلها ، ولا يدرك منها هـذا التجهز للغواية بكل سلاحها ، أكان يحذرها هذا الحذر ويتجرد هذا التجرد كله لتحذير العالمين منها ؟ ثم ألا يرى بعد ذاك للصورة التى رسمها ابو العلاء للمرأة كيف انها على كل ما فيها من فتنة لا تعدو توصيف محاسن الجسد ومشتهيات الحس ، وأنه لم يعرض فيها الى مزايا خلقية وشمائل نفسية ، وأنه حين ذكر ما يصيبه الرجل عند المرأة من متع العشق لم يجر على طرف لسانه مرة اشارة الى التعاطف ومساجلة القلب للقلب وامتزاج الشعور

وما الغوانى الغوادى فى ملاعبها إلا خيـالات وقت اشبهت لعبا

ولقد ذهب نيتشه فيلسوف المانيا الشاعر الى أن الرجل حق الرجل ، ينزع الى شيئين : المخاطرة واللعب ، وأنه من ثمة كان نزوع الرجل الى المرأة فهى أخطر لعبة

لا تتبعن الغانيات مماشيا ان الغوانى جمة تبعاتها

والمرأة كثيرة المراغب قلما ينهض بها رجل . فهى تريده شابا قويا ، وتريده وجيها غنيا ، وتريد لو يفرغ لها نهاره وليله . واذا عزها اجتماع هـذا جميعه فى زوج ، وكان لها أن تختار لنفسها من تؤثر ، فانها فى اختيارها لن تصغى لصوت غير صوت الغريزة

اذا خطب الزهراء شيخ له غنى وناشىء عدم ، آثرت من تعانق

فهى لا تعرف الحياة إلا من طريق المشاعر الحسية ، وهى لا تحيا الا بها ، ولا تهتدى فى الواقع بغير هديها . واذا سمعتها ناقمة على جارة فرطت لعاشق فى نفسها ، فاعلم انها لا تسلم من حسد لها وخشية منها أن تسلب يوما قرينها . والمرأة انما تظهر التدين والفضيلة مجاراة للعرف ولكنها أقرب تلبية لدواعى الطبيعة . ومن أظهر غرائزها طلبها الحظوة فى أعين الرجال وحرصها على أن تشوقهم ، ولن يقنعها أن يعجب الرجال منها برأى ناصع وعلم واسع وفن بارع بل لا بد لها من افتتانهم بحسنها وعبادتهم لجسدها . فلا غرو أن كان المعرى مشدداً فى وجوب احتجاب النسوة فى الخدور ، لاينى يردد النصيحة ويلح فى النذير

وأرى العروس تحجبت فى دارها كعرس الآسـاد فى الاخدار

وهو يخشى عليها من الجوار مهما حسن ، ويوصى بأن يكون التجاور « كتجاور العينين

ن يتلاقيا » ، ويأبى عليها طلوع السطح حيث لا يأمنها ان : « تكلم يوما فى التستر جارها » ، ولا ينسى أن يهيب بالجار نفسه متلطفا :

اذا شئت أن ترقى جدارك مرة   لأمر ، فآذن جار بيتك من قبل
ولا تفجأنه بالطلوع فربما   أصاب الفتى من هتك جارته خبل

ولا تسل عما يأخذ أبا العلاء من اشفاق وما يملؤه من طيرة وتوجس لخروج النسوة من دورهن بعذر من الأعذار : تارة لشهود عرس ، وقد تبرجن وأبدين زينتهن ، متحليات بالأساور والحجول ، متضمخات بالعبير ، رافلات فى وشى الدمقس وسرق الحرير ، فهو يبادر الى الام ينبهها ويصدقها المشورة

نصحتك يا ام البنات فحاذرى   وساوس ولاج الأساود خناس
ولا تلبسى الحجلين بنتك والبرى   لتشهد عرسا ، واشغليها بعرناس

وهو آونة أخرى ينبه رجل البيت

وان طاوعن أمرك ، فانه غيداً   يزرن عرائسا متيمات
أخذن كريش طاووس لباسا   ومسكا بالضحى متلفمات

ثم ايثارهن للحمامات العامة ، وما بهن اليها شديد حاجة ، وفى مثيلاتها فى عقر بيوتهن غنى عنها لوشئن ومندوحة ، ولكنها احدى معاذيرهن للخروج الى زحمة الطرق ومطارح الانظار ، فكأنما لا يصح فى غيرها الطهر ولا تتحقق بدونها نظافة البدن وجلوة الحسن ، فهن لا يصبرن عنها ولا يفتأن مختلفات اليها كل حين فى مواقيتها المعروفة ، متلففات متكمات وهن من بعد طوامح الطرف متطلعات ، وعليهن من صنوف الابراد ومصوغ الحلى ما يخلب البصر ويبهر اللب ، وقد رصد لهن فى غدوهن ورواحهن أصحاب الغزل من الرجال فهو يقول ناصحا للفريقين كعادته

ولا ترمق بعينك رائحات   الى حمامهن مكمات
فكم حلت عقود النظم وهنا   عقوداً للرشاد منظمات
وكم جنت المعاصم من معاص   تعود بها المعاضد معصمات

وما بالك بما تتعرض له أولئك الغانيات فى عصر كعصر أبى العلاء صيره فجور المماليك الاتراك جندهم وقوادهم الى حال من الأباحية الخلقية وفساد الحياة الاجتماعية لم يسبق به عهد لعدوانه كل طور ، وتجاوزه كل حد ، مما يجعل تحريم ذهابهن الى الحمامات أوجب من ذى قبل وأشد لزوما

ولا تلجى الحمام ، قد جاء ناصح   بتحريمه من قبل أن يفسد الناس
فكيف به لما اغتدى فى طريقه   رجيب ، وحواش ، وتنج ، وأشناس
تمازج بالعرب الأعاجم ، والتقى   على الغدر أنواع تذم وأجناس

كذلك كان لا يسكت عن ترددهن على الساحرات الماكرات فى طلب عطف الهاجر وتهييج الغائب من الخلان

وأبعدهن من ربات مكر سواحر يعتدين معزمات
يقلن نهيج الغياب حتى يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان كيما يزول عن السجايا المشئمات

وكان أخوف ما يخافه أن يغلب عليهن ايمانهن بالخرافات فلا يتورعن من مخالسة السعى الى العرافين والمنجمين ، فلا يقف خطب هذا المخرق او ذاك عند الكسب الحرام وامتراء المال منهن بل قد يعدو الى طمعه فيهن أن يواتينه على القبيح

إذا ابتكرت الى العراف فاعرف مكان عصا تصك به قراها
وحذرها المنجم فهو ذئب تشوقه الضوائن أن يراها
فان هى لم تجبه الى قبيح تحلبها المنافع وامتراها

وجملة القول أن أبا العلاء يحض على حجاب المرأة ولا يرى لها خروجا من الخدر إلا الى القبر

لزومها البيت مع اهتمامها حتى يجيها الوفد من حمامها

وهو فى حجابها متشدد مبالغ فى التشدد بلا مهاودة ولا استثناء ، لا يقبل فى خروجها عذراً سواء أكان للحمام أم للمسجد

شر على المرأة من حمامها ارسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد فى المامها تأثم ، والخيبة فى ائتمامها
بأجدل ما عف عن كمامها أعاذها الخالق من إمامها

وقد ذهب فى مذهبه الى حد النهى عن خروجها للحج

أتت خنساء مكة كالثريا وخلت فى المواطن فرقديها
ولو صلت بمنزلها وصامت لألفت ما تحاوله لديها
ولكن جاءت الجمرات ترمى وأبصار الغواة الى يديها
وليس محمد فيا أتته ولا الله القدير بمحمديها

فأبو العلاء يرى المرأة شيطانة غى ، تجرر وراءها الفتنة حيث سارت ، وتهيج اليها الحواس حيثما حلت ولو كان المكان قدس الاقداس ، سيان فى مساجد المسلمين كما قدمنا أوفى بيعات النصارى

هل قبلت من ناصح أمة تغدو الى الفصح بصلبانها
كنائس يجمعها وصلة بين غوانيها وشبانها
ما بالها عذراء أو ثيبا كوردة الجانى بأبانها

راحت الى القس بتقريبها وبيتها أولى بقربانها
قد جربت من فعله سيئا والطيب جار بجربانها
وزوجها تسخط، بل زوجها البائس ، في طاعة ربانها
قد زارت الدير ، وأثوابها ضامنة فتنة رهبانها

فشاعرنا لا يأمن للغرائز . وكيف يأمنها وهي المحرك لعجلة هذا العالم وما فيه من سعي وجهد وهو أنى تلفت يرى الناس إنما يعملون في الحياة بدافعين من إشباع بطنهم وارضاء شهواتهم كائنة ما كانت ظواهرهم وبالغة ما بلغت أقدارهم

وأشرف من ترى في الأرض قدراً يعيش الدهر عبد فم وفرج

فلا أمان ولا اطمئنان ، بل ان الحذر كله لا يغني لولا أن يلطف القدر ويشاء الله

قد حاطت الزوج حرة سألت مليكها العون في حياطتها

وليس بعد هذا قبح رأى في المرأة وسوء ظن في عفتها . على ان التظنن كلة مخففة ، لأن أبا العلاء لا يرى لها عفة على الاطلاق

وما تمنع الخود الحصان حصونها ولو أن أبراج السماء حصونها

فدفنها هو الأمان الوحيد من عارها

ودفن الغانيات لهن أوفى من الكلل المنيعة والخدور

ولولا ما طبع عليه من الرحمة لذهب مذهب الجاهلية في وأد البنات ، ولكان الدفن « لاحداهن احدى المكرمات » ولما طاوعه لسانه أن يقول « لاتئدوا ! » وان يكن عز عليه بعد الا ان يشفعها بكلمة الحق عنده فتمتم كالمحدث لنفسه يراجعها « وأكرم بالتراب مصاهرا »

لا تولدوا . فاذا أبي طبع فلا تئدوا ! ــ وأكرم بالتراب مصاهرا

فالمرأة مجلبة العار لأبيها وذويها ثم من بعد لزوجها ، ولا يصح ائتمانها على نفسها ولا الثقة في حصانتها . ولذا كانت نسبة الأبناء الى الآباء موضع الشك عنده ، فكان يرى الصواب كل الصواب في انتساب الولد الى امهاتهم على نحو ما جرت عليه الروم (وهم الليشيون فيما ذكره المؤرخ الاغريقي هيرودوتس)

ولحب الصحيح آثرت الروم انتساب الفتى الى أمهاته

ومن كان هذا رأيه في المرأة ، وكانت نصيحته للامان عليها الدفن أو على الأقل لزومها دارها حتى توافيها المنية فيؤمن عارها . فانه لا شك معارض في تعليمها منكر له ، لأن التعليم حاجة اجتماعية ، وقد حكم عليها فيلسوف المعرة بالبعد عن المجتمع

علموهن النسج والغزل والرد ن وخلوا كتابة وقراءه

وإذا كان لا بد من تعلمهن القرآن ، فان بعض السور القصار فيها الكفاية للصلاة

فصلاة الفتاة « بالحمد » و « الاخلاص » تجزى عن « يونس » و « براءه »

ولما كان البعض لا يقنعهم أن تكون بناتهم عارفات بدينهن ، حافظات للكتاب الكريم ، فهو يوصى ألا يدخل عليهن من المعلمين إلا عجوزاً متهدمة خمد فيها التفكير فيما تفكر المرأة فيه ، أو شيخا ضريراً فانيا لا يبصر لهن فتنة ، ولا تسعفه عليهن قوة

ليأخذن التلاوة عن عجوز   من اللائى فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح   ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن   إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير   يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشا يداه   ولمته من المتغمات

على ان أبا العلاء لا يرى للمرأة كاشتغالها بالمغزل والمردن ، ومما تجدر ملاحظته أنه لا يقصد بالغزل والردن الى مجرد التدبير المنزلى بل الى شغل بال المرأة واستغراق وقتها وحواسها لعلها تنسى ما تحفزها اليه طبيعتها من طلب الرجال وتلهيتها بغزل الخيط عن غزلهم

أو لا ، فأله العرس عن غزل لها   بالغزل ، فهى شقيقة العرناس

الا ان أبا العلاء من عرفنا مبلغ بره بأمه وجبه لها فى مرثيته فى سقط الزند وفى الكثير من رسائله . فهو يكف فى لزومياته عن ذم المرأة وينسى عداوته لها حين يذكر المرأة الام

العيش ماض ، فأكرم والديك به   والأم أولى باكرام واحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه   أمران بالفضل نالا كل انسان

كما أنه ألطف حسا وأسجح طبعا من ان يفوته تصور السعادة الزوجية لو تحقق بين الزوجين وفاق وأظلهما الصفاء . فالعروس الموافقة « جنة الرجل الاولى »

وجنتك الأولى عروسك وافقت   رضاك ، فان أجنتك فاجن ثمارها

وهو منكر لتعدد الزوجات منذر بسوء مغبته ، شاعر بما فى الضرار من ظلم للمرأة وجرح لعزتها وأذاة لشعورها . فيقول فى الحث على الاكتفاء بالواحدة

وواحدة كفتك ، فلا تجاوز   الى أخرى تجىء بمؤلمات

ويحذر من البناء بأكثر من زوجة فى مناسبات عدة منها

اذا كنت ذا ثنتين فاغد محاربا   عدوين ، واحذر من ثلاث ضرائر
وإن هن ابدين المودة والرضى   فكم من حقود غيبت فى السرائر
قرانك ما بين النساء أذية   لهن ، فلا تحمل أذاة الحرائر

ويشير إلى ما فى تعدد الزوجات من الغبن فى القسمة ومجافاة شريعة العدل فى المعاملة وهو يروى بلهجة الساخر المنتقد

تزوج بعد واحدة ثلاثا وقال لعرسه : يكفيك ربعى
فيرضيها إذا قنعت بقوت ويرجمها إذا مالت لتبع !
ومن جمع اثنتين فما توخى سبيل الحق فى خمس وربع

فابو العلاء الحدب الرحيم على كل ذى نسمة لا يعوزه الحدب على المرأة . وهو حين يلعنها لا يعنى الاساءة اليها . وانما هو يعرف أن هذه المخلوقة الجميلة الفاتنة هى حبالة الطبيعة لاستدامة النسل وبقاء الحياة . وهو دائم التعديد لأفانين زينتها وألوان وشيها وضروب حليها ، وماكان شاعرنا ليكره منها ذلك ، الا أنه يعرفها تتزين وتتحلى لا حبا فى الجمال ، فما هو من همها لذاته ، بل اجتذابا للرجل وتنبيها لحبه واستيلاء عليه ليقوم كالعبد على خدمة النسل . فالرجل عندها وسيلة — كما يقول نيتشة — والولد هو الغاية . ومن ثمة كان لا يعنيها الوفاء لزوجها إذا تعارض مع الوفاء للحياة ، فلا تملك أن تصون نفسها عن رجل يبذ بعلها فيما تطلب الحياة من مزايا . وليكن الولد بعد ذلك من فراش شرعى او غير شرعى ، فانه فى حكم الحياة نسل على كل حال

وسيان من أمه حرة حصان ، ومن أمه زانية

وليس يبين للعين فرق فى كيان الخلقة بين هؤلاء وهؤلاء

وما ميز الاطفال فى أشباحها للعين ، حل ولادة وعهار

فالمرأة لا شاغل لها غير وظيفتها الجنسية . وهى عندها السعادة الكبرى تطلبها بكل السبل لنفسها ما استطاعت ، ثم لمن تحب من بناتها وجاراتها . وما من امرأة إلا تلذ الوساطة فى تدبير الزواجات كما تهوى الفاجرة الجمع بين الرجال والغانيات . والمرأة بوجه عام أحرص ما تكون على شهود الأعراس وتسقط أخبار العلاقات الزوجية والمغامرات الغرامية . وقد يحسن الرجل منا الظن بما بين رجل وصاحبته ، ولكن النساء أسوأ منا ظنا بأنفسهن فلا يصدقن اجتماع رجل وامرأة على غير ريبة . فليس لشىء لديهن تفسير غير تفسيره الجنسى . فالجنس معنى الحياة عندهن وواسطة العقد فى تفكيرهن ومحور أفعالهن ، وذاك — ولا اختيار لأحد فى ذاك — حكم الطبيعة وسبيلها الى النسل وبقاء النوع . فلا غرو اذن وأبو العلاء إمام المتشائمين ومن أشد الكارهين للحياة ان يكون موقفه من المرأة موقفه من الحياة نفسها . فالمرأة هى الحياة مصغرة على حد قول الأستاذ العقاد ، وهى الأمينة عليها والكاهنة القائمة على محرابها تنفخ نارها وتأبى أن يخبو أوارها ، وهى هى مصدر هذا البقاء بما انطبع عليه من شر وما يجره من شقاء . وطبيعى من أبى العلاء وهو يرى دنياه شرا أن يرى التناسل تفاقما لهذا الشر : « تناسلوا فما شر بنسلهم » ثم يراه جناية يجنيها الناجل على ولده لانهم كما تشقى الدنيا بهم يشقون بها

على الولد يجنى والد ولو أنهم ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعداً من بنيك وزادهم عليك حقوداً أنهم نجباء

يرون أبا القاسم فى مؤرب من العقد ضلت حله الارباء

وهو يرى جناية الوالد على أبنائه مضاعفة لأنه إذ يعطيهم الحياة على مافيها من عنت وبلاء ، يجر عليهم مصير كل حى من غشية الموت وصرعته : « دع النسل ، ان النسل عقباه ميتة »

ومثله : وهـذا الدهر بشر بالمنايا فـلم فرحت ببشر ام بشر

لهذا ينصح أبو العلاء بعدم الزواج ، فاذا ألحت على الرجل الغريزة وخاف الاثم ، فله أن يتزوج ولـكن اياه والنسل

نصحتك لا تنكح ، فان خفت مأثما فأعرس ولا تنسل ، فذلك أحزم

وأسلم وجه للزواج دون نسل زواج العقيم

أرى النسل ذنبا للفتى لا يقاله فلا تنكحن الدهر غير عقيم

وهو يعجب لمن يعتدون عقم امرأة عذراً يبرر طلاقها وهو أولى بامساكها وايثارها

إن اليهودى خلى جهله امرأة كانت عقيما . وخير النسوة العقم

وأبو العلاء حريص على تقرير هذا الحكم وتكرير الدعوة الى العقم ، لأنه كاره للحياة معتبر اياها شرا ، وبدهى أن العقم انتحار للمجتمع وانقراض للنوع وابطال للحياة على اهون وجه بعد جيل واحد

وعطلوا هذه الدنيا ، فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

وانه ليدهش من اقامة الأفراح فى الاعراس مع ما فى الزواج من وخامة العقبى

بدا فرح من معرس ، ألما درى بما اختار من سوء الفعال وما جرا

ثم يمضى يؤرخ شر تأريخ للزواج من بدء أن عرف الرجل الأول المرأة الأولى

سعى آدم جد البرية فى أذي للذرية فى ظهره تشبه الذرا

تلا الناس فى النكراء نهج أبيهم وغر بنوه فى الحياة كما غرا

ولعله بعد شاك فى أن تصويره الفاجع لما يلقاه الأحياء عامة من محن وشدائد من جراء خروجهم للحياة بالغ فى نفوسنا مايريده من أثر . فهو يعمد الى تذكيرنا ما نحن فيه من عنت وبلاء علما منه أن كل انسان أحس بمصابه ، وأملأ به روعا ، وأشد له التياعا ، فعسى ذلك يكون أشفع منا عند أنفسنا الا نخلف بعدنا خلفا ، فيلقون ما لقينا ، ويكتوون بما اكتوينا

والفاك فيهـا والداك ، فلا تضع بها ولداً يلقى الشدائد والنكرا

ثم ماذا يرجو الوالدان من الولد ؟ ان كانا يرجوانهما لـكبرهما فقد ساء الفأل وطاش السهم ، فما نصيبهما منهم إلا العقوق

فكم ولد للوالدين مضيع يجازيهما بخلا بما نحلاه

طوى عنهما القوت الزهيد نفاسة وجراه سارا الحزن وارتحلاه

يعيرها طرفا من الغيظ شأفنا كأنهما فيما مضى تبلاه
ينام اذا ما ادنفا ، واذا سرى له الشكو بات الغمض ما اكتحلاه
يذم لفرط الغى ما فعلا به وأحسن وأجمل بالذى فعلاه

فكل شيء كما قدمنا فيه مقنع على ان المرأة حبالة غى ، وأن الزواج شر ، والنسل جناية . فما بال الخلق يتزوجون وينسلون ؟ ليست القضية هنا قضية عقل ، ولا المجال هنا مجال منطق . انها الطبيعة تسوم بنى آدم فى خدمة أغراضها سوم البهائم

كبار أناس مثل جلة سائم يربون أطفالا كما ارتضع البهم

إذن ، فما بال أبى العلاء لم يتزوج ، مثله فى ذلك مثل سائر الناس ؟ أتراه معتداً نفسه من طينة أكرم من طينتهم وجبلة أزكى من جبلتهم ؟ لو اعتد فلعله ما كان يكون مبطلا ولا محيلا فى نظر الأكثرين . ولكن الرجل ما برح إذ يذكر الناس ، يذكر أنه منهم ، حاشراً نفسه في زمرة من يذمهم ويزرى عليهم

بنى الدهر ، مهلا ! ان ذممت فعالكم فانى بنفسى لا محالة ابدأ

انما الأمركله أنه مفكر لا كالمفكرين . فقد قضى حكم الحياة أن يعيش هؤلاء ما عاشوا بشخصية مزدوجة ، يعلون على الناس برؤوسهم فرؤوسهم فى عليين ، وما سواها فغارق مع سائر الناس فى المادة والحمأ المسنون . وهم يدركون من الحياة أكاذيبها ، ولكنها بعد أكاذيب حيوية ضرورية للحياة التى هم أسراها ، فتراهم يرفضونها فكريا ويحيونها واقعيا . أما ابو العلاء فقد قارب جهد الطاقة ما بينه فى الواقع الموجود وبين مثاله المعنوى المنشود ، ورفض فعلا ما رفضه قولا ، واستطاع أن يعيش أفكاره . وذاك مطلب جد عسير ، لعله لم يكن بالغه لولا أن عاونت عليه ظروف وملابسات منها كفاف بصره وفقره ، وما ورثه من خصائص خلقيه كوقاره وكرامته على نفسه ولطف حسه بمواضع السخرية ، وما انقطع له طوال عمره من ادمان التحصيل والدرس واطالة التفكير والبحث ، واصطناعه كل ما من شأنه اماتة الجسد من تحريم لأكل اللحوم من حيوان وطير واقتصاره على الشعير والعدس والتين ولبسه غليظ الثياب واغتساله بالماء البارد فى الشتاء ، وغير ذلك من عوامل ارادية وخارجة عن ارادته يعرفها من قرأ سيرته

وبعد ، فلا نحب ان نختم هذا العرض لرأى أبى العلاء فى المرأة دون الاعتذار لفيلسوفنا عند سيداتنا . فالرجل — ياسيدتى — حين ذمك لم يمدح غيرك . بل برم — شأن السادة المتشائمين — بالدنيا : بكل ماطلع به نهار وخيم عليه ليل ، بالحياة كافة وبالاحياء اجمعين

فأف لعصريهم نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

عبد الرحمن صدقى

مقارنة بين علمي الشعر العربي

المعري والمتنبي

بقلم الدكتور ابراهيم ناجي

المتنبي رجل قوى متمرد طامع فى الملك والمال أى رجل حياة وكفاح ، أما المعرى فيمثل أعلى مراتب الفكر ، يمثل ذلك العقل الهادىء الذي تحدث عنه كونفشيوس وقال أنه لا يتاح إلا للقلائل فيملكهم ويحكمهم

المتنبي أول شاعر قرأته وأحببته وصحبت ديوانه حتى حفظته عن ظهر قلب ، وظل طويلا تحت وسادتى ، وقد خلت مكتبتى الآن من دواوين الشعر العربى ، أخذها أصحابى ولم يعيدوها ، ولكن بقى لى المتنبى يحيط به شك كبير من ناحية وشوق من الناحية الاخرى . أحببت فى المتنبي قوته ورجولته ، والألم المنبعث من نفس حساسة معذبة . ومما حببه الى أيضا أنى كنت أفهمه تماما بلا حاجة الى « الشروح » و « التعليقات » ، ان لم أفهم ألفاظه فهمت معانيه ، وان لم أفهم معانيه فهمت أنه كبير الآمال بعيد المرامي وهذا يكفيني منه

وكنت أكره المعري لسببين :

الأول انى كنت صغيراً حين قرأته فلم افهم مايريد أن يقول ، ولا احفظ له غير قصيدته المشهورة فى الرثاء « غير مجد فى ملتى واعتقادى »

والسبب الثانى أن لنا جاراً شغوفا به . وكان هذا الجار كلما لقينى امتحننى فى بيت من أبى العلاء ، وبرهن لى أنى لا أفهم شيئا ما دمت لا أفهم أبا العلاء

وسبب آخر : لقد كنت أومن أن الشعر عاطفة ، عاطفة محضة ، وكنت أعتقد أن حكمة المتنبى ليست « فلسفة » بمعنى الكلمة ، بل هى حكمة صادرة عن قلبه وألمه وتجاريبه . وطالما دافعت عن نظريتى في الشعر وهى أن الشعر عاطفة فقط ، واتهمت الذين يدسون الفلسفة فى الشعر بأنهم يفسدون الشعر علينا

ولكن الانسان كلما تقدم فى العمر طرأ عليه ما ليس فى الحسبان . فان مقالا واحداً قد يغير مجرى التفكير تغيراً تاما . وهذا ما حدث لى . جرى تطورى فى المعرفة على السنة المعروفة ـ قصص وشعر (عاطفة) ـ فحكمة ـ ففلسفة ـ فتصوف . وبينما انتقل من كاتب لكاتب ، اشغف بهذا ثم أتركه لآخر . تعلقت حينا بالعلامة المشهور جون ستيوارت ميل ، فقرأت له يوما مقالا عن « الشعر » علمت به ما لم أكن أعلم

ومنه أصبحت أنكر ما كنت أومن به سابقا ، وهو أن الشعر عاطفة محضة . وهذا المقال الفريد يعثر عليه فى كتاب « مقالات نقدية للقرن التاسع عشر » طبعة أوكسفورد ، وملخصه أن الشعر عاطفة حقا ولكن يجب ان يكون له «لجام» من الفلسفة . ولم ألبث بعد ستيوارت ميل أن تعلقت بالحكيم « رسكن » ، فقرأت له مقالا عن « نشاز » العاطفة فى الشعر وهو لايخرج فى معناه عن مقال ميل . .

فأخذت اقرأ الفلسفة فبدأت بالسهل ، وصرت اتدرج ، حتى وقع لى كتاب من أصعب الكتب وأغلاها قيمة كان هو السبب فى قراءتى لابى العلاء من جديد ، هذا الكتاب هو كتاب « السخرية » للفيلسوف ينكلفتش الروسى . بعد قراءة هذا الكتاب أخذت أعجب من اهمالى « للساخر » أبى العلاء ، الفيلسوف الشاعر المعتزل الزاهد مبتدع « الرمزية » فى الأدب أجيالا قبل أن ينتبه الشعراء اليها . . أخذت التفت الى أبى العلاء فوجدت نظرتي اليه قد تغيرت تماما ، وأعتقد ان ذلك ناشىء من نضج الفهم الادبى على السنين ، فالمعرى لايصح ان يقرأه الناشىء ، ولا المثقف ثقافة سطحية . وقد شكا الى صديق من كبار المتأدبين ، ان أشعار أبى العلاء فى اللزوميات متشابهة وانها كلها تدور حول نقطة واحدة ، فنبهته الى خطأ هذا الزعم وبينت له انه أعمق بكثير مما يظن الناس . وملتن الشاعر الانكليزى من هذا الطراز ، لا يحسن تذوقه الا المتمكن فى الدرس والثقافة ، ووردسورث كذلك ، لقح شعره بآثار الاطلاع الواسع والثقافة العميقة ، ولكن النقاد اليوم ينكرون عليه شاعريته ، ويقولون أن عاطفته « ضحلة » ولولا علمه الغزير ما قرأه الناس ، وأن الشاعرية الكاملة يمثلها شلى وحده

كنت أعتقد خطأ ان فلسفة أبي العلاء هى مجرد تأملات رجل «يدمن» التفكير ، حتى أحطت بما كتب عنه ، فصار ابو العلاء فى نظرى «سقراطا» ثانيا ، يسخر ويعلم ، ويعلم ويسخر ، فصار على رأى ينكلفتش « ضمير الانسانية » يستيقظ ويوقظ . . . يقظة صارمة تثير الشك المفيد ، وتدعو الناس الى اعادة النظر فى أمور الدنيا !

* * *

بعد هذه المقدمة نقارن بين المتنبي وأبي العلاء . والموازنة بين هذين الشاعرين تحتاج الى مجلد ضخم ، ويمنعنى ضيق المقام عن الاسترسال فى الكلام عن شاعرين أحببت احدهما صغيراً وشب حبه معى لم يتغير ، وأحببت الثانى على « فهم » وكبر

لا يمكن أن نفهم شيئا عن المتنبى أو أبى العلاء بغير أن نلم المامة بسيطة بعصريهما . العصران متقاربان ، المتنبى يسبق المعرى بستين عاما ، وكان ابو العلاء من أشد أنصار المتنبى ، وقد قلد شعره فى طور من أطوار حياته الادبية ، ودافع عنه ، وتعرض بسبب ذلك الى الأذى ، والقصة التى بينه وبين الشريف المرتضى مشهورة . غير أن الفترة التى قضاها المتنبى فى بلاط « سيف الدولة »

كانت عصر أمن نسبي ، فسيف الدولة كان رجلا عظيما ، وطالما حارب وانتصر دفاعا عن الاسلام ، وطالما رد الروم فى غزوات مجدها وخلدها المتنبى ، ولم يكد سيف الدولة يموت حتى أخذ ذلك الحصن المتين ينهار ، وكثر الطامعون والمغيرون ، والابطال والمدعون للبطولة ، والفاتحون بالسيف والفاتحون بالحيلة . فعصر أبى العلاء كان عصراً بغيضا مملوءاً بالانقسامات والدسائس ، ولا اعنى بذلك ان عصر المتنبى خلا من ذلك وقد كانت الفتن مشتعلة والاحزاب قائمة ، ولكن سيف الدولة كان « الرجل » الذى جرى فى خيال المتنبى

والمتنبى كان جباراً تام الرجولة ، وابو العلاء كان كفيف البصر ، فأقعدته هذه العلة عن السير فى السبيل الذى طرقه المتنبى لبلوغ أمانيه ، وان كانت المرامى البعيدة والاوطار الكبيرة هى هى عند كليهما . وليس ذلك بغريب فى عصر كان الناس فيه فى حاجة الى « رجل » ، بل الأصح الى « رجل عربى » صحيح العروبة يدرأ عن الاسلام الفرس والروم والديلم والفاطميين وغيرهم وغيرهم. أقول « صحيح العروبة » ، فقد كثر المتعربون والمستعربون وصار العرب الحقيقيون يسكنون جزءاً صغيراً منعزلا عن البادية ، ومن يقرأ تاريخ تلك الأيام بامعان ، يقرأ أسماء غريبة ، يقرأ اسم توشكين وابن سبكتكين ، وغير ذلك . . .

فانظر الى أى حد اختلط الحابل بالنابل

ومن العجيب ان الانحطاط السياسى قام فى ظله ارتفاع ادبى ، ولكنه أدب فى « المعانى » أى ثقافة وفلسفة من هنا وهناك ، أما الألفاظ العربية الصحيحة فيظهر أنها أخذت تختفى ، ولعل القوم كانوا فى حاجة الى « مجمع لغوى » اكثر من حاجتنا اليه اليوم

وقد أحس المتنبى بذلك ، وابو العلاء شعر به ، ويذكر الكاتب « هنرى برلاين » فى كتابه « ابو العلاء السورى » ان المتنبى كان يترك الحواضر الى البوادى أياما بحالها ، لكى « يتصيد » اللفظ العربى الصحيح ، ولكن المتنبي كان فنانا قبل كل شىء ، فاذا طاوعته اللفظة فى شعره وضعها ، وان لم تطعه وضع غيرها سواء أجرت على القياس أم لم تجر . . .

أما ابو العلاء فقد كان من علماء النحو والصرف والعروض ، وكانت احاطته باللغة احاطة منقطعة النظير ، واعتقد انه « التزم ما لا يلزم » متعمدا ان يحفظ للغة العربية « كلاسيكيتها » فى عصر كثرت فيه الفوضى وضربت أطنابها . وابو العلاء كان يستطيع أن يكون أى شىء ، كان يستطيع ان يقول كما قال المتنبى ، قولا ثائراً جزلا ، ويرق رقة ابى العتاهية ، فعنده من الخيال ومن « الطاقة » ، الشعرية ما يدركه لأول وهلة من قرأ « رسالة الغفران » وان تكن نثراً لا شعراً

وانما تعمد ابو العلاء ان يحفظ للغة القرآن جلالها وروعتها وأصولها

يذكر الذين قرأوا تاريخ عصر ابى العلاء ان صالح ابن مرداس كان من ابطال ذلك العهد ،

كان شجاعا فتاكا قوى المراس ، فمشى الى «المعرة» فى بعض جنوده فحاصرها ، ويظهر ان المعرى كان سيد اهل بلدته بالفكر أو بالنسب - فخرج اليه يشفع لقومه ، وقدم له استرحاما آية فى الرقة ، جعل ابن مرداس على غلظته يفك الحصار ويعفو . . .

ويصف ذلك ابو العلاء بقوله :

فيسمع مني سجع الحمام   واسمع منه زئير الاسد

ولماذا نذهب بعيداً . من يقرأ رسائل أبي العلاء لأصدقائه واخواله يرى النثر الصافي الرقيق العذب الذى يكتبه ابو العلاء على سجيته لا تعثر فيه ولا تفلسف وان كانت تغلب عليه « الصنعة » والمحسنات البيانية

***

المقارنة بين ابى العلاء والمتنبي تقتضى النظر فى :

(١) أثر الوراثة

ولد المتنبي فى الكوفة وقد زعموا ان والده كان يسقى الماء على ظهر جمل ، فعلى حسب هذا القول كان وضيع الأصل ، وهذا قول لا دليل على صحته مطلقا . ويقيني ان حول ولادة المتنبي سراً أخذه معه المتنبي الى قبره ، وكانت تعرفه جدته التى تولت تربيته . وقد اخبرته به ، وأوصته ان يكتمه ، فولد كتمانه فى نفس المتنبي مضضا وتمرداً كان لا شك سبب الثورة الدفينة فى أعماق نفسه ، فهو يوقن بنبل أصله ولسبب ما لا يستطيع أن يقول . ولو لم يكن نبيلا ما خرج فى شبابه الى القبائل يجمعها حوله ، والعشائر يدعوها الى التضافر حوله لغرض كبير ، ولو كان ابن سوقة ما جلس احد ممدوحيه العظام بين يديه ، وقد اجلس أبا الطيب مكانه ، ولو كان ابن سوقة ماجرت الالفة والمودة بينه وبين سيف الدولة ، ولما تطلع الى « خولة » أخت سيف الدولة محبا وطامعا فى الزواج كما تدل قصيدته الهائلة :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر   فزعت فيه بآمالى الى الكذب

فهذه قصيدة غير عادية . . .

كلا ان جمال سمته على ما ذكر الرواة ، وتلك « الوفرة الجميلة التى تصل الى اذنيه » لا تدل على ضعة الاصل . وشعره ليس فيه بيت واحد ينم على اصل خسيس ، ولعمرى لو كان وضيع الاصل لنم عليه ولو بيت واحد من شعره ، فالشعر مرآة لا تكذب ابداً . . . وقد يكذب المرء ما شاء ولكنه لا يستطيع ان يكذب فى شعره . . .

فانا أومن بنبل أصل المتنبي ايمانا تاما ، وأوقن ان أعداءه وحساده هم الذين خلقوا هذا « السقاء الكوفانى » خلقا وجعلوه أبا للمتنبي

فسر القوة فى شعر المتنبى ، هو ذلك الكتمان الذى عاناه منذ صباه ، والذى جعل فى باطن عقله « عقدة » كما يقول علماء النفس

أما المعرى فقد ولد بمعرة النعمان ، ونسبه لا خفاء فيه ، فهو من أسرة عريقة فى الفضل والعلم ـ على الأقل من ناحية أمه ـ ولا شك مطلقا فى أثر ذلك فى بناء شخصيته . أما « العقدة » عند المعرى فهى بلا شك فقدان بصره وهو صغير

فنحن نرى اذن أن المتنبى يعرف من أين انحدر ولا يستطيع أن يذيع ذلك لسبب لا نعرفه أو يحاول ان يذيعه فيحارب ويصدم ، والمعرى يعرف باليقين من أين انحدر . ويشعر من صباه بالقوة الموروثة الجارية فى دمه . ولكنه يفقد بصره . فيحول ذلك دون ما يبتغى من المطامع الواسعة

(٢) أثر البيئة والحوادث

كلا الرجلين يضيق ذرعاً بمكانه الصغير حيث ولد ونما فيخرج الى الدنيا الواسعة ليجرب حظه ، المتنبى يترك الكوفة ويثير ضجة حوله . فيقبض عليه ، ويسجن ثم يفك سراحه ، فيعود اليها ، ثم يملها فيهجرها من جديد ، وينتقل من هنا لهناك ، يبحث عن « رجل » فلا يجد ، فيعود الى الكوفة ليرى جدته ، فيمنع لسبب مجهول ، فينقلب الى الشام ، فى طلب ذلك « الرجل » الذى يتمناه فى خياله . فيلقى التنوخيين فى اللاذقية ، ثم يتصل بغيرهم وغيرهم ، وكلما شام برقا اتضح له خداعه ، حتى اتصل ببدر ابن عمار ، ولكن الوشاة أفسدوا عليه أحلامه ، وها هو ذا ما زال يبحث عن « رجل » يعينه على مآربه البعيدة ، ويشرح اليه دخيلة نفسه ، حتى اتصل بسيف الدولة فى حلب ووجد الضالة التى ينشدها من قديم . أما أبو العلاء ، فخرج من معرة النعمان يطلب العلم والجاه فى بغداد ، ولكن بغداد وأهلها خيبوا ظنه ، فانقلب راجعا الى المعرة وقد استن لنفسه قانونا صارما ، أخذ نفسه به الى يوم وفاته . لم يجد « رهين المحبسين » ضالته عند أحد ، فترك البحث وانقلب الى عزلته يدرس ويفكر ويتأمل . فكلا الرجلين شعر بضيق المكان الذى ولد فيه ، فخرج الى الدنيا العريضة يبحث عن مثله الأعلى ، أما المتنبى فقد أدى به تجواله الى سيف الدولة ، أما المعرى فلم يجد أحداً فلجأ الى العزلة واستن لنفسه سنة صارمة « والتزم ما لا يلزم » . أما المتنبى فقد اندفع فى غمار السياسة وطمع فى السيطرة والملك ليحقق ما يعرفه عن نبل أصله ، اما المعرى فعرف عبث الاشتباك فى تلك الفوضى التى لا حد لها ، وهو من أجل عاهته المحتومة ، بالطبع لا يستطيع ان يشترك فى امور تحتاج للبصر وما هو أبعد من البصر نفاذاً ، فانصرف الى ما يصلح له حقا ، وهو الدرس والتأمل ...

(٣) الانكباب على الدرس والاطلاع والتحقيق

أما المتنبي فدراسته بدأت بالكوفة ، وتمت ونضجت فى بلاط سيف الدولة ، حيث توافرت لديه المؤلفات والمراجع . وكان يجد نفسه مضطراً للاتقان والتجويد لكثرة الحساد والاعداء الذين كانوا ينتظرون فرصة للتشهير به . ولكنه لم يجعل شعره سجلا لثقافته الواسعة . ولكن كان شعره سجلا لعواطفه وحوادث أيامه . ويمكننا ان ندرس حياة المتنبي من شعره دراسة تامة . اما الموارد التى استقى منها المتنبي فهى الشائعة فى تلك الايام ، وأغلبها مترجمات عن اليونانية والفارسية والهندية بين أدب وفلسفة . وأعتقد ان المتنبي كان مضطراً الى الدرس والتحقيق ليكون كفؤاً بشعره للملوك الذين جعل نفسه نداً لهم لا مادحا . ومن الواضح ان اشتباكه فى غمار السياسة والخصومات الحزبية ، لم يترك له وقتا كافيا للاستزادة من القراءة والتحصيل ، وهذا سر الفرق بينه وبين المعرى الذى انقطع للعلم زهاء أربعين سنة . أما المعرى ، فقد ساعده انقطاعه التام لتحصيل العلم ،على بلوغ الغاية التى ضمنت له الخلود. وقد اشتغل بالشعر والنثر والفلسفة، واللغة بكل فروعها ، وألف كتبا كثيرة جداً ضاع أكثرها مع الاسف . فالمتنبي خلد بشعره القوى الثائر الذى هو سجل كامل لنفسه ولزمنه ، شعر تدعمه الثقافة والاطلاع الواسع ، صادر من القلب توا ، مبنى على أساس متين من التفكير السليم والعقل الراجح ، أما المعرى فرجل دارس Scholar جعل شعره فى أيامه الأخيرة اى فى اللزوميات ــ سجلا لمعرفته وقاموسا لمعلوماته . وهو مع كل ذلك لم يخل من قصائد ــ خاصة فى الرثاء ــ تتجلى فيها العاطفة القوية الرائعة

(٤) نفسيتهما

المتنبي رجل قوى متمرد يطلب « حقا » ويجرى وراء ثأر ، طامع فى الملك والمال ، يبحث عن « مثل أعلى » فيخيب امله ، وعندما يعثر على سيف الدولة ، يجرى من الحوادث ما يخرجه من بلاطه حزينا كئيبا ، وقد ظفر المتنبي بالمال والشهرة ولم يظفر بمطامعه السياسية . وقد عاش وهو ثائر ، ومات وهو ثائر ، ما أظن الحياة ولا الموت وجدا حيلة فى ذلك القلب القوى العنيف الذى ظل ينبض خلف التراب كما نبض فوق ظهره

أما أبو العلاء فيمثل أعلى مراتب العقل ، ذلك «العقل الهادىء» الذى تكلم عنه كونفوشيوس الصينى فقال أنه لا يتاح الا للقليلين جداً . . . ذلك العقل الذى ملك وحكم وصارت له السيطرة على صاحبه ، وعلى الحوادث حوله ، لاتزعزعه العواصف ، ولا تؤثر فى تفكيره الأعاصير . عقل ابى العلاء أمره أن يعتزل فاعتزل ، وأن يزهد فزهد ، وأن يلزم محبسيه فلزم ، كل ذلك فى هدوء وقوة وصبر هى من مواهب المختارين الذين أنعم الله عليهم ووهبهم من سره العظيم

ابراهيم ناجى

نواحي التجديد والتقليد

في نثر أبي العلاء

بقلم الاستاذ سليم الجندي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

ظهر ابو العلاء الى هذا الوجود فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة ، وهو العصر الذى نضج فيه العقل العربى ، وزخرت فيه بحور العلم وأثرى فيه الأدب ، ونزع الـكتاب والشعراء فيه الى الترف الادبى وأولعوا بالتأنق والزخرفة ، وكانت جمهرة الـكتاب ترسم خطى ابن العميد فى الطريقة التى شرعها فى الأنشاء ، لما بينها وبين الشعر من الصلات الموثقة والأواصر المحكمة ، حتى قيل : انها شعر لا ينقصه إلا الوزن

ولا شك أن الانشاء فى كل عصر مظهر من مظاهر العقل ، ومعرض يعرض فيه الـكتاب ثمرات قرائحهم ونتاج أخيلتهم ، وميدان يظهر فيه كل واحد منهم ما أوتيه من حول وطول

وقد نهز ابو العلاء مع الـكتاب بدلوه ، وأسام سرحه حيث أساموا . ولـكن غزارة علمه وسعة مواهبه الفطرية قضتا عليه أن يخرج عنهم فى بعض طريقهم ، وأن يشق لنفسه طريقا يكون أبا عذرتها ففعل ، وجشم نفسه مالم يجشموا أنفسهم

غموض لغته

هل كان فى لغته غموض متعمد ؟

كان ابو العلاء واسع الاطلاع على أساليب البلغاء ، بصيراً بالدقيق من أسرار البـلاغة ، عالما جد العلم باللغة ، محيطا بالغريب والنادر منها ، ولا أغالى اذا قلت : انه كان يعى فى صدره من أبنيتها ومفرداتها مالم يحط بمثله عربي قح . وقد قال تلميذه ابو زكريا التبريزى ـ وهو أعرف الناس به وأصدقهم شهادة فيه ـ ما أعرف ان العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها ابو العلاء . وذكر أن جماعة ممن كانوا يقرأون عليه أرادوا أن يختبروا علمه ويمتحنوا ثقته ، فوضعوا حروفا والفوها كلمات ، ثم اضافوا اليها كلمات أخرى من غريب اللغة ، وسألوه عن جميع ذلك ، فـكان اذا مرت به كلمة مما وضعوه أنكرها واستعادها مراراً ثم قال : دعوا هذه ، واذا مرت به كلمة لغوية شرحها واستشهد عليها ، حتى اذا انتهوا أطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : كأنى بكم وقد وضعتم هذه الـكلمات لتمتحنوا بها معرفتى وثقة روايتى ، والله

لئن لم تكشفوا لى الحال لأفارقنكم ، فقالوا : والله ان الأمر كما قلت وما عدوت ما قصدناه ، فقال : سبحان الله ، والله ما أقول إلا ما قالت العرب ، والرائد لا يكذب أهله . وقصته حين قال فى مجلس الشريف المرتضى : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما مشهورة

ولعل قائلا يقول ان فى هذا غلواً شديداً ، فنقول له : دع كل ما قيل وأجل طرفك فيما انتهى الينا من آثاره فان فيه على ما قلناه أصدق شاهد على غزارة مادته وشدة استيعابه ، منه ما فى رسالة الغفران حين ذكر بيتين للنمر بن تولب وهما :

ألم بصحبتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلا مصفى اذا شاءت وحوارى بسمن

ثم ذكر حكاية خلف الاحمر مع أصحابه ، وخلاصتها أنه قال لهم لو كان موضع أم حصن أم حفص ما كان يقول فى هذا البيت ؟ فسكتوا . فقال : حوارى بلمص يعنى الفالوذج

وأراد ابو العلاء أن يبين أنه أطول باعا فى اللغة من أصحاب خلف ومن خلف نفسه فقال : ويفرع على هذه الحكاية ، فيقال : لو كان مكان أم حصن أم جزء لاحتمل أن يقال وحوارى بكشء ، أو وحوارى بوزء ، أو وحوارى بنسء ، ثم انتقل الى حرف الباء فأتى بثلاث كلمات صالحة لذلك هى : بضرب ، بارب ، بكشب ، ثم انتقل الى حرف التاء فالثاء فالجيم فالحاء حتى انتهى الى آخر الحروف الهجائية ، وكان يذكر فى بعض الحروف كلمات متعددة ويفسر كل واحدة منها ويبين أصلها واشتقاقها وقد يستشهد على ذلك بشىء من الشعر أو الرجز ، ثم اعتذر عن اقتصاره على هذا القدر ، فقال : وهذا فصل يتسع ، ويفهم من قوله هذا أن فى استطاعته أن يزيد على ما ذكر ، وهذا القدر الذى اقتصر عليه لا يستطيع أحد غيره أن يأتى بمثله

وفى كتبه لزوم ما لا يلزم ، والفصول والغايات ، وملقى السبيل ، وسقط الزند ، غنية للباحث ومقنع للمرتاب ، ولا نجد فى نثره ونظمه على كثرة ما فيهما من الالفاظ كلمة فاحشة يأباها الأدب ويمجها الذوق ، وقلما نجد ناثراً أو ناظما نزه الفاظه مما تتقزز النفوس منه بقدرما نزهها شيخ المعرة

وكان ابو العلاء كثير الدراسة والتأليف والنظم ، شديد الممارسة للالفاظ ، فلم يجد فيها من الوحشة والغرابة ما يجده من كان أقل منه مدارسة وأنزر ممارسة ، وهذا يدل على أنه لم يتعمد ايراد الغريب ليستر تحته ما يريد من غمز أو تهكم أو سخرية أو نحوها ، ويقوى هذا ان أبا العلاء صرح فى نظمه ونثره بما هو أولى بالكتمان والاخفاء من غيره ، فقد جاهر بما يعتقده ويأباه فى باب العقائد ، واعترض على الشرائع والمذاهب والنحل ، وانتقد الحكومات والعادات والاخلاق ، وواجه كل فريق بأشد مالديه من النقد اللاذع الصريح ، ولم يعمد الى تقية ولا مواربة ولم يتعمد اخفاء شىء من ذلك تحت كلمة حوشية أو لفظة غريبة

فيكون ما فى كلامه من الغريب فى رأى أناس غير غريب بالنسبة اليه ، وغير متعمد لاخفاء

شيء في مطاويه ، وانما هو أثر الثروة اللغوية . ويكون غير غريب بالنسبة الى زمانه والى من كتب اليه ، لأن التاريخ لم يحدثنا ان احداً طلب من أبي العلاء أن يفسر له شيئا من كلامه ، على أنه كان يفسر في نظمه ونثره كثيراً من الكلمات ويبين اشتقاقها والمراد منها حذراً من أن تعبث بها أيدي الجهالة

خصائص نثره

واذا تبينا لغة المعري وبراءتها من تعمد الغموض وجب أن نبين خصائص نثره وهي كثيرة منها :

السجع والبديع كلف كتاب هذا العصر بالسجع حتى استفاض في الطبقات عامة ، وقد ساهم أبو العلاء فيه فكان له حظ عظيم في رسائله وقلما تخلى عنه . ولعله كان يعجبه ويطربه ، وكثيرا ما الجأه الحرص عليه الى تأخير ما حقه التقديم ، وتقديم ما حقه التأخير ، والاطناب في مواطن الايجاز ، واثبات كلمات في المأنوس ما يغني عنها ، وإن الناظر في نثره يجده مغموراً بالكلفة غاصا بالتعمل

ويرافق السجع في انشائه كثير من أنواع البديع المتعمدة كلزوم مالا يلزم ، مثل قوله في رسالة المنيح « المعنى الحصير ، في الوزن القصير . أن تغزل فحنين العود ، أو تجزل فهدير الرعود » والترصيع كقوله فيها : « ضبب الآفن لعب الصافن . اهواء الرادس لارواء القادس » الى غير ذلك من الجناس والطباق والمقابلة ونحوها مما هو مستفيض في كتابه

الامثال والحكم ومن استقرى رسائل المعري وجد فيها طائفة كبيرة من الأمثال وما جرى مجراها من الكلم الطيب ، وسبيله في استعمالها غير مطرد ، فتارة يأتي بالمثل على وجهه الذي قيل فيه ، وأخرى يتصرف فيه زيادة ونقصا بقدر ما يقتضيه السجع أو المقام ، كقوله في رسالة المنيح : « يحول الجريض دون القريض » وفي رسالة أخرى : « فاذا أعطيت القوس باريها ، والخيل فارسها ، والقناة مصرفها ، اعيتني بأشر فكيف بدردر »

وكثيراً ما يأتي بالمثل أو الحكمة من نتاج قريحته ، ولا شك ان أبا العلاء أكثر الكتاب ضربا للامثال ، ولولا أن بعض لفظه غير مأنوس عند فريق من الكتاب لكان من أمثاله وحكمه أفضل عدة للكاتب وخير ذخيرة للاديب

التاريخ اتفق لكثير من الكتاب أن يلمحوا في رسائلهم الى شيء من الحوادث التاريخية ، ويشيروا الى بعض رجال اشتهروا في التاريخ بحوادث معينة . أما أبو العلاء فكان طويل الباع في معرفة الرجال وما لها من مثالب ومناقب ، وواسع الاطلاع على مامر في الايام الخالية من الحوادث كما قال :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف

ولذلك كان للتاريخ حظ وافر في نثره ، قد لا يجد الباحث معشاره في كلام غيره من أعلام البيان

وأئمة الكتاب . ولقد ألم فى رسالة المنيح الى موسى الكليم وعصاه وآياته التسع ، والى ابراهيم ومقامه ، وآدم وما يزعمه الناس فى أصل الطيب ، والى شداد بن عاد ، وسليمان والهدهد . . .

وتصدى فى رسالة الاغريض الى ذكر دريد وقصير وفرسه وعنتره وامرىء القيس واخوة يوسف والامام أبى يوسف وبنى سدوس وعبد المدان وسبأ بن يعرب وبنى المنذر وغيرهم

وفى كتابه الذى عزى فيه خاله اتى على ذكر الانبياء من آدم الى محمد ، ثم عقب ذلك بمصارع الملوك من سبأ وحمير ، وملوك العرب فى الشام والحيرة ، وجماعة من الأجواد والأنجاد ، ثم استطرد الى مصارع الحيوان فلم يفلت منه أسد فما دونه ، ولا ذرة فما فوقها ، ثم حلق فى الجو وتتبع العقبان والغربان الى الجرادة فالنحلة ، ثم غاص فى البحر فتقصى الحيتان والضفادع . . . ولا يعرف مثل هذا الاستقصاء والتوسع فى مثل هذه الكثرة عند غير المعرى

المصطلحات والمسائل العلمية

ذكر بعض الرواة أن ابن المقفع كان يتوقف اذا كتب ، فقيل له فى ذلك فقال : « ان الكلام ايزدحم فى صدرى فأقف لأتخيره »

وابو العلاء اذا كتب ازدحمت فى صدره مسائل العلم فيغترف من بحر لا ينكش ، ويمتح من معين لا ينضب ، ولا يتوقف ، ولا يتجمجم ، فتراه ينثر فى تضاعيف سطوره كثيراً من المصطلحات والمسائل العلمية من فنون مختلفة . فاذا نظرت فى رسالة الاغريض رأيت فيها الفاعل والمبتدا والخفض والنداء وهاء العدد والف الوصل ونحوها من مصطلح النحاة ، والى جانب ذلك الضرب الاول من الطويل والمنسرح والوافر والقبض والخبل والعصب والدائرة الرابعة . . واشباه ذلك من مصطلح العروضيين ، ثم لا تلبث ان تمر بالحروف المذلقة والمطبقة والرخوة والجهر والهمس من المتعارف عند القراء فى التجويد ، وهكذا تنتقل من مصطلحات الفقهاء الى المتعارف عند الطبعيين واللغويين ، كأنك فى معرض تعرض فيه أصناف من مسائل العلم

ورسالته الى ابى الحسين البصرى أشبه بكتاب فى العروض والنحو منها برسالة أخوية ، لكثرة ما فيها من البحث فى الزحافات والعلل وعيوب القافية وغيرها من مسائل علم العروض ، ولكثرة ما فيها من أحكام الاسماء والأفعال والاعلام وحروف المعانى وغيرها من مسائل النحو

النجوم

أما النجوم فلايعرف فى أدباء العرب من استوعب فى كلامه من اسماء النجوم ما استوعبه المعرى ، وكأنه أحاط بكل مايعرفه العرب من اسمائها وما يعتقده المنجمون وغيرهم فيها . وانك لتجد فى رسالة المنيح مثلا ذكر الشمس والقمر والسهى والغفر والجوزاء والجبهة والقطب والنسر والمشترى والزهرة والسرطان وزحل والسماك والعيون وسهيل والنعائم وغيرها . وفى رسالة الاغريض كثير من غير ما تقدم كالثريا والشرطين والبطين والرشاء والنثرة والفرقد وسعد الاخبية . . . والغريب انه يمهد السبيل لذكر كل نجم ويحكم المناسبة لذكره وكثيرا ما يحسن ذكر خصائصه وربطها بالسابق واللاحق من الكلام

الاستقصاء وقد تقدم مايدل على أن المعرى واسع الاطلاع غزير المادة وكان مولعا بالبحث والتقصى ، وقد تمر به الكلمة فلا يتعداها حتى يوفيها حقها من البحث ويحيط بكل ما له صلة بها ويقيم الادلة على رأيه فيها

وكان ابو الحسين النكتي قد كتب اليه كتابا أخطأ فيه في اسمه وكنيته فسماه محمداً بدلا من احمد ، وكناه بأبي العلى بالقصر بدلا من أبي العلاء بالمد . فكتب اليه أبو العلاء جوابا ما ترك فيه شيئا من الاحكام التي تتعلق بتغيير الاسماء ، وتعددها والتصرف بها وما يعتريها من الضرورات الا اتى على ذكره وايده بالشواهد المتعددة ، وكذلك فعل بالكنية

ولا شك ان هذا أثر من آثار الثروة العلمية . وحسبك ما تراه في رسالة الغفران من الادلة على سعة علمه وحبه الاستقصاء . فانه ذكر في فاتحتها لفظ الحماطة ، ثم لم يتجاوز هذا اللفظ قليلا حتى عاد اليه ففسره وبين مايريد منه واورد شواهد عليه ، وفعل مثل هذا بلفظ الحضب والاسود والابيضين . واذا مرت به مسألة لغوية أو أدبية ألح عليها بالبحث وأضاف اليها الاشباه والنظائر ، وناقش فيها العلماء والشعراء والرواة ، وبين مواطن الضعف والخطأ في أقوالهم . وقلما عرف مثل ذلك لغيره من العلماء أو الادباء

خصب الخيال وقد لا يكون من المغالاة في شيء أن يقال إن أبا العلاء أخصب الشعراء والكتاب خيالا وأوسعهم تصورا وأبرعهم في احكام الصور المتخيلة والتفنن بها . وهذا كتابه سقط الزند يعرض للمتأمل صوراً متنوعة من أخيلته البديعة ، وهي وان كانت قصيرة اللفظ واسعة المدى : تدل على تفكير عميق في تخيلها ، وتنسيق مستجاد في ترتيبها ، وبراعة فائقة في تخير القوالب اللفظية لها

فاذا تأملت وصفه الغبار رأيته كالجبل الشامخ باضت فيه النسور وترعرعت أفراخها فيه ، ثم لا تلبث أن تراه يسمو الى السحاب فيخالط ماءه فيمطر مطراً كدراً منه

فاذا غادرته الى وصف منهل بين ريف الشام والكرخ . رأيت الصبا فيه كأنها تراقب كامنا ، ورأد الضحى يمر به متنكراً مخافة أن يغتاله بقتامه . والنجم لا يهتدى لسبيله فيه ، والموت قد عشي بظلامه فلا يبصر من يقصد الا اذا انقشع عنه . والطيف يرتد خشية منه . والليل قد شاب قبل احتلامه من هوله

فاذا عرجت ببصرك نحو السماء رأيت الهلال يعتنق الثريا . وسهيلا يسرع اللمح في احمراره ، مستبداً كالفارس المعلم ووراءه قدماه . . .

وإذا رجعت ببصرك الى السيف رأيت المنايا مسخت نمالا ودبت فوقه ، وماؤه يتردد على صفحتيه يهم بالزوال فلا يتمكن ، الى غير ذلك من الصور الرائعة البارعة في نظمه

أما نثره ففيه على قلة ما وصل الينا منه ألوان متعددة ، وصور مختلفة من الاخيلة . ولعل

أظهر أثر تتجلى فيه سعة خياله رسالة الغفران ، فان فيها من الروعة والافتنان ما يقصر المتطاول عنه. مثل فيها القيامة ، وألم الى ما يعتقده المسلمون وغيرهم من أصحاب الديانات فى الجنة والنار والبعث والحساب والحور والولدان والانهار والآنية والطيور والشفاعات و . . . . ووسع الرحمة فادخل فى الجنة من تضيق الشرائع عن ادخاله فيها وتجاوز عمن لم يتجاوز عنهم . وزاد على ذلك ما أحدثه من اللجاجة والخصومة بين ابن القارح وسادن الجنة ، وبين العلماء والرواة والشعراء من الملاحاة من اجل رواية بيت أو تحريف كلمة عن وجهها أو تأويلها على غير ما يريد قائلها

واخترع جنة للعفاريت اجتمع فيها ابن القارح بشيخ منهم يقال له الخنيقور ابو هدرش وسأله عن شعر الجن فأخبره أن لهم آلافا من الأوزان ما سمع بها الانس ، وأن لشاعر واحد منهم الف كلمة على روى معلقة امرىء القيس ومنزل فحومل . والفا على منزلْ . والفا على منزلا . والفا على منزلَه . والفا على منزلِه . والفا على منزلُه . ثم أسمعه شعرا أشبه بكلام الجن منه بكلام الانس

ولا شك أن هذه القصة وليدة خيال المعرى وربيبة فكر لم يطبع فيها على غرار غيره ، ولا ترسم خطى سواه . وان ذهب بعض الادباء الى أن المعرى اقتبسها من أقاصيص الوعاظ وليس له فيها غير التنسيق والسخرية لأننا لا نعلم فى أقاصيص الوعاظ ذكراً لابن القارح وحديثه مع خازن الجنة ، ولا لعبد المنعم قاضى حلب ، ولا للجحجلول الكفرطابى ، ولا لأبى هدرش وشعره ، ولا لجنة العفاريت ، ولا حديثا يدور بين شاعر أو راوية أو عالم مع غيره ممن ذكروا فى رسالة الغفران. وانما تخيل ابو العلاء هذه القصة واستعان ببعض العناصر المعتقدة ليجعلها كانها حقيقة كما يفعل ذلك أصحاب القصص الخيالية حيث يذكرون كثيراً من أسماء الرجال والأماكن ليجعلوها شبيهة بالحقيقة. وأبو العلاء ابتكر هذا الطراز ليبين ما يريده من النقد والغمز والتهكم والاستخفاف ، ولذلك جعل ابن القارح فى رحلته فى الجنة ينثر على حافتي طريقه طرفا من التحقيق والنقد والسخرية

أغراض رسائله

لم يقتصر أبو العلاء فى نثره على غرض واحد وانما ألم بأغراض متعددة كالمدح والتهنئة والتعزية والشفاعة والوصف والنقد . وسنخص الغرضين الاخيرين بشيء من الحديث المفصل

الوصف للوصف نصيب وافر فى نثر أبي العلاء يستمد بعض معانيه المحسوسة مما حفظ وسمع ، وقد يتصرف فيه توليداً ونقصا وزيادة فيحسن ويجيد ، ويستمد بعضا آخر منها من طبعه ، وهو فى وصفه الأشياء المعنوية ليس أقل اجادة منه فى الأشياء المحسوسة وكذلك كان سبيله فى وصفه الشعرى . وقد يروعك منه براعته فى التشبيه بما يستهوى الأفئدة ويملك المشاعر وكثيراً ما أورد صوراً محسوسة يعجز عن مثلها البصراء

وصف كتابا ارسله اليه الوزير المغربى فجعله أعذب من سلاف العنقود واحسن من الدينار

للنقود ، مشرقا كلوائح البروق ، أو يوح عند الشروق ، وشبه كاتبه بالنحلة تطعم الغرب ، وتجود بالضرب ، وتجنى مر الأنوار فيعود شهداً ، وخادمه بموسى الكليم ، وكتابه بالألواح ، وقصيدته بعصا موسى ، وما فيه من المعنى الجليل في اللفظ القليل بصورة كسرى فى الطاس وقيصر فى الدينار

وشبه كتاب مختصر اصلاح المنطق فى رسالة الاغريض بدلالته على جوامع اللغة على صغر حجمه بالضمير الدال على الاسماء الكثيرة ، ومرآة المنجم لستوعب على صغرها القمرين والنجوم . . .

وقلما خلا كتاب له من وصف رائع وتشبيه بديع لا يقصر فيهما عن ابن الرومى وابن المعتز

النقد

يتضح مما تقدم ان المعرى كان مرهف الحس دقيق الفطنة مفرط الذكاء سليم الحافظة ، مولعا بالبحث والتمحيص والاستقراء عميق التفكير ، فلا يكاد يمر به شيء الا قلبه على وجوهه وسبر أغواره . وقد درس الحياة وما فيها من أخلاق وعادات وعقائد درسا علميا فكونت هذه العوامل فى نفسه ملكة قوية فى النقد أساسها العلم ونبراسها العقل واستطاع ان يكون المجلى فى هذا المضمار وأن يأتى بضروب مختلفة من أشكاله فى نظمه ونثره

ومن أمعن النظر فى نثره تبين ان له طريقتين فى النقد ترجع احداهما الى مسائل العلم وتتعلق الثانية بالاخلاق والعادات والنزاعم ونحوها . وفى كلتا الطريقتين لا يخلو كلامه على عفة الفاظه من تهكم لاذع واستخفاف ممض وسخرية موجعة . ولعله كان يذهب الى ان هذا السبيل أشد ايلاما للخصم وأبلغ أثراً فى نفسه مع ما فيه من الطرافة . واليك مثالا من جوابه الى أبى الحسين النكتي الذى بدل اسمه وقصر كنيته :

« دلنى كتابه على أنه يحسبنى قد أضعت وده وتناسيت عهده ، انى إذا لمن الظالمين . عرفنى بنفسه انه من اهل البصرة وقد صح معى انه من اهل البصيرة الساكنة فى خلده ، وتلك أجل من البصرة بلده ، وهل البصرة الا حجارة بيض ، يطؤها انسان وربيض . وأهل البصرة سلمهم الله ينسبون الى قلة الحنين ، أليس قد مرت به الحكاية وهى أنه وجد على حجر مكتوب

ما من غريب وان أبدى تجلده الا سيذكر عند الغربة الوطنا

« وقد كتب تحته : الا اهل البصرة ، فاذا كانت تلك سجيتهم مع اهلهم واوطانهم ، فكيف بالذين عرفوهم من اخوانهم ... ولعل سيدى الشيخ ظن انى مكنى بعلى التى هي من حروف الخفض ولو كان كذلك لوجب ان يقال ابو على ... وان كان تأول انى مكنى بعلا الذى هو فعل ماض فهو فى التعرية من الالف واللام مثل الأول . . . »

فهذه الرسالة تدلنا كيف كان المعرى يحمل كلام صاحبه على محامل لا وجه لها ويتأول كلامه ، ويبين له مذاهب العلماء فيما يجوز من ذلك وما لا يجوز ، وكيف كان يدس التهكم والسخرية فى تضاعيف كلامه دس السم فى الدسم . وإذا تصفحنا رسالة الغفران وشايعنا الرأى القائل ان كل ما فيها من هذا النوع رأينا المعرى يحلق فى جو لا يباريه فيه مبار ويجلى فى مضمار لم يتقدمه فيه سابق

ولا شق غباره لاحق . وليست براعتـه فى النقد والتهكم فى نثره بأعظم منها فى شعره فى لزوم ما لا يلزم من هذا النوع شيء كثير لا سيما حين يتكلم فى الشرائع والنبوات والعقائد

يتحصل مما تقدم ان ابا العلاء فى نثره متبع مقلد من ناحية ومبتدع مجدد من ناحية أخرى

أما تقليده فانه طبع على غرار الجاحظ فى الاستطراد من غرض الى آخر ، ثم الرجوع الى الاول. وفى الأغراض بجمل الدعاء وحل المسائل والاستقصاء وترادف بعض الجمل على معنى واحد

واحتذى على مثال ابن العميد فى التقيد بالسجع وتعمد المحسنات البديعية والاقتباس وتضمين الامثال والايات والتلميح الى الحوادث

نواحي التجديد

وأما تجديده فله نواح متعددة منها احداثه النثر العلمى ، فقد كان بعض الـكتاب قبل أبى العلاء يتصدى فى بعض رسائله الأخوية لذكر مسألة أو مسألتين من علم اللغة أو غيره اما ان تكون الرسالة الأخوية جامعة لمباحث متعددة من علم او علوم مختلفة مشتملة على تحقيق علمى فلا عهد للـكتاب به من قبل ، فيكون المعري أول من أحدث النثر العلمى فى النثر كما كان أول من أحدث الشعر الفلسفى فى الشعر . ومنها الأسلوب القصصى الخيالى فى الرسائل الأخوية فان هذا لم يقع منه للمتقدمين الا النزر ، وهو على قلته موجز ، ولم تعرف العرب قصة خيالية تشبه رسالة الغفران فى أسلوبها وسعة خيالها وكثرة ما فيها من التحقيق والمسائل العلمية

وكذلك شأن النقد فقد كان مختصا بكتب العلم والأدب ولا تعرف رسالة قبل رسالة الغفران ورسالة النكتى البصرى اشتملت على مثل ما اشتملت عليه هاتان الرسالتان

ويجوز ان يقال ان ابا العلاء لم يقـلد الجاحظ ولا ابن العميد لأنه لم يلتزم طريقة معينة من طريقتيهما وانما اتخذ لنفسه طريقة جديدة جمع فيها بين طريقتيهما وزاد عليهما ما زاد مما ذكرناه

وعلى هذا يسوغ ان يقال ان أبا العلاء مجدد فى كل ناحية من نواحى نثره . وهذا يحتاج الى اطالة وبسط فى ذكر الامثلة واقامة الادلة وذلك مالم تسمح به الأيام ويسعف به المقام

ولو أتيح لهذه الأمة أن تظفر بكل ما تركه المعرى من الآثار العلمية لوجدت فيه علما جما وأدبا غزيراً وشعراً وافراً . واذا سلك الانسان سبيل الحق لا يجد فى نثر المعرى شيئا مما يعاب به الا السجع المتكلف الذى كان مرغوبا فيه فى عصره مرغوبا عنه فى هذا العصر ، وما عدا ذلك فكله آية فى الروعة غاية فى الاجادة والافادة ، ولا بد للحسناء من ذام ، وقلما سلم جواد من كبوة ، وسيف من نبوة ، وانما الـكمال لله وحده !

سليم الجندى

فلسفة التشاؤم

بين المعرى وشوبنهور

بقلم الاستاذ علي أدهم

حاول شوبنهور وابو العلاء القضاء على الاوهام وتبديد الأكاذيب ورفع الستار عن خدعة الحياة . وهما من هذه الناحية يمثلان جرأة الفكر فى أروع مظاهرها

بين أبي العلاء شاعر المعرة الفذ وحكيمها الأوحد وارثر شوبنهور فيلسوف فرانكفورت الكبير، الكثير من وجوه الشبه وأواصر القربى ، على تباعد الزمن واختلاف المكان وتباين الأصول . وهما يتقاربان فى اتجاه التفكير ولون المزاج واساليب الحياة ، وان كان بينهما تفاوت بعيد فى منهج البحث والقدرة على ضبط النفس وكبح اهوائها ، وكلاهما يلمح الكون بناظر المتسخط المتبرم ويرى الأشياء فى ظلال قاتمة من التشاؤم والاكتئاب ، وينتهى به الأمر الى رفض الحياة رفضا باتا لاقترانها بالألم وامتزاجها بالشر واقفارها من المسرات ، ويرى ايثار العدم المطلق والفناء التام على الوجود والكينونة . وشوبنهور لا يرى فى الانتحار كبير بأس ، ويحاول تفنيد آراء من يحبذونه ، ويبشر بالزهد ويدعو الى مقاومة الرغبة فى الحياة والتعلق بها والحرص عليها ، وابو العلاء يدعو الى هذا المذهب ويقول فى ايثار العدم على الوجود

وأرحت أولادى فهم فى نعمة العــدم التى فضلت نعيم العاجل
ولو انهم ظهروا لعانوا شدة ترميهم فى متلفات هواجل

ويقول :

خير لآدم والخلق الذى خرجوا من ظهره أن يكونوا قبل ماخلقوا

والعدم عند المعرى ــ وكذلك عند شوبنهور ــ طريق الخلاص .

وما لنفسى خلاص من نوائبها ولا لغيرى إلا الكون فى العدم

وما دام العدم خيراً من الوجود وأرجح وزنا فالنسل إذن جناية . وقد أغراه ايثاره العــدم واعتباره النسل جناية بأن يوصى بأن يكتب على قبره

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وقد عاش شوبنهور كما عاش المعرى أعزب من غير نسل ولا زواج ولم يكن ينتظر من

شوبنهور الذى يقول عن الحياة « انها جحيم يفوق جحيم دانتى » أن يقذف الى هذا الجحيم المتسعر بأولاده وذراريه ليعانوا آلام الحياة التى يعرفها بأنها لحظة قصيرة بين ابديتين

ويقرر ابو العلاء أنه يجهل حكمة الوجود ويقول :

خلقنا لشىء غير باد وانما نعيش قليلا ثم يدركنا الهلك

أما شوبنهور فانه يقول : « اذا لم يكن الشقاء هو غرض الحياة وغايتها فانى أستطيع ان أؤكد ان وجودنا فى الحياة انأى الاشياء عن الغرض والقصد ، لأنه من السخف أن نظن أن الحزن غير المحدود الذى يغشى الدنيا ويغمر الحياة والذى ينشأ من شجون ورزايا متصلة أشد اتصال بجوهر الحياة « هو بلا غرض ومجرد حادث عرضى » وواضح من ذلك ان الشقاء عند شوبنهور هو « غاية الحياة » و « حكمة الوجود » ، وابو العلاء يرى الشقاء من واجبات الحياة

قالت لى النفس انى فى أذى وقذى فقلت صبراً وتسليما « كذا يجب »

ويقول شوبنهور « الدنيا لا تسر انسانا وكل منا ينفق جهده ويمضى حياته فى طلب السعادة التى لاينالها واذا ظفر بها وجدها وهما من الاوهام وانما القاعدة أن الانسان لايصل المرفأ إلا بعد أن يتحطم زورقه ويسقط شراعه» وابو العلاء يجاريه فى هذا المضمار ويقول :

ودنياك ليست للسرور معدة فمن ناله من أهلها فهو سارق

وبؤس الانسان عند أبى العلاء لا يبدأ بمولده وانما يسبق ذلك لأنه يلحقه عند انبعاث الروح فى النطفة

وما برح ألانسان في البؤس مذجرت به الروح لامذ زال عن رأسه الفرس

ولعل الموت أهون مصائب الحياة وقعا

مصائب هذه الدنيا كثير وأيسرها على الفطن الحمام

وكلا الرجلين سيء الظن بالطبيعة الانسانية شديد الازدراء لها بارع فى الكشف عن عيوبها ومساوئها واحصاء نقائصها ومثالبها . ومن أقوال شوبنهور فى ذلك « سلوك الانسان نحو الانسان يتميز على الدوام بالقسوة البالغة والغلظة الصماء والافراط فى الجفوة والامعان فى الاجحاف ومجاوزة الحد فى التنطع وخلاف ذلك هو المستثنى » وابو العلاء يطيل الضرب على هذه النغمة ويفتن فيها كل الافتنان فيقول :

وكلنا قوم سوء لا أخص به بعض الانام ولكن اجمع الفرقا

ويقول فى تنقص الناس وتهوين قدرهم

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا لما تحصل شىء فى الغرابيل

وهو يعلل لؤم الانسان وخسته وحقارته بفساد الأصل والتواء الغريزة

تفرع الناس عن أصل به درن فالعالمون اذا ميزتهم شرع

ويرى شوبنهور أن المجتمع قائم على الخديعة والزيف ، وبين جنبي كل انسان تقيم أنانية ضخمة غلابة تجتاح حدود الحق وتكتسح أسوار العدل فى حرية تامة وفى غير تردد . ونشاهد ذلك فى صورة مصغرة فى حياتنا اليومية ونراه فى صورة مكبرة فى كل صفحة من صفحات التاريخ ، ويشد من أزر هذه الأنانية فى كل صدر نبع من الكراهة والحقد والضغينة والخبث ، فياض الموارد متوثب العباب ، كالسم الناقع فى أنياب الرقطاء تنتظر الفرصة المناسبة لتنفثه ، وفى قلب كل انسان يرقد حيوان مستوحش شديد الضراوة ينتظر فريسته ليزلزل زلزاله ويثير زوابعه

وابو العلاء يقدم لنا صورة للانسانية لا تقل سواداً عن هذه الصورة فيقول :

بنى حواء كيف الامن منكم ولم يؤهل بغير الحقد روع

وابو العلاء وشوبنهور كلاهما يائس من الاصلاح منكر للتقدم ، ويرى ابو العلاء أن عمل الانبياء والحكماء والواعظين لم يأت بالثمرة المرجوة ولم يصرف الناس عن الشر

وقد فارق الحكماء الدنيا وفى نفوسهم حسرة من فشل مساعيهم وذهاب جهودهم أدراج الرياح

وكان شوبنهور يخالف معاصريه من الفلاسفة فى النظر الى التاريخ . ولا يرى للدراسة التاريخية شأنا يذكر ، والتاريخ عنده هو حلم الانسانية الثقيل ، ومن العبث أن نبحث فيه عن خطة أبدية مرسومة أو تدبير حكيم أو غاية معقولة متوخاة

وفى تعليلهما لليأس من الاصلاح وتهذيب النفوس والسمو بالطبائع نلمس صميم فلسفتيهما ، فالمعرى يعلل ذلك بغلبة الاهواء والمطامع والشهوات وعجز العقل عن كبحها فيقول :

وقد غلب الاحياء فى كل وجهة هواهم وان كانوا غطارفة غلبا

ويذهب شوبنهور الى أن ظواهر المعرفة جميعها وضروب المشاهدة بأسرها انما هى فكرة متمثلة لنا ، أو بلفظ آخر ان كل ما نشاهده ونعرفه كله من نتاج أذهاننا وثمرة عقولنا ، فليس فى خارج ذواتنا دنيا بمختلف مرائيها ومتباين مظاهرها ملائمة لتصوراتنا ومطابقة لما ارتسم فى أذهاننا ، والدنيا المعروفة من صوغ عقولنا وتلفيق أذهاننا وليس لها كيان إلا فى تلك العقول ، فهى مجرد صورة ومظهر من مظاهر الوعى . وهى بهذه المثابة من معدن الاحلام وصميم الأوهام ، ولكن وراء هذه الدنيا المتوهمة البادية للعيان دنيا حقيقيه خافية هى ما يسميه شوبنهور « الارادة »

وهذه الارادة تحقق نفسها وتؤكد وجودها فى قوى الطبيعة المختلفة فهى تطلع فى النبات ، وجهد وكفاح فى الحيوان ، والدنيا جميعها بأجواز فضائها وأطباق ثراها وما فيها من مظاهر التغير والنماء والتحول هى مظهر الارادة ، وهذه الارادة لا يصحبها العقل ليكف جمحاتها ويسدد خطواتها ، وانما هى سابقة له ومتقدمة عليه ، بل هى التى توجده ايجاداً وتخلقه خلقا ، فالارادة العمياء هى التى انشأت الدنيا بشتى مظاهرها ، وهى الأصل والجوهر والحقيقة التى تنعكس عنها

ظلال للظاهر وتنبعث منها صور المرئيات ، وليس فى مقدورنا اكتشاف كنه هذه الارادة والخلوص الى سرها ، لان الاشياء التى تدخل فى نطاق معرفتنا ليست من صميم الحقيقة وانما هى مظهر خادع وصورة زائفة ، فالوجود حلم والشخصية وهم ، والحياة تضرب وشائجها فى اعماق « ارادة الحياة » ، وارادة الحياة هذه رغبة ملحة فى الوجود وجرى لا ينقطع وراء اللبانات والاهواء وحرص شديد على الاستمتاع ، ولكن الاستجابة لمطالب هذه الشهوات التى لاترتوى غلتها ولا تشبع غرتها تنشأ من الحاجة ، والحاجة مصدرها الالم ، ومنشأ كل ذلك الوهم والخداع ولولا هذا الوهم ما وجدت الحياة ، والحياة شقاء لان الحياة معناها الرغبة والارادة ، والرغبة صنو الألم ، فالحياة إذن هى الألم ، وليس الانسان وحده هو الغارق فى الشقاء وانما تشاركه فى ذلك الكائنات جميعها ، وليست الدنيا وحدها وادى الدموع ومستراد الاحزان ، وانما جميع الدنى مقضى عليها بالشقاء ، والشقاء من نصيب كل حشرة تدب وكل سائمة ترعى ولا يتقى وقعه السمك الذى يسبح فى البحر والطير الذى يحلق فى الجو ، وهو يتابع الانسان فى مراحل العمر جميعها وادوار الحياة من المهد الى اللحد ، وعلى اختلاف الطبقات من الصعلوك المتسول الى رب التاج وحامل الصولجان ، والاجيال الغابرة والاجيال اللاحقة ، فلا سعادة ولا راحة ولا امن ولا سلام

وما يسميه شوبنهور « ارادة الحياة » يسميه ابو العلاء « حب الحياة » وقد أدرك ابو العلاء سوء اثره فى خداع النفس وترغيبها فى الحياة على ما بها من فادح الآلام وكثير الرزايا :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغبا أكل المرار

ويسمى الدنيا « ام دفر » وهى كنية العرب عن المصائب والآلام ويقول عنها :

أبى القلب إلا ام دفر كما أبى سوى ام عمرو موجع القلب هائم

ولو لم يكن حب الحياة هـذا غريزة فينا آخذة باكظامنا لبدت لنا عيوب الحياة وأدركنا خداعها وشعرنا بتفاهتها :

ولو لم يكن فيناهواها غريزة لكان اذا جر المهالك يترك

وهو يصاحب الانسان فى مراحل العمر جميعها :

تعلق دنياه قبل الفطام وما زال يدأب حتى خرف

وهذا الحب الشديد للحياة والتعلق باسبابها هو الذى يجعلنا نخاف الموت :

والنفس آلفة الحياة فدمعها يجرى لذكر فراقها منهله

ولا يخدع ابو العلاء فى المتظاهرين بالزهد فى الحياة وهم يضمرون حبها :

ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

وقد يذمها الانسان جهراً وهو يضمر خلاف ما يبدى مع مايناله من خطوبها واهوالها :

فتخرجه غيا وتوسعه أذى وان ذمها جهراً اسرلها عشقا

والعطف على الغير عند شوبنهور هو قوام الفضائل ومساك الآداب ، وذلك لأنه لما كانت الارادة هى أصل كل شىء وجوهره فان هناك إذن وحدة وراء تلك المظاهر المتباينة ، ويستطيع الانسان أن يتعرف نفسه ويستشف جوهر ذاتيته فى مرآة الدنيا ، ويدرك الوحدة الحقيقية والصلة الخفية بينه وبين الغير ، وهذا هو أساس الاخلاق وقواعد السلوك لأن الانسان عند ما يستشعر هذه العلاقة ينشأ فى نفسه العطف وهو مصدر السلوك الاخلاقى ، وهذا العطف يجعلنا نحسن معاملة الغير ونعرض عن الاساءة اليه لاننا اذا اسأنا الى أحد فكأننا فى الواقع نسىء الى أنفسنا ، والفضيلة هى أن نعتبر ألم الغير ألمنا ونعمل على دفعه اذا استطعنا ذلك أو نلطف حدته ونهون وقعه اذا عجزنا عن رد غائلته

والمرثية لآلام الغير والعطف على البشرية يلعبان دوراً كبيراً فى فلسفة أبى العلاء ، وكان يرى أن من أسباب شقائه عجزه عن الأخذ بناصر الغير :

أنا الشقى بأنى لا أطيق لكم معونة وصروف الدهر تحتبس

وكان شديد الرفق بالحيوان كثير الرحمة له ، والحيوان عنده كالانسان فى تعلقه بالحياة وخشيته الموت

أرى حيوان الارض يرهب حتفه ويفزعه رعد ويطمعه برق
فيا طائر أنمى ويا ظبى لا تخف شذاى فما بينى وبينكما فرق

ويوصى بالتصدق على الطير :

تصدق على الطير الغوادى بشربة من الماء واعددها أحق من الأنس

والطريقة المثلى عند شوبنهور للخلاص من آلام الحياة وهمومها هى مقاومة الارادة وقهرها واستئصال المطامع والشهوات والتزام العفة التامة وممارسة الزهد والانتهاء الى حالة من الهدوء والاستقرار تشبه مايسميه البوذيون «النرفانة» . واسمى الواجبات الاخلاقية عند شوبنهور هو أن يلقى الانسان سلاحه ويطلق آماله وينسحب من ميدان العمل ومعترك الحياة ، وليس الابطال عند شوبنهور هم الرجال من طراز نابليون والاسكندر وقيصر ، وانما الابطال عنده هم القديسون والنساك الذين قمعوا اهواءهم وقهروا نفوسهم وقد هزم نابليون الجيوش وثل العروش ولكنه لم يستطع أن يتغلب على نفسه ويهزم شهواته

وابو العلاء مثل شوبنهور يرى فى الزهد طريق الخلاص من متاعب الحياة واهوالها ويقرن السعادة بالزهد :

واسعد الناس بالدنيا أخو زهد نافى بنيها ونادوا إذ مضى درجا

ولما كانت المرأة هى التى تفتن ألباب الرجال وتأسر قلوبهم وتوحى الى نفوسهم الحب وتغمرها بالأمل والاستبشار ، وهى الامينة على النسل والوسيلة الاكيدة التى تتخذها الحياة لتأبيد النوع

لذلك عرف المتشائمون شدة خطرها على قضيتهم وناصبوها العداء وغالوا فى ذمها ، والمرأة فى رأى شوبنهور بسبب ضعف عقلها تساهم بنصيب قليل فى المزايا والمساوىء التى يجلبها التفكير ، وهى قصيرة النظر محدودة الأفق ، وتحاول على الدوام الوصول الى عرضها من أقرب السبل وبأهون الوسائل ، وهى تعيش فى الحاضر ولا تلتفت الى الماضي ولا تتطلع الى المستقبل ، ومن ثم ميلها الى التبذير والاسراف الذى يكاد يبلغ الجنون فى بعض الأحيان ، والمرأة أكثر عطفا من الرجل ولكنها تتخلف عنه فى تحرى العدالة والاستمساك بالامانة ويقظة الضمير ، وذلك لأن الواقع المحسوس هو الذى يؤثر فيها وليس للافكار المجردة سلطان عليها ، وهى مضطرة بسبب ضعفها أن تلجأ الى المكر والخيانة وتركن الى الكذب والرياء وقد زودتها الطبيعة بسلاح الخداع كما زودت الاسود بالمخالب والأنياب ، والمرأة تعيش للنوع أكثر مما تعيش للفرد ومصلحة النوع عندها أعظم شأنا وأجل خطراً من مصلحة الفرد ، وهذا هو سبب الخلافات الزوجية ، ويتطرف شوبنهور وينكر على المرأة الجمال ويعزو تصورنا لجمالها الى الغريزة الجنسية التى تخدعنا وتغطى على بصرنا حتى نرى حسنا ماليس بالحسن ، والمرأة بطبيعتها عامية ولا علاج لعاميتها ومن ثم قلة نبوغها فى الفنون والعلوم ، وقد كان اوتوفينجر مؤلف كتاب « الجنس والأخلاق » الذى يتضمن أشد حملة وجهت الى النساء من تلامذة شوبنهور ، ورأى ابى العلاء فى المرأة لا يقل قبحا وسوءاً عن رأى شوبنهور وأشد ما يوصى به أبو العلاء فى مسألة المرأة هو تنحيتها عن الحياة العامة

وسوء رأيه هذا من الاسباب التى جعلته يعرض عن الزواج لأن الرجل مضطر فيه الى المشاركة :

ترجى عندها وصلا رويدا انها عارك
تخون الأول العهد بخل العرس أو شارك

وشوبنهور أحد فلاسفة ما وراء الطبيعة القلائل الذين يستطيع الانسان أن يفهم الكثير من دخائل فلسفتهم دون الرجوع الى مستفيض الشروح أو الاستعانة بضافى المقدمات ، وفلسفته أشبه بقطر من الاقطار واضح المسالك بادى المعالم بحيث تستطيع ان تجوس خلاله وتطوف ارجاءه وأنت فى غير حاجة الى الرواد والأدلاء ودون ان تضل الطريق وتبعد عن الغاية ، ولعل السبب فى ذلك ان نظرياته مستمدة مباشرة من حقائق الحياة الواقعة وقائمة فى الكثير على التجارب والمشاهدات وهو فى كتاباته دائم النصح لقرائه بالعودة الى التجربة والاتصال بالحياة ، وقد أفاضت هذه الصفة على أسلوبه مسحة أدبية واكسبته مناعة وقوة وحيوية قل ان تراها فى كتابات الفلاسفة وبخاصة اضرابه فى الفلسفة الالمانية ، وقد كان للتجارب أثر كبير فى تكوين عاداته الفكرية وصقل ملكاته الى جانب العوامل الوراثية ، فقد عرف شوبنهور الدنيا قبل ان يعرف الكتب وسافر اسفاراً كثيرة مع والديه ، ولما اقبل بعد ذلك على الدراسة وأكب على الكتب كان يقصد الفلسفة للاهتداء الى الحق ، لا ليعيش منها ويتكسب بها . ولما حاول النقادة الألمانى « ويلاند » أن يثنى

حزمه عن متابعة دراسة الفلسفة قال له كلمته المشهورة وهى : « ان الحياة معضلة وقد انتويت ان أقضى حياتى فى معالجة حلها » ، والمامه بالحقائق الواقعة قبل تكوينه الافكار جعله محبا للوضوح كارها للغموض والالتواء حتى قال عنه أحد الكتاب الفرنسيين : « ليس هو فيلسوفا كالآخرين وانما هو فيلسوف قد رأى الدنيا » وشوبنهور بأسلوبه الرائع وتفكيره الجلى أقرب الفلاسفة الى الادباء والكتاب والشعراء ، وأبو العلاء شاعر كبير ولكنه رجل تفكير يسخر أسلوبه لأفكاره ويستعمل خياله لتوضيح ارائه في شتي الأمور ، وله فى مختلف المسائل أفكار محددة ونظرات معروفة لا ينى يعيدها فى صور مختلفة وقوالب جديدة ويكر عليها بالشرح والافاضة ويدعمها بناهض الأدلة وصادق الشواهد وهو يتخير الفاظه ويفصلها على قدود معانيه بلا تزيد ولا تجميل ويصطنع فى حواره المنطق والاثبات ، وقد حاول ان يحيط بأطراف العلوم ونواحى المعرفة وأن يعلل ظواهر الطبيعة ويحلل عناصر المجتمع ويكشف عن اصول الاخلاق ويفسر حقائق التاريخ ويتناول المذاهب والعقائد ، وان يتحدث فى شعره عن قدم المادة وعن الجسد والروح وعن المكان والزمان وان يبدى أراءه فى السياسة ، وقد وصف هذه المحاولات جميعها فى قوله :

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة من الفكر الا وارتقيت هضابها

وهو بنظرته الشاملة وتناوله لاطراف المعرفة الانسانية أقرب الشعراء الى الفلاسفة كما كان شوبنهور أقرب الفلاسفة الى الشعراء ، وقد كانت اخلاقهما على النقيض وكلاهما استرعى النظر بشخصيته وكتاباته . وكلاهما كانت أخلاقه لا تلائم الوسط الذى يعيش فيه . فشوبنهور كان صعب المعاشرة ولذا لم يكن له صديق طول حياته ، وكان ابو العلاء أسوأ ظنا بالناس من ان يتخذ له صديقا او يثق بأحد ، على أن شوبنهور كان جم الكبرياء بعيد الادعاء ، وكان أقل انتقاص لادعائه الواسع وغروره الفياض وبخاصة فى أعوامه الأخيرة يستثير سخطه ويشعل غضبه ، وكان كلاهما يحب الحق ويخلص له ، ولكن شوبنهوركان متحرقا على الشهرة ، أما ابو العلاء فلعله ظفر من الاعجاب والشهرة بما أبشمه ، وكان أبو العلاء فطنا لمواطن السخرية ومواقع الفكاهة فى الحياة وكذلك كان شوبنهور . ولكنى أرجح ان حاسة الفكاهة والسخرية فى أبى العلاء كانت أقوى وأكثر تأصلا . ونقص الفكاهة فى شوبنهور هو الذى كان يغريه بالتورط فى تلك الشتائم المضحكة التى يكيلها فى كتبه لأضرابه من كبار الفلاسفة الالمان المعاصرين له ، وفطنة الانسان للجانب المضحك فى الحياة هى التى تحميه من مثل هذا التورط وتمنعه من امتداح نفسه والمغالاة بقدرته . وكان شوبنهور شديد العناية بنفسه يفر من الامراض المعدية ويخشى الحريق فلا يقيم الا فى أول طابق ، ونوادره فى الحرص على نفسه وما يملك كثيرة معروفة ، أما ابو العلاء فقد ألقى سلاحه والتزم الزهد وقهر الشهوة ، وكان يلبس غليظ الثياب ويتخفف من الزاد فلا يتناول الا ما يقيم اوده ويمسك عليه رمقه ، وآثر ضيق اليد على ابتذال الكرامة وإراقة ماء الوجه فى طلب

الرزق وتحصيل المال وانف ان يسلك سلوك الشعراء فى الشرق واستكبر على الاتجار بالشعر والتكسب به وعاش نافضا غبار الدنيا عن قدميه وضرب بذلك للعالم مثلا قليل النظير من المطابقة بين مرامى التفكير وأسلوب الحياة قصر عنه كبار المصلحين وعظماء الدعاة

وقد يبدو لنا ان نعيب على أبى العلاء وشوبنهور امعانهما فى التشاؤم ومبالغتهما فى ذم الحياة ولكن علينا ان نعرف قبل الاقدام على ذلك أنه لا يوجد فى الحياة اشد ظمأ وأعظم نهما من الروح الانسانية فهل هى تلق فى هذه الدنيا ما يبل غليلها ويهدىء قرمها ؟ أليس هناك تناقض مستمر بين مطالب القلب وحقائق الحياة والتجارب ؟ ان الدنيا قد تقنع القلوب الضئيلة والنفوس الصغيرة ، أما القلوب الطموحة والنفوس الراغبة المتطلعة فهى فى تعب مستمر واهتياج دائم . ومن الصعب على القلب ان يحمل على الدوام هذا التناقض الذى لا ينتهى بين نفسه وبين الحياة وان يظل طالبا دون ان يحظى بسؤله وحالما دون أن يتحقق حلمه

وقد حاول شوبنهاور وأبو العلاء ان يعرفا سر الخليقة ومغيبات الحياة وعجائب المصير وهى محاولة عظيمة ونزعة جبارة ،وربما كانت قوانا العقلية أقصر خطوا من أن تسلك هذا المدى الواسع وتقيس هذه الابعاد غير المتناهية لتنظر الى الحياة نظرة كلية شاملة ، وربما كان ما لدينا من الحقائق غير كاف لتكوين الاراء النهائية عن الكون والحياة . والاراء التى نصل اليها هى بالضرورة وبحكم موقفنا اراء جزئية ومجرد توهمات وظنون عن غير المكشوف ، قد تأثرنا فى تكوينها وبنائها بمؤثرات بيئتنا المحدودة وعالمنا الصغير . ولئن كان ابو العلاء وشوبنهور لا يشاركان الانسانية فى نوازعها السامية وطموحها العظيم ويصدران أحكاما من نظرة محدودة وزاوية ضيقة فانهما مع ذلك مفكران مخلصان يوحيان الفكر ويمتعان الادب ، الاول بشعره الحافل والثانى بفلسفته المحكمة البناء ، وإذا أهملنا حكمة أبى العلاء وفلسفة شوبنهور فاننا لا نفهم جزءاً كبيراً من قصة الحياة ولا نعى درسا نافعا من دروسها . ويرى بعض المفكرين ان فن الحياة يستلزم شيئا من المساومة وان يعير الانسان عقله مؤقتا للاوهام ويغالط فى الحقائق نفسه ، ولكن ابا العلاء وشوبنهور لا يتصوران الحياة على تلك الصورة بل يريان ضرورة القضاء على الاوهام وتبديد الاكاذيب ورفع الستار عن خدعة العيش ، وهما على ما فى نظرتهما الى الدنيا من تجهم واكتئاب ليسا من الضعفاء فاقدى الرجولة فقد عاش شوبنهور كالمجاهد الذى يحمل السيف والرمح ، وتلق ابو العلاء الحياة بصبر الحكيم وقناعة الزاهد وشجاعة اليائس

على أدهم

المعرى : أشاعر أم فيلسوف

(بقية المنشور على صفحة ٨٥٠)

يعربوا به عن فلسفتهم من الالفاظ . وقد انتهى بول فاليرى الى اثبات أن الفلاسفة آخر الأمر ليسوا إلا جماعة من أصحاب الفن هم كالشعراء والمثالين والمصورين يرون الطبيعة والحياة والكون على نحوما ، ثم يظهرون ما رأوا فى هذا البناء الفلسفى الجميل الذى يهدى الينا اللذة والمتاع

ومن الأدلة القاطعة عنده على صحة هذا الرأى أننا ما زلنا وسنظل نقرأ افلاطون وليبنتز وسبينوزا فنجد فى قراءتهم لذة ومتاعا لا يرتقى اليهما الشك ، ومع ذلك فما أكثر ما بطل من فلسفة هؤلاء الفلاسفة وما أقل ما بقى منها . فما مصدر هذه اللذة التى نجدها فى أشياء نعلم أن الفلسفة الحديثة والعلم الحديث قد قضيا عليها قضاء أخيراً . أليس هناك شبه بين هذه اللذة وبين اللذة التى نجدها عند ما نقرأ هوميروس أو فرجيل أو دانت ، أى أليس هنالك شبه بين اللذة التى نجدها حين نقرأ الفلاسفة ، واللذة التى نجدها حين نقرأ الشعراء ، بل لا شك فى أن هاتين اللذتين متقاربتان أشد التقارب ، وهما متقاربتان لأن فى الفلاسفة حظا من الشعر ، أو لأن فى الشعراء حظا من الفلسفة ، أو لأن فى أولئك وهؤلاء حظا مشتركا من الفن هو الذى يمنحنا هذه اللذة

وقد فكرت فى أبى العلاء حين كنت اقرأ هذا الفصل كما فكرت فى لوكريس وكما فكرت فى أفلاطون . كلهم شاعر وان كان ثالثهم لم يتخذ النظم وسيلة إلى اعلان شعره . كلهم شاعر وكلهم فيلسوف وكلهم يستطيع أن يعجبنا ويمتعنا بهذا المزاج الرائع الذى يلذ قلوبنا وعقولنا

فمن قال أن أبا العلاء شاعر فهو لم يخطىء الحق ، فشاعرية أبى العلاء لا شك فيها ، ولعلها قد قصرت من بعض النواحى عن شاعرية أبى تمام وأصحابه من البصريين ، ولكنها قد تفوقت من بعض النواحى على شاعرية هؤلاء البصريين لانها تعمقت من الحقائق ما لم يتعمقوا ، وسمت من الحكمة إلى ما لم يسموا اليه . ومن قال أن أبا العلاء فيلسوف لم يخطىء الحق أيضا فقد رأيت أن الرجل قد شارك الفلاسفة فى فلسفتهم ، ولعله قد قصر عما وصل اليه ابن سينا أو الفارابى من تعمق بعض النظريات ومن اقامته المذاهب النسقة المنظمة المضطردة التى لا يفسدها الاضطراب والاختلاف ، ولكنه قد تفوق على هؤلاء الفلاسفة لأنه استنزل الفلسفة من معقلها وأحياها فى البيئة التى يعيش فيها الناس ، وجعلها انسانية لا تبلغ العقول وحدها ولكنها تبلغ القلوب فتشيع فيها الحب والرحمة والحنان ، كما تشيع فيها السخط والثورة والغضب ، ولكنه سخط لا ينتهى إلى البغض ، وثورة لاتنتهى الى الحقد ، وغضب لا ينتهى الى افساد ما بين الناس من الصلات

أبو العلاء شاعر فى فلسفته وفيلسوف فى شعره قد جمل الفلسفة بما اسبغ عليها من الفن ،

ومنح الشعر وقارا ورزانة بما أشاع فيه من الفلسفة ، وهو من هذه الناحية فذ فى أدبنا العربى كما قلت الف مرة وكما سأقول الف مرة أيضا

على أن هناك ناحية أشرت اليها منذ حين لم تدرس كما ينبغى من فلسفة أبى العلاء وفنه معا ، وهى خليقة بالدرس وخليقة بالاعجاب ولها خطرها فى تصوير نفسية هذا الشاعر الفيلسوف ، فلم يملك أحد امر اللغة العربية كما ملكه أبو العلاء ، ولم يفرغ أحد للغة العربية كما فرغ لها أبو العلاء ، ولم يتحكم أحد فى الفاظ اللغة العربية كما تحكم فيها أبو العلاء . أنفق صباه وشبابه فى الدرس والتحصيل والمشاركة فى الحياة الادبية على نحو ما كان يفعل المثقفون الممتازون فى عصره ، ثم كانت المحنة واضطر الى العزلة ولزم داره وأصبح رهين المحبسين أو رهين المحابس الثلاثة ، رهين داره ورهين جسمه ورهين هذه الآفة التى حالت بينه وبين النظر الى الطبيعة وما يضطرب فيها من الكائنات . فعكف على نفسه ونظر فيها ، فماذا وجد ؟ وجد معانى لا تكاد تحصى قد حصلها أثناء الدرس وما زال يحصلها بعد العزلة ، ووجد الفاظا قد اجتمعت له من درسه اللغوى وكان حظه من هذه الثروة اللفظية عظيما ، ثم نظر فاذا هو مضطر الى ان ينفق حياته بين هذه المعانى وهذه الالفاظ لايستطيع أن يفلت منها ولا ان يخلص من الحاحها عليه . إذا نظر فى المعانى اضطربت اراؤه وثارت فى نفسه العواطف المتناقضة والاهواء المتضاربة وإذا نظر فى الألفاظ أخذه الاعجاب بكثرة ما وعى منها . فهو إذن مضطر إلى أن يقاوم هذه المعانى وإلى أن يقاوم هذه الألفاظ وإلى أن يحول بينها وبين أن تتحكم فيه . وسبيله إلى ذلك أن يتحكم فيها هو وان ينفق حياته مزاوجا بين تلك المعانى وهذه الألفاظ ، وكذلك فعل . فأنت لا تراه إلا عابثا بالمعانى وعابثا بالألفاظ ، يلائم بين المعنى والمعنى ، ويخالف بين المعنى والمعنى ، كما يلائم ويخالف بين الالفاظ ، وكما يلائم ويخالف بين الالفاظ والمعانى . وانك لتقرأ ما بقى لنا من آثاره فلا تكاد تدفع عن نفسك الشعور بأن هذا الرجل قد خلى بينه وبين المعانى والألفاظ فهو يلعب بها ويتلهى بهذا اللعب لأنه لا يجد شيئا آخر ينفق فيه وقته وجهده

وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم هذه الخطة العنيفة التى فرضها على نفسه فى « اللزوميات » فأخذ نفسه بالتزام مالا يلزم فى القافية ، كما أخذ نفسه بالتزام مالا يلزم من النظم على جميع حروف المعجم . وعلى هذا النحو أيضا تستطيع أن تفهم « الفصول والغايات » . فقد فرض على نفسه فى النثر شيئا قريبا جداً مما فرض على نفسه فى الشعر ، فهو يضع فصوله هذه الكثيرة يلتزم السجع فى كثير منها ولكنه يجعل لكل فصل منها غاية ، ويلتزم فى هذه الغاية هذا السجع ، ويأبى الا أن يقيم هذه الغايات على حروف المعجم كلها كما أقام اللزوميات على حروف المعجم كلها

وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم هذه القصة اليسيرة الظريفة التى عرض لها فى رسالة الغفران حين ذكر قصة خلف الاحمر مع أصحابه وقد سألهم عن بيتى النمر بن تولب :

ألم بصحبتى وهم هجوع   خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلا مصفى   اذا شاءت وحواري بسمن

فسألهم ما عسى أن تكون قافية البيت الثانى لو أن الشاعر قال فى البيت الأول « أم حفص » فلما سكتوا قال خلف الأحمر « حوارى بلمص » . فيتهز أبو العلاء هذه الفرصة ويفرع عليها كما يقول ، ويفترض قافية البيت الأول على الهمزة ثم على الباء ثم على التاء ويمضى فى ذلك حتى يبلغ آخر المعجم وقد أتى بالألاعيب والاعاجيب وأشعرك بأنه رجل قد فرغ لهذا النحو من اللعب

لعبه بالألفاظ لا شك فيه ولعبه بالمعانى لا شك فيه أيضا . وهل رسالة الغفران إلا نحو من هذا اللعب وهل كان يستطيع أن يلعب بالالفاظ دون أن يلعب بالمعانى ؟ فلكل لفظ معناه ولا يستطيع الانسان أن يتصور المعانى المجردة التى لا ألفاظ لها ، فالمعانى ألفاظ ان شئت ، والألفاظ معانى ان أحببت ، واللاعب بهذه لاعب بتلك . وقد لعب أبو العلاء بهذه وتلك ما يقرب من نصف قرن ، وكانت نتيجة هذا اللعب ما ترك لنا من آثاره الخالدة التى جمعت بين وقار الفلسفة وجمال الفن

وخصلة أخرى لا بد من أن ألم بها قبل أن أريح القراء من هذه الثرثرة ، وهى ان أبا العلاء بحكم هذا اللعب الفنى الفلسفى أكثر الشعراء العرب حضور ارادة فى آثاره الفنية ، فهو لا يصور عن طبعه ولا يرسل نفسه ارسالا على سجيتها فيما ينظم من الشعر أويؤلف من النثر . هو لايستسلم للعاطفة ، ولا يمضى مع الهوى ، ولا يلقى قياده الى الطبع ، وانما هو مفكر دائما متخير دائما ، مريد ما يقول متعمد ما ينظم وما يكتب . هو كما يقول بول فاليرى : لا يقول الشعر والنثر وانما يعملهما ، يدعوه الى ذلك هذا اللعب الفنى الذى أشرت اليه وحرصه على التحكم فى الألفاظ والمعانى وتعمده للصناعة الفنية وتجمله بها ، وملاحظته لنفسه ونقده لغته كما تدفعه الى ذلك حاجته الى الاحتياط والتحفظ واتقاء ما عسى ان يورده موارد التهم أو يعرضه للسخط والنكير . والغريب أن هذا الرجل كان يرى أنه مجبر وأنه لا حظ له من الاختيار فى شىء فيما يأتى أو يدع حتى فى اللزوميات . وهو مع ذلك اعظم شعرائنا حظا من الاختيار وأعظمهم حظا من الارادة واعظمهم تعمداً لما يصدر عنه من المعانى والألفاظ وليس هذا هو المظهر الوحيد من مظاهر التناقض فى حياة أبى العلاء ، فقد كانت حياته العقلية كلها تناقضا كما رأيت ، ولكن هناك مظهراً آخر من مظاهر التناقض فى امر أبى العلاء كنت أحب أن اعرف رأى أبى العلاء فيه . فقد كان الرجل معتزلا زاهداً اشد الزهد فى أن يحفل الناس به أو يتحدثوا عنه ، فكيف كان يرى أبو العلاء كثرة ما يقول الناس فيه الآن وكيف يتلقى عنايتهم به واكبارهم له وهذه الجهود التى أخذوا يبذلونها فى درسه وفهمه وتفسيره وتخليد ذكره ، وكم كنت احب انأعرف رأىأبى العلاء في نظر الاجيال اليه بعد ان مات ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ، وهل لأبى العلاء علم ببعض ما يكتب عنه او يقال فيه ؟

طه حسين

بيئة المعرى

(بقية المنشور على صفحة ٨٦٥)

وكان شاعرنا على جانب عظيم من الثقافة العلمية . فقد أتيح له ان يحصل فى المعرة وحلب على أهم العلوم اللغوية والادبية والدينية . ولما بلغ العشرين تحول عن الدرس على الاساتذة الى الرحلات العلمية . فزار المكاتب المشهورة فى اللاذقية وحلب وانطاكية وطرابلس وسواها . وأقام في كل منها مدة تقرأ له كتب العلم والفلسفة . وقد ظل على ذلك نحو عشر سنوات ثم استقر فى المعرة ولم يتركها الا فى رحلته البغدادية بين ٣٩٨ ـ ٤٠٠ . فتكون مراحله الثقافية ثلاثا ـ (١) المرحلة التحضيرية فى المعرة وحلب حتى بلغ العشرين (٢) زياراته للمكاتب الكبرى فى البلاد الشامية وذلك بين العشرين والثلاثين من عمره (٣) زيارته لدور العلم فى بغداد بين الخامسة والثلاثين والسابعة والثلاثين

بيئته السياسية والاجتماعية

كانت المعرة على مايؤخذ من أقوال المؤرخين بلدة عامرة تشخص اليها أنظار الطامعين . وكجارتها الكبرى حلب كانت أيام المعرى هدفا لغارات وملعبا لفتن أرهقت سكانها أيما ارهاق

وكانت الامارة الحمدانية يومئذ بين قوتين عظيمتين ـ الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب . ولم يكن للحمدانيين بعد سيف الدولة تلك السطوة التى كانت له فاضطربت أحوالهم الداخلية . ولم يستطيعوا القضاء على مناوئيهم من الزعماء . فأنى لهم أن يقفوا فى وجه الروم والفاطميين وكل من الفريقين يقرم الى تلك الأمارة الغنية . وبين ضغط الروم وغاراتهم ، ودسائس الفاطميين واطماعهم كانت امارة حلب تذوق الامرين تشاركها فى ذلك المعرة وأكثر المدن الشمالية . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الحوادث السياسية التى تقلبت على حلب والمعرة منذ نشأة المعرى الى أيام شيخوخته كانت سلسلة من الأهوال والفتن تركت أثراً عميقا فى نفسه وبالتالى فى شعره

عاصر أبو العلاء الحمدانيين وعمالهم ورأى تطاحن هؤلاء الحكام على السعادة والمال حتى كان بعضهم لا يتورعون عن استنجاد الروم وهم فى هم على منافسيهم فى الحكم او على الطامعين فيهم من الفاطميين ، فطما سيل الفتن وتواصلت الحروب والغارات وساد الجشع والحنق نفوس الزعماء

فى جو كهذا الجو لا ننتظر أن نرى في البلاد أمنا واطمئنانا . فالناس يتملكهم الذعر ، والمصالح العامة يضحى بها لأجل المطامع الخاصة . وبديهى ان تواصل الحروب والقلاقل يؤول الى ضيق العيش وانتشار الأوبئة فضلا عن ضغط الحكام طلبا للضرائب

وأرى ملوكا لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس
فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور ولاة خرج

ذلك ما كان يشعر به المعرى . وفى مثل هذا الجو المضطرب يشتد حرص الغنى على ماله وتشتد فى الناس الغرائز الهدامة من ظلم وغدر وبخل وتخاذل والى ذلك يشير شاعرنا فى كثير من قصائده ويقترن ذلك عادة بتراخى المبادىء الروحية واضطراب المعتقدات الدينية :

نبـذتم الأديان من خلفكم وليس فى الحكمة أن تنبذا
لا قاضى المصر اطعتم ولا الـ حبر ولا القس ولا الموبذا

فيؤول الأمر الى الانغماس فى الشهوات والاقبال على المحرمات . ولذا يكثر فى شعر المعرى مهاجمة الفساد الاجتماعى وخصوصا التهتك الجنسى ومعاقرة الخمر واليك بعض وصفه لأهل عصره

قد علموا أن سيخطف الشبح فاغتبقوا بالمدام واصطبحوا
ما حفظوا جارة ولا فعلوا خيرا ولا في مكارم ربحوا

ويلقى التبعة فى هذا الفساد العام على بعض رجال الدين لانصرافهم عن الروح الى المادة وعن خدمة الناس الى مآربهم فهو ينعتهم بالرياء والجشع والشهوة وما الى ذلك من النعوت الذميمة ولعلنا نستطيع ان نختصر وصفه لبيئته السياسية الاجتماعية بقوله :

حديث فواجر وشراب خمر وقتلى يطرحون لام عمرو
ومهلك دولة وقيام أخرى كذاك الدهر أمر بعد أمر

بيئته الفكرية

قضى شاعرنا نحو النصف من عمره فى القرن الرابع الهجرى والنصف الآخر فى القرن الخامس فيكون قد عاصر الثقافة الاسلامية فى عنفوان نشاطها فى ذلك العهد كان فى العالم الاسلامى ثلاث حواضر كبرى ـ بغداد عاصمة العباسيين ، والقاهرة عاصمة الفاطميين ، وقرطبة عاصمة الاندلسيين . على ان الحركة الفكرية لم تنحصر فى هذه الحواضر الثلاث . فقد نشأ ـ كما يخبرنا التاريخ ـ دول صغرى نافست هذه الدول الكبرى فى العطف على اهل الادب والعلم . وكانت حواضرها مراكز علمية كبيرة تبذل فيها الأموال الطائلة فى سبيل العلم والعلماء . وقد حدا ذلك كثيرين الى التنقل من مدينة الى مدينة طلبا للدرس على بعض الاساتذة المشهورين او انتجاعا للعلم فى بعض المكاتب الكبرى

وفى القرن الرابع ـ وهو القرن الذى نشأ فيه شاعرنا وأتم تحصيله العلمى ـ نضجت العلوم اللغوية . فنظمت المعاجم ووضع كثير من كتب اللغة واستقرت الطريقة البيانية فى الانشاء التى يمثلها ابن العميد والصاحب والصابى والخوارزمي وبديع الزمان والثعالبى والعسكرى وسواهم . وفيه بلغت العلوم الدخيلة من طبية وفلسفية ورياضية وطبيعية ، أوجها ويكفى أن نذكر من رجالها السابقين واللاحقين الفارابى والرازى ، وابن سينا واخوان الصفا ، عدا من نبغ منهم فى بلاد الاندلس . ومثل ذلك يقال فى التاريخ فقد بلغ فى عهد المعرى شوطا بعيداً من التقدم . ويكفى للتمثيل ان نذكر المسعودى والاصفهانى ومسكويه وابن النديم ، عدا من سبقهم من اهل القرن الثالث كالطبرى واليعقوبى واضرابهما . وكذلك علم الكلام الذى بلغ أوجه فى الغزالى (ولد بعد

سنة من موت المعرى) ونشير اشارة خاصة الى المذاهب المتنازعة من خزرج وشيعة ، ومعتزلة ، واشعرية وصوفية . فقد كانت على أشدها فى عهد المعرى وما قبله

تلك هى التربة الفكرية التى انبتت لنا المعرى . تكاثر دور العلم فى شتى الحواضر الاسلامية ـ تنظيم المعاجم والقواعد اللغوية ـ سيادة التأنق البديعى فى الانشاء ـ التوسع فى المباحث الفلسفية والطبيعية ـ واشتداد التنازع بين المذاهب الكلامية

وكيف التفت الى حياة شاعرنا وأدبه تجد أثر هذه البيئة ظاهراً فيها للعيان فهو من حيث اللغة لغوى واسع الاطلاع ولوع باستعمال الغرائب اللفظية . وهو فى مضمار الاناقة البيانية منشىء قدير يتكلف السجع والبديع أحيانا ولو أداه ذلك الى الغموض كقوله فى أحدهم :

كبرت فاصبحت للراشدين كبرت يعد لهدى دليلا
كبرت فما زال هذا الزمان كبرت يجد قليلا قليلا

ومثل هذا التكلف كثير جداً فى نثره وشعره ، فلا جرم إذا جاء قسم كبير منه مبهما يعسر فهمه حتى على أهل الأدب ولو دققنا فى أسباب عسره وملل النفس أحيانا منه لوجدناها فى تكلفه ما كان يتكلفه أهل زمانه من محسنات بديعية ، واشارات تاريخية أو لغوية ، وأوابد لفظية

وتظهر فى أدب المعرى ثقافة عصره العلمية بما يعكسه لنا من معرفة الافلاك وطبائع الاشياء والاحياء وأدوات العلوم المختلفة ومصطلحاتها مما يشف عن أدب شامل واطلاع واسع

على أن اهم ما ينعكس من بيئته الفكرية نظره الفلسفى فى الوجود ونقده الشديد للانسان والمجتمع ، ولا نشك ان المعرى ولد وفيه ميل الى التفكير وان أحواله الجسدية قد أرهفت هذا الميل فيه على ان ذلك لم ينضج فيه إلا مع الزمان فقد كان فى صباه وأيام شبابه لا يختلف كثيراً عن معاصريه ـ كان مع تفكيره راغبا فى الحياة مجاريا سواه فى موكبها العام ، وكان متمسكا بالدين يناضل عنه ويهاجم الدهريين ، ولكنه لم يكد يبلغ الخامسة والثلاثين حتى نرى فى شعره مرارة غير عادية ـ ثم نراه فى السابعة والثلاثين قد اتخذ لنفسه طريقا جديداً فى الحياة ، فأصبح متقشفا ـ ظاهر النقمة ، لا ثقة له بالانسان ولا بما سنه من شرائع ولم يبق من آثار شبابه الفكرية الا تسليم عام بوجود اله قادر وقضاء قاهر

نشأ شاعرنا مثاليا على أن بيئته حولت تلك المثالية فيه الى تشاؤم عميق صبغ شعره بلون اسود قاتم . فما المذاهب المختلفة من معتزلة وجبرية وصوفية وغيرها إلا أبواب للرزق والكسب

مذاهب جعلوها من معائشهم من يعمل الفكر يعطه الارقا
وكلنا قوم سوء لا أخص به بعض الانام ولكن اجمع الفرقا

ذلك هو رأيه فى الفرق الدينية وزعمائها وله فى ذم هؤلاء من الأهوال ما يملأ صفحات عديدة فنكتفى بالاشارة اليه . ولم يقف المعرى عند حد التهجم على الفرق وزعمائها بل تجاوز ذلك

الى نقد الأساطير الدينية عموما ومن أقواله الكثيرة فى ذلك :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فالعقل والتعليم الدينى الذى عرفه فى زمانه لايتفقان . وانما الدين الحقيقى ـ الدين الذى يقبله العقل ـ فهو المجرد عن الخرافات المتصل رأسا بتصرف الانسان من انصاف وضبط نفس ، وترفع عن الدنايا ، ورغبة فى الخير

الدين انصافك الاقوام كلهم وليس دين لابى الحق ان وجبا

سبح وصل وطف مكة زائرا سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطماعه لم يلف بالمتماسك

والحق يقال أن شاعرنا مثالى سابق لأوانه . وقد عاش فى جو مضطرب مظلم فحاول أن يستهدى بنور العقل

تستروا بامور فى دياناتهم وانما دينهم دين الزناديق
نكذب العقل فى تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

اذا رجع الحصيف الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

لكن العقل الذى يحرره من خرافات جيله واضاليلهم لم يهده إلا الى أمرين ـ اللاأدرية والقنوط . فهو برغم تقواه وبرغم اعتقاده بقوة حكيمة مدبرة يقر بأن العقل لا يستطيع أن يعبر الهوة التى بين الجسد والروح

دفناهم فى الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنونا أو شبيه جنون

وهو برغم رغبته فى الخير لا أمل له باصلاح الفساد البشرى

واللب حاول أن يهذب أهله فاذا البرية ما لها تهذيب
وجبلة الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها

فاذا عرفنا الجو الذى نشأ فيه عرفنا أن شاعرنا لم يكن فوضويا ولم يقصد فى أول أمره الهدم المطلق بل كان جل قصده الاصلاح الاجتماعى . لكن ذلك الجو أثر فى نفسيته الحساسة تأثيراً دفعه الى اليأس . وقد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكرى وتنطعه اللغوى ، على أن شخصيته تجمع بين الاخلاص للحقيقة والعنف فى مهاجمة الباطل . فقد كان الشعراء قبله لايرون فى الأدب إلا مايوصل الى اغراضهم فجاء المعرى مترفعا عن الاغراض الذاتية راغبا فى اصلاح الحياة البشرية على أن اليأس تغلب عليه فجاء شعره قاتم اللون كأنما هو مصباح تنفذ أشعته الينا من وراء زجاجة سوداء .

انيس المقدسى

المعرى الناقد

(بقية المنشور على صفحة ٨٧٢)

فاستعدى عمر رضى الله عنه على الحطيئة ، فدعاه حسان بن ثابت فقال له : أتراه قد هجاه بهذا ؟ فقال : ما هجاه يا امير المؤمنين ولكن سلح عليه ! ولم يكن عمر بن الخطاب ممن يخفى عليه موضع الاقذاع فى مثل هذا ، ولكنه أراد بتجاهله اطفاء الفتنة والتفريج عن الزبرقان

وكانت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما من أبصر الناس بنقد الكلام ، حدثوا أنه اجتمع بالمدينة بعض رواة الشعراء ، فاختلفوا فيما بينهم ، وقال كل منهم صاحبي أشعر . ثم تراضوا على أن يحكموا سكينة . فقالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فاذهبي بسلام ؟

وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟

ثم قالت لصاحب جميل : اليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلي معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

ما أرى بصاحبك من هوى ، انما يطلب عقله !

ثم قالت لصاحب نصيب : اليس صاحبك الذى يقول :

اهيم بدعد ما حييت فان امت فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده !

وما نسب الى سكينة وغيرها فى هذا الباب كثير ، نكتفى منه بهذا القدر الذى قدمناه

وقد رأيت أن النقد ، فى ذلك العهد ، لم يتجاوز ، فى الجملة ، وقوع الخاطر السريع على موضع النكتة ، وتجليتها فى أبشع صور التعييب والتهجين ، وقد يجليها فى أحلى صور التبهيج والتزيين . أما النقد اللغوى ، على اختلاف صوره ، والنقد العروضى فلم يكن لهما حظ فى وزن الكلام لأن اللغة كانت لم تزل فصيحة ، والفطر ما برحت سليمة صحيحة

فلما كان جعفر بن يحيي وكان ابو عثمان الجاحظ ، جعل كل منهما يحقق النظر فى مأثور الكلام ويجهد فى تقليبه وامتحانه ، ليقف على أسرار بلاغته وعلى علل القبح فيه ، حتى استظهرا من هذا صدراً ، اذا لم يضبط بقواعد عامة ، فقد لوح بهذه القواعد تلويحا

ثم جاء من بعدهما قدامة بن جعفر ، ثم عبد القاهر الجرجانى ، فأمعنا فى البحث والفحص ، وجدا فى الامتحان والتقليب . وبذلك اتسقت للبلاغة العربية قواعد ضبطها السكاكى بعد ذلك ضبطا ، وضغطها ضغطا بما أقام لها من الحدود والرسوم

وهنا يجمل بنا أن ننبه الى أن علوم البلاغة ليس من شأنها طبع الناس على البلاغة ، وقد

بسطنا هذا فى كلام طويل ، ولكنها فى الواقع علوم نقدية ، تنتهى آثارها الى التنبيه الى مواطن الحسن والقبح فى مطاوى الكلام

ولا يفوتنا أن نشير كذلك الى أنه لما تراخت الايام بالعربية الصريحة ، ونفذت العجمة الى الملكات ، جد النقد اللغوى ، وجعل النقدة يتعقبون الشعراء ، ويحصون عليهم الخلاف للغة العرب سواء في دلالة الالفاظ على المعانى ، أو فى اعرابها وفنون صرفها ، أو فى كيفية تأليفها ، وغير ذلك من أساليب البيان

كذلك عمد الخليل بن احمد الى تحرى اشعار العرب من جهة أوزانها وتقاسيمها ، ورويها وقافيتها ، وما قد يدخل على الشعر من الزحافات والعلل ، وأبان مايجوز من ذلك وما لا يجوز ، واستخلص من هذا فنا له صبغة نقدية أيضا ، أعنى فن العروض

وبعد ، فلا شك فى أن من أشد ما دفع العلماء للاحتفال للنقد والتشمير فيه حتى اتسعت آفاقه ، وترامت أقطاره ، أمرين : الأول الاجتهاد فى التعريف بوجوه البلاغات فى القرآن والكشف عن أسرارها ، والدلالة على اعجازه فى حقيقته ومجازه

أما الثانى ، ففى سبيل المفاضلة بين الشعراء ، واجتماع كل ناقد لتجلية بلاغات صاحبه ، والتنبيه الى مواضع الحسن فى شعره ، ومواطن البراعة فى نظمه ، والاشادة بسبقه كلما استحدث جديداً . وكذلك التحسس من معايب قرنه ، وليسقط مزاله ، والابانة عن مواضع الاسفاف فى معانيه ، والفسولة فى لفظه ، والاسترخاء فى نظمه ، وهكذا . ولا أرى بداً من ان أعود الى القول بأن علوم البلاغة كما فشلت فى تعليم البلاغة وطبع الناس عليها ، فقد فشلت كذلك فى إذكاء ملكة النقد ، وتوسم أسرار الحسن والقبح في المنظوم والمنثور جميعا

وان من يتقرى آثار كبار النقدة من القدماء والمحدثين ، لا يراها متهدية إلا بالطبع ولطف الحس ورهافة الذوق ، وبالعلم باللغة ، أعنى متنها ونحوها وصرفها ، وبالعروض كذلك

نقد المعرى

لم أقع للمعرى على نقد متسق مطرد مجتمع الشمل إلا في كتابه (عبث الوليد) فى نقد ديوان البحترى . وانى أسوق اليك صدراً يسيراً منه لتتعرف مذهبه فى النقد وتذوق فنه ، قال :

قال البحترى : أشلى على منويل أطراف القنا ونجا عتيق عتيقة جرداء

ينكر عليه أنه قال : أشلى ، فى معنى : اغرى . والمعروف ان « الاشلاء » فى معنى : الدعاء ، لامعنى : الاغراء . وقد حكى أن « الكميت » استعمل « الاشلاء » فى معنى « الايساد » وروى هذا البيت فى شعره :

خرجت خروج القدح ـ قدح ابن مقبل على الرغم من تلك النوابح والمشلى

وإنما ينكر ذلك من يرده الى السماع . فأما من يحمله على القياس ، فهو عنده جائز . لأنه يجعل « الاشلاء » : دعاء للمشلى الى أذاة المشلى عليه

قال البحترى : كدن ينهبنه العيون سراعا فيه لو أمكن العيون انتهابه

فى النسخة : « كدن » وهو جائز . على أنه ردىء ، لأن الصواب ان يقال : رأته النساء ، فيؤنث الفعل بالتاء . أو : رآه النساء . فأما المجيء بالنون فى الفعل المتقدم ، فهو قليل . وذلك على مذهب من قال : أكلونى البراغيث . ومنه قول الفرزدق :

ولكن ديافیٌّ : أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط أقاربه

ولو قال : كاد ، لجاز ، وخلص من هذا الوجه . ويكون فى كاد ضمير المذكور ، فان جعله للعيون فهو جائز أيضا . الا أن الضمير يجيء فى ينهبن ، فتنفر الغريزة من ذلك ، لخلو « كاد » منه

وانما حمل أبا عبادة على مجيئه بالنون فى « كدن » كون « ينهبن » بعدها فى بناء البيت

قال البحترى :

فغدوت ذا بر لديك ونائل ورويت من اهل لديك ومرحب

هذا يحتمل ثلاثة معان :

أحدها : أن يكون يريد به كثرة الترحيب . من قوله : مرحبا وأهلا . وليس هذا بفائدة للمدوح ، الا أنه يدل على البشر والكرامة

والثانى : ان يكون أراد أنى من قولك لى : « اهلا ومرحبا » رويت ، وهذا كما يقال للرجل : إذا رأيتك فقد استغنيت

والثالث : أن يعنى كونه فى اهل ــ أى : من ينوب منابهم ــ وفى مرحب ــ أى : محل واسع . انتهى

وبعد ، فنقد المعرى يريك مبلغ غنى الرجل ووفرة محصوله من اللغة ، وكيف أحاط بها من جميع اقطارها ، ما يكاد يجل على علمه فيها جليل ، او يدق عن فهمه منها دقيق . وتراه فى نقده يصرف الى اللغة أجل همه ، على أنه لافت صدراً منه الى النقد العروضى ما أصاب موضعا للانتقاد . أما نقد المعانى ، وتفقد وجوه الحسن والقبح ، والاشارة الى ما فى نظم الكلام وما يتهيأ له من القوة والسلاسة ، او الترهل والفسولة ، فذلك ما لا يكاد يعنى المعرى كثيراً ولا قليلا !

على أن مما يلحظه مطالع المعرى الناقد ، أنه كثيراً ما ينكر الأمر على الشاعر . ويكشف عن جهة الخطأ فيه . ولكنه سرعان ما يدور من هنا ومن هنا في طلب المخرج والتماس الوجه . وكذلك ترفق أشد الترفق بالبحترى فى نقد ديوانه ، وان سماه « عبث الوليد »

عبد العزيز البشرى

وكلاء الهلال

فى الولايات المتحدة وكوبا وكندا والمكسيك والجهات المجاورة		Mr. Tofik Jabib 85, Washington St., 85 New York, N.Y (U.S.A.)
فى اللاذقية	سوريا	الخواجه نخله سكاف
فى انطاكية	سوريا	انيس افندى انطونيوس لاذقانى
فى اسكندرونة	سوريا	السيد عبد الله قمرى
فى طرابلس الشام	لبنان	عبد الله افندى حسنى ـ غرفة القراءة الامريكية
فى حماه	سوريا	الشيخ طاهر النعسان
فى الناصرة	فلسطين	موسى افندى خميس
فى بيروت دمشق الشام	لبنان سوريا	وجيه افندى طباره ٩ شارع اياس بيروت
فى دمياط		زكريا افندى الحزاوى، ناظر مدرسة الحزاوى
فى حلب	سوريا	عبد الودود افندى الكيالى صاحب المكتبة العصرية
فى مكة وجدة والحجاز		هاشم افندى على النحاس ص . ب ٩٧ مكة
فى الارجنتين		Snr. Nicolas Younes Tres Sergentos 427 Buenos Aires (Argentine)
فى جاوه		Mr. Abdullah Bin Affif—Cheribon Java
فى القاهرة وضواحيها		عوض افندى فهمى